

رواية

حسام الشحات





الكتـــــــاب	أخى كـــــرم
النـــوعيـــة	رواية
اسـم المؤلـف	حسام الشحات
تصميم الغلاف	محمد محسن
تنسيق داخلي	هبـــة خليـــل
الطبعة الأولى	يناير ٢٠١٩
رقــم الإيــداع	٢٠١٨/٢٥١٤٧
الترقيم الدولي	٩٧٨-٩٧٧-٦٦٣٤-٦٢-٩
إشراف عام	رباب الشهاوي
مديرة النشر	هند عبد الله (نور مانجا)
لطلب الكتاب	٠١١٢٦٦٥٢٢٧٨ ـ ٠١٠٢٢٨٩٧٦٤٩

ويمكن طلبه عن طريق موقع جوميا من Elfoad Publishing Marketplace



Alfouad_publishing@hotmail.com
facebook.com/fouadpublishing

رواية

أخي أكرم

حسام الشحات





الإهداء

إلى خالد ويوسف

إلى محمود ومصطفى

وإلى كل أبناء الأمة وشبابها

أخي أكرم...

١ .. الفتى

هل يدفع القلبُ الدم إلى الأطراف لتحيا؟ أم هي التي تدفع دمها إليه بنشاطها لينبض!

سألني ذات يوم سؤاله الأثير: ما أكثر شيء يسعدك؟ ... تعجَّب من إجابتي، ثم قال: سأدعو الله إذن أن يسعدك!

كالبدر ليلة المنتصف! بابتسامته الجميلة الصافية، تلك الابتسامة التي تقول- في صمت- كل شيء! أكان من حسن حظي- أو قدَري! أن أعرفه؟ وإلّا لما صدقت تفاصيل الحكاية، فما بالكم وأنا من أقرب الناس إليه، أو هو الأقرب إليَّ؛ جداً.

لا يعرف المرء متى وعى في الحياة ليتعرف على أقرب أقربائه، قد تذكر مثلاً متى وكيف تعرفت بأصدقاء الدراسة وصحبة المسجد والنادي والعمل، لكن هل تذكر متى تشكل وعيك الأول بأمك أو أبيك!؟ أو خالتك أو عمك؟ هو ابن خالتي، ويمكنك أن تقول: توأم روحي، لا أذكر متى عرفته أول مرة، سبقني إلى الحياة ببضعة أشهر، الملايين من البشر وأصناف الورود والرياحين تحتفل معه بيوم مولده؛ شاء الله أن يولد في يوم مشهود يُحتفل به كعيدٍ أو كيوم للأم؛ بداية فصل الزهور والخضرة والجمال: الربيع؛ ٢١ مارس، في نفس العام الذي شهد ولادتي ثم وفاة عبد الناصر: صاحب الصورة الكبيرة التي تواجهك حين تدخل بيتهم؛ حبيب الملايين من جيل آبائنا؛ قائد حلم الوحدة العربية وصاحب الإنجازات الكبيرة والمغامرات غير المحسوبة والهزائم المدوية.

شهد يوم مولده حادثاً مروعاً دمر سيارة والده تماماً بينما أصيب الأب بكدمات خفيفة، فقالوا تفاؤلاً: نسميه (أكرم) لأن الله أكرم أباه بالنجاة، هو الخامس بين ستة من الإخوة والأخوات، لي خالتان، لا أدري عن عمق علاقات ذوي القرابة- في عصر شبكات المعلومات والهواتف الذكية- الآن شيئاً لكننا أنا وإخوتي وأولاد وبنات خالتيّ جميعاً نقول لخالاتنا (ماما) ولأزواجهم (بابا)! عندما كان يلمِّح بعض الناس إلى شبه بيني وبينه أقول:

نحن توائم! فإذا ابتسم مندهشاً لأن الشبه ليس متماثلاً إلى هذه الدرجة أقول: لكنه ولد قبلي بخمسة أشهر! ثم أذكر الحقيقة: ابن خالتي وأخي! في قلب قرية من قرى الدقهلية ولد وعاش بواكير طفولته، تلك التي حملت أول وعي في ذاكرتي عنه (كفر شريف).. هل يتغير الناس بمرور الزمن؟ ربما ولكنه يمثل عكس تلك المقولة تماماً؛ فصفة الرجولة عنده كانت الأبرز في تلك السن المبكرة جداً، أتحدث عن الخامسة من العمر! رجولة؟ ربما تظنون أنني أبالغ أو أتحيز! لكنه كان كذلك! بعد قليل يشتهر داخل العائلة بلقب (الفتى)! فإذا قيل: كيف حال الفتى؟ تعرف أن السائل يقصده، ربما لا تصدُق هذه العبارة على أحد أكثر منه (ولكلٍ من اسمه نصيب) الأكرم فعلاً وقولاً وعاطفةً بين كل من عرفت في حياتي من الأقارب وغيرهم!

في سن السابعة؛ يصطحبني والده لأقضي عندهم بضعة أيام من أجازة الصيف في بيتهم الكبير بغرفه الواسعة وأسقفه العالية، والدوّار الذي كان يعج بالبط والإوز وغيره من الدواجن، والخيل التي لم أرها وجهاً لوجه إلا هناك! وكثير من الشغالات يساعدن خالتي، ووالده الذي كان يستقبِل بوصفه كبيراً جداً في بلدته- بل في مركز شربين كله- رجالاً كباراً منهم أعضاء المجالس والاتحاد الاشتراكي العربي- الذي كان أحد رجاله- والعمدة ابن عمه ومأمور المركز في الصالون الذي يسمونه (المندرة) تدور حوارات لا أفهم منها شيئاً لكنها توحي بأهمية كبيرة، والده الذي كان يمتلك عدة سيارات ويعمل عنده عدد من السائقين (الخصوصي) وقت أن كانت السيارة رفاهية لا يملكها أغلب الناس! أمه خالتي الطيبة الصابرة التي واجهت مآسي كثيرة في حياتها بابتسامة عذبة واثقة في فرج قريب من الله، أخته الكبرى التي تجمع في تعاملها بين الحنان والحزم، بقية إخوته وأخواته- إخوتي وأخواتي الأحباء- جدته لأبيه التي تسخر من سذاجة تصرفاتي كطفل مُرفّه جاء من المدينة ليعيش أياماً في مكان غريب فيبكي ويكثر الشكوى، فلا كهرباء بل لمبات جاز وكلوبّات وراتينة! دورة بلدية أتأفف منها فيسقط حذائي فيها ولا أعرف كيف أتصرف! لا تلفاز ولكن يعوض غيابه حكايات أخته الكبرى التي تجمعنا بعد العشاء

وسرعان ما ننام، أما أخوه الأكبر فكان يهوى الغناء ويحفظ مواويل جميلة تذكر أبراج الحمام واليمامة البِنّية العاشقة، يفتقد الكبار طول البال وتزعجهم سخافات الصغار فتقول لي جدته بعد أيام: اللي يخرج من داره يتقلّ مقداره!

من بينهم يحرص أكرم على ألّا يغضبك أبداً؛ يذهب كل صباح ليحضر التوت بالغ الحلاوة من مكان لا نعرفه، ثم يحضر الخبز الساخن والكُماج طازجاً نفطر به مع الحليب المغلي والعسل الأبيض بالقشدة، ثم يأخذني إلى (الغيط) بصحبة عبد اللطيف الفلاح البسيط، حيث اللعب والجري والذرة المشوي وصيد السمك! أو إلى مقهى عبد المولى على رأس الطريق والذي تجلس فيه زوجه العجوز التي تقدم لنا مشروب العنّاب الساخن وتروي لنا قصصاً عن أجداد الفتى الذين نزحوا قديماً من أرض الحجاز وتملكوا الأرض، أو إلى دار زوج عمته التي نطلق عليها مثلما يطلقون بالطبع (عمتي) في تلك الطرقات المتعرجة الضيقة التي سرعان ما حفظتها عن ظهر قلب.

في صباح مبكر أذكر مباراة في كرة القدم التي أحب أن ألعبها ولكن تنقصني الموهبة! يسخر الرفاق مني؛ طفل سمين جداً ثقيل الحركة، وهل يحق لمثلي أن يلعب؟ غاب الفتى في بداية التشكيل لأنه ذهب ليحضر التوت، يختار كل (كابتن) أفراد فريقه، يفرض القوي رأيه؛ ولماذا يختارون من يؤدي إلى خسارتهم؟ يختارون (الحرّيف) أولاً، يأتي فيُفاجَأ ببكائي: ماذا حدث؟ لم يخترني أحد، يربت على ظهري: لا تبكِ، تعال نفطر وستلعب بعد قليل! يأتي دوره في المباراة التالية بوصفه من الكباتن الكبار فإذا به يختارني أول لاعب في فريقه؛ أعرف ما دار بذهنه: فليخسر الفريق ولا ينكسر قلب أخي، يسألني بحنان: اختر في أي مركز تحب أن تلعب؟ مدافع، لكن الفريق لم يخسر رغم سوء لعبي فموهبته الهجومية حولت الهزيمة الوشيكة- بفضل الأهداف التي أحرزتها في مرمى فريقي- إلى انتصار! تنتهي مباراة ثم مباراة؛ يتحسن مستواي ونفوز بالدورة! يهنئني قبل كل الزملاء ويشيد بأدائي رغم أنه هو السبب في الانتصار! يحيط كتفي بذراعه ويضمني: يا رب تكون مبسوط! يحمل عصا صغيرة ويلصق

بها ورقة يكتب عليها (بطل الدورة) ثم يقف فوق كنبة المندرة ويقول بصوت مبحوح مقلداً صوت السادات بطريقته المضحكة (بسم الله وباسم الشعب وباسم الأمة العربية أقدم جائزة بطل الدورة) ثم يسلمني إياها!

يأتي أبي لأعود معه إلى القاهرة، أبكي لأبقى بضعة أيام أخرى فيصر أبي، يزداد بكائي: أريد أن أبقى مع أكرم! يتعجب الحضور: ولماذا (أكرم) بالذات؟ كطفل لا يجيد التعبير عن مشاعره لم أقل الكلمة الصحيحة: أحبه! ولكن الحياة تمضي، أعود إلى القاهرة، ولا تنقطع أخبار كل منا عن أخيه.

الفتى كثير الحركة والنشاط؛ لا تمر بضعة أيام إلا وتجد عنده إصابات هنا وجروحاً هناك، كنا في نوفمبر من العام نفسه؛ وبينما كان التلفاز ينقل هبوط السادات في مطار بن جوريون ليسلم الصهاينة اعترافه بدولتهم الغاصبة وقع الفتى فوق ذراعه اليمنى فأصيب بكسر؛ كان والده غائباً في سفر خارج مصر، أصر أولاد عمه أن يأخذوه إلى (المجبراتي) بدلاً من الطبيب!

وبعد ثلاثة أسابيع وجدوا أن ذراعه تم التئامه بطريقة خاطئة ولم يعد الإصلاح ممكناً، كان الوقت قد فات، وظل عمره يعاني من تشوه يجعله يثني ذراعه من مفصل الكوع إلى الأمام وإلى الخلف!

يُنقل مقر جامعة الدول العربية إلى تونس، ويُقتل السادات ويظلنا عصر مبارك

وبعد مؤامرات ومغامرات وكرم زائد ومشاريع غير موفقة تتراكم الديون فيضطر والده لبيع كل شيء، ثم يتركون بيتهم وينتقلون ليسكنوا في شقة بالإيجار في طلخا القريبة من المنصورة، أزمة طاحنة تدفع والده- الذي كان من كبار المُلاك الأثرياء- إلى البحث عن عمل بأجر شهري! وتنقلب الدنيا بهم رأساً على عقب.

٢ ... زلازل صغيرة

تمضي الحياة رتيبة؛ فنحن الآن في عصر مبارك، نصل إلى المرحلة الإعدادية، نشترك معاً في حب فرقة الأصدقاء وأغاني منير؛ يضاحكني فيقول مقلداً سعيد صالح في مسرحيته الشهيرة: أنت المخ وأنا العضلات! فبينما أهوى القراءة وأتفوق في لعب الضُّمنة (الدومينو) الأمريكاني والكوتشينة، يهوى الفتى الحركة والنشاط ويتفوق في كرة القدم والجري، ونتبادل الفوز في الشطرنج؛ ذلك الشطرنج الخشبي الفخم ذو القطع الضخمة الذي لم أر مثله إلا عندهم، يسكنون بجوار شريط القطار الذي كلما نهب الأرض اهتز البيت بشدة كأنما وقع زلزال! في البداية تخاف تلك الرجفة؛ وبالتدريج تعتادها ويصبح مرور الوقت بدون حدوثها هو الأمر الممل؛ يصبح من الغريب أن يمضي بك الزمن هادئاً من دون تلك الزلازل الصغيرة التي تحرك الركود الآسِن! لا تؤذيك بل توقظك! أما أن يمر وقت طويل بدونها فشيء سخيف! وما بالك إذا توقفت القطارات تماماً؟ أهو استقرار ظاهري أم جمود قاتل؟! يحفظ الفتى بمهارةٍ مواعيد القطارات- التي كانت حينها منتظمة- فتجده فجأةً يقول: هذا قطار السابعة إلا الثلث، أو يقلق فيتحرك جيئةً وذهاباً ثم يقول: تأخر قطار الرابعة عن موعده! نلتقي في الإجازة الصيفية، أجده يصلي في المسجد القريب بانتظام، يدعوني مع كل أذان: هيا نتوضأ ثم ننزل معاً، بعد فترة يتسلم مفاتيح المسجد؛ يعهد إليه الإمام بفتح أبوابه قبل صلاة الفجر فهو يستيقظ ويتجهز قبل الصلاة بوقت كاف ولا يخشى الكلاب ولا الظلام.

يحب الصلاة في المسجد فلا يتأخر عنها: نائم، يأكل، مريض، يلعب، يذاكر، يشاهد مباراة كرة للخطيب الذي يحبه- مثلي- بجنون، وقد يتأخر المؤذن فيسارع سعيداً لرفع الأذان والإقامة: نكسب الثواب؛ سمعت أن المؤذنين أطول الناس أعناقاً يوم القيامة.

تظهر نتيجة الإعدادية؛ ينجح الفتى، وأنجح بفضل الله بتفوق يضعني في المركز الثاني على المنطقة التعليمية، لا تسل عن فرحته التي ربما فاقت فرحتي! بل ربما فاقت فرحته لنفسه لو حقق ذلك التفوق! أزوره؛ نتمشى

فيظل يعرفني بأصدقائه وجيرانه وصحبة المسجد والبائعين في المحلات فخوراً بي:
ابن خالتي؛ الأول على مدرسته، ثم يسارع مؤكداً: والله اسمه جاء في الجريدة! يشتري شوكولاتة (كورونا بالبندق) وزجاجة (شويبس يوسفي) يعرف أني أحبهما؛ يعطيني إياهما ويقول: مكافأة على تعبك، أحاول معه:
- وأنت؟ ألا تأكل أو تشرب معي؟
- لا، هذه مكافأة خاصة مني لك.. فأرد:
- فلنقتسم
-لا والله، هما لك وحدك
نمشي في شارع صلاح سالم المزدحم في قلب طلخا فأجده فجأةً يمسك بيدي ويرفعها إلى أعلى وأنا أقاوم لا أفهم ما يريد، فيهتف وسط الناس المندهشين: الناجح يرفع إيده، أسارع فأقول:
- أكرم! فيهتف مصراً على رفع يدي...
- هذا أخي، الأول على محافظة القاهرة كلها! أهدئ من روعه وأنا في غاية الحرج فأقول بصوت خجول:
لكنه يقول: - بل الثاني على المنطقة فقط..
- وما الفرق؟ المهم تفوقك؛ أنا فرحان بك
- هكذا في الشارع؟ يلمح تحرجي من تلك الجرأة العلنية فيقول:
- والله ما أردت إلا إسعادك
بعد أيام يطلب منه والدي أن يبدأ في إعطائي دروساً في قيادة الدراجات التي يجيدها، مدرستي الثانوية ستكون بعيدة عن البيت بعض الشيء وسيشتري أبي درّاجة أذهب وأعود بها، يصبر على سقطاتي وأخطائي ويساندني بقوة رغم ثقل وزني الذي ربما كان ضعف وزنه! سقطة وسقطات، مرة ومرات؛ حتى تعلمت.
يغيب بضع ساعات في المساء فأسأل؛ يعمل في الأجازة بدافع من حبه للنشاط والحركة وتخفيفاً عن أبيه، يميل إلى العمل اليدوي ومهارات الإصلاح والفك والتركيب؛ يعمل مساعداً لكهربائي فيتقن الأمر، ثم يتركه ليعمل في ورشة لصناعة المناضد (الفورمايكا) والكراسي، يسعد صاحب

الورشة بدأبه وأمانته، يحصل في نهاية الأسبوع على جُنيه! يحضر أشياء لا يتنبه لغيابها غيره؛ طماطم! خيار! جزر! جرجير، البطاطا التي تحبها أخته والعنب الذي يحبه أخوه، وإذا تبقى شيء يضعه بين يدي والدته ويقول لها فرحاً: تفضلي يا أمي، أنا الآن أتقاضى مرتباً محترماً فاطلبي مني ما شئت! تدعو له بالخير في الدنيا والآخرة وترد له نقوده: كفاية ما تحضره يا حبيبي، الله يبارك لك ويرزقك ويطعمك ما يحرمك ويفاديك يا رب.

نصل إلى المرحلة الثانوية ويستمر في الورشة ثم يحدث خلاف في العمل فيتركه ويفتتح أول مشروع خاص به! يشتري الذرة فيشويها ويبيعها على فرشة بجوار المسجد فيكسب قروشاً قليلة ينفقها دوماً لإسعاد أمه وإخوته.

يمر عام دراسي، يزورنا والده ويلاحظ أمراً فيبتسم ويقول:

- ما شاء الله، وزنك تحسن كثيراً، فيرد أبي:

- سنة بالدراجة ذهاباً وإياباً صنعت الفارق، فقال:

- جميل، فقلت:

- الحمد لله، الفضل لأكرم ودروسه.. يرد والده بابتسامة حانية تمهد لتتقبل منه النصيحة دون أن يحرجك:

- بل قل يا ولدي الفضل لله أولاً، ثم لأكرم

- الفضل لله أولاً، ثم لأكرم.

عيد العمال؛ أول مايو ١٩٨٦، وشقيقته الكبرى تضع مولودها الأول في جيله الذي يأتي دوماً مصحوباً بتلك المحبة الخاصة؛ أول من سيقول له- ولي أيضاً-: خالي.

يترك أمه مشغولة مع ابنتها ويصعد إلى سطح البيت مع صديقين له؛ يذبحون إحدى الدجاجات التي كانت خالتي تربيها، يسرعون إلى المطبخ فينظفونها ويزيلون ريشها ويغسلونها بالملح والدقيق كما كان يرى أمه تفعل، سلقوها وأخذوها مع الحساء إلى أخته في موقف طريف لم يتوقعه أحد.

٣... العساكر

في الأجازة نسافر لزيارة الأقارب، كالعادة قرر أبي أن يكون السفر بالقطار؛ وما أدراك ما يوم الخميس: زحام شديد في محطة مصر، بشر من كل نوع وصنف، لكن ما يميز المحطة في ذلك اليوم تحديداً كان اللون الكاكي! فاليوم إجازة العساكر؛ يعودون من المعسكرات إلى بلدانهم وقراهم، يركبون فيزحمون القطار برائحة عرقهم الكريهة، أمقُت القطار: بطيء في أسرع حالاته، مزدحم في أفرغ حالاته، قذر في أنظف حالاته، يفضل أبي الدرجة الثانية العادية؛ فخير الأمور الوسط! لسنا من الأثرياء لنركب في الدرجة المكيفة- وأجهزة التكييف غالباً لا تعمل- ولسنا كذلك من شديدي الفقر لنركب في الدرجة الثالثة- يفضل آباؤنا القطار لأسباب تتعلق بالأمان؛ فسوّاقو البيجو- أجرة بين المحافظات- شباب مغامرون مجانين يطيرون على الطريق ويعرّضون أرواح الركاب للخطر! الحمد لله نجد أماكن للجلوس، لكن العسكر يملؤون القطار؛ يقفزون فوق أماكن الحقائب الفولاذية المتينة؛ يحتلونها بسرعة فالقطار- واقعياً- ملكهم، وأين نضع الحقائب؟ في أي مكان، هذه ليست مشكلتهم! تتدلى أرجلهم من فوقنا ببياداتهم الضخمة التي تهيل تراباً وطيناً فوق رؤوسنا! معارك مستمرة بينهم وبين باقي الناس؛ قلة ذوق، عدم تربية، أنتم تعيشون في بيوتكم براحة وأمان؛ تمشون على الأسفلت، أما نحن فنعاني في الإقامة والتنقل والطعام والشراب والخدمة وحمل السلاح في معسكرات جبلية شديدة القسوة، هذا واجبكم، لا طبعاً، لستم مثلنا، احمدوا الله أن تركنا لكم بعض الأماكن تجلسون فيها مستريحين، بطء ممل ينشر الهوام والذباب فيزيد العرق المتراكم لدغاته ضراوة، العربات في غاية القذارة والزحام، وأغلب النوافذ مهشمة الزجاج، دورات مياه تعافها الحيوانات، باعة جائلون يبيعون كل شيء: العسلية والسميط والمشروبات الغازية والشاي! تلوث سمعي وبصري مخيف، لا يمكنك أن تذهب إلى عربات الدرجة الأعلى وإلا (تتطوق) أي تدفع مبلغاً إضافياً! ولن تجد مكاناً للجلوس فالمقاعد محجوزة! يتعطل القطار فنصل متأخرين عدة ساعات.

لكن أكرم يزيد كراهيتي للقطار؛ ذات ليلة ترسله أمه لشراء بعض الخضروات من السوق الذي لابد أن يعبر شريط القطار ليصل إليه، يعود بعد إحضار الخضروات فيجد القطار رابضاً يسد الطريق، يحفظ المواعيد؛ هذا قطار بضائع سيقضي وقتاً طويلاً ليتحرك وحتى لو تحرك فسيكون ببطء شديد، يعبر من تحت القطار لأن لديه عملاً سيتأخر عنه إذا انتظر، يتحرك القطار فجأة! يسرع الفتى فيصاب بقطعة حديدية بارزة تشج رأسه ويتفجر الدم! يحمله الناس إلى المستشفى؛ جرح عميق يستمر أثره سنوات.

ما أقسى تلك القطارات الرتيبة؛ إذا ركبتها تشكو الزحام والقذارة والعساكر والتجمد، وإذا مررت أسفلها أصابتك بالجراح وربما قتلتك، لن أسافر في القطار بعد ذلك، وهل بطء القطارات يمنع عنها الحوادث؟ وهل سرعة البيجو تُقصِّر الأعمار؟

أزورهم وحدي في إجازة السنة التالية؛ نتمشى فوق كوبري طلخا متجهين إلى المنصورة، ثم على كورنيش النيل؛ نتحدث عن كل شيء؛ السياسة والكرة والفن والطبخ! يحب الطهي ويقف بجوار خالتي يتعلم منها كثيراً من أصنافها الشهية! نحكي عن أحلامنا في مستقبل أفضل؛ في بلدنا ووطننا العربي بل في الدنيا كلها؛ فالعالَم ينتظرنا لنقوده إلى مستقبل أكثر عدلاً وأماناً! أسأله عن أحلامه فيجيب:

- سأعمل وأعمل حتى أدخر مالاً كثيراً

- وماذا تفعل به؟

- أفتتح مشروعاً يعمل به كل شباب العائلة ويحقق لي الثراء لأسعد أقاربي وأعوض أمي وأبي وإخوتي معاناة السنين، أضحك:

- ربنا يحقق أحلامك.. نتمشى يساراً على الكورنيش، السينما في الجهة الأخرى تعرض إعلاناً لفيلم بصورة امرأة متحررة- للكبار فقط- أشير إلى الصورة وأحثه:

- أصبحنا الآن من الكبار؛ معنا بطاقات شخصية.. يبتسم بامتعاض كأنه يلومني على تلك الفكرة الماجنة، نكمل ونحكي؛ نعبر الشارع فنجعل بنك مصر عن يميننا ونكمل فنصل إلى تقاطعه مع السكة الجديدة، عند هذا

المكان يمكننا أن نكمل في ذات الاتجاه لنسير في شارع حسين بك حيث يسكن أحد أخوالنا قبل نهاية الشارع، أسأله: تحب نزور خالك؟ يرد:
- أظنه لم يعد من العمل.. خالي يعمل في أحد مصانع النسيج بالمحلة الكبرى ويسافر بالقطار يومياً من المنصورة إلى المحلة وبالعكس! ننعطف مع السكة الجديدة يميناً، نشاهد محلات الذهب بجوار محلات الأحذية والخردوات، وقبل شارع بورسعيد المتعامد نعود إلى الجهة المقابلة من السكة الجديدة، أحياناً نتمشى ونحكي لا نشعر بالوقت، سوق الخواجات، العباسي، حتى نصل إلى ميدان الطُّميهي حيث المقلة الشهيرة التي تقدم اللب ساخناً دوماً والفول السوداني المعتبر، في مسيرة عودتنا يسألني:
- وماذا عن أحلامك أنت؟ أبتسم متحرجاً وأسرح قليلاً ثم أقول:
- دعك مني ومن أحلامي، يصر: أقسمت عليك بالله، أخبرني ماذا تريد في المستقبل؟
فأرد بعد تردد: الوحدة العربية.. ينظر إليّ متعجباً... فأكمل:
- وهل يليق أن يظل مقر جامعة الدول العربية في تونس طيلة تلك السنوات؟
- لا أذكر متى نقلوها خارج مصر
- ١٩٧٩، أريد عودتها إلى مكانها الطبيعي، ثم نعود إخواناً حتى نسترد الأقصى من الصهاينة المغتصبين، يحرك رأسه مندهشاً:
- أكيد هذا حلمنا جميعاً، لكنك تحيرني يا أخي
- لماذا؟
- أسألك عن حلم شخصي لك، ألا تريد مالاً؟ فيلّا؟ سيارة؟ زوجة جميلة وأولاداً؟ وظيفة محترمة؟ إيه؟ فابتسمت وقلت: كل ذلك جميل ولكنه ليس حلمي! أكنت محقاً، أم مغفلاً، أم مجرد حالم رومانسي؟ يضحك ويقول:
- لكن هناك سلاماً الآن! والعرب متفرقون.. أضحك:
- العرب إخوة والخلافات ستُحل إن شاء الله، أما السلام؛ فهل تصدق أنه موجود؟ فيرد بحماس:

- بل يتجهز أسود جيشنا حتى يعودوا ليدمروا الصهاينة... فأبتسم:
- أتمنى!
نعود إلى الكورنيش، نتخطى عن يميننا (الهابي لاند) التي كانت وقتها اسماً على مسمى؛ مكاناً عائلياً جميلاً نظيفاً عامراً بالخضرة والزهور والأراجيح، نكمل حتى نصل إلى كوبري القطار فنعود عبره إلى طلخا، نلتقي بشابين في مثل عمرنا؛ يهتف:
- أهلاً يا شباب.. ويعرفني إليهما؛ مجدي وبهاء أشطر زملائي... فيقول مجدي:
بل أنت الأشطر، فيقول بهاء:
- لا داعي للتواضع يا أكرم فنحن نتبادل المراكز الثلاثة الأولى... نسير جميعاً نتحدث ونقزقز اللب ونضحك، أتذكر فأقول:
أنتم الذين كنتم معه يوم ذبح الدجاجة؟ يضحكان فيقول:
- نعم هما.
ثم نفترق على وعد بلقاء في الليلة التالية لنلعب كرة الطاولة- لعبتي المفضلة.

□

٤... بنج بونج

يشبهون الحياة بالقطار! تركب فتقابل كل أصناف البشر؛ والناس درجات! الأولى للأغنياء والمحظوظين، والثانية المكيفة للمتوسطين والمستورين، والبؤساء كُثر في الدرجة الثالثة، رجال ونساء، كبار وصغار، تمر بكثير من الأماكن؛ أراضٍ خضراء، جبال ووديان وسهول، صحراء صفراء، وسماء زرقاء، وترى ما لا يُحصى من المخلوقات، ثم يصل كل راكب إلى مكانه فينزل في محطته، موعد ومكان محدد بالقدر (وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت) أما أنا فأفضل أن أشبه الحياة بلعبة كرة الطاولة! بنج بونج؛ تلاعبك الدنيا فتتقلب في أحوالها؛ تعلو (بنج) ثم تهبط (بونج) تضربك الحوادث فتنضجك بين أفراح وأحزان؛ ضربة قوية أكثر مما يجب تذهب خارج الطاولة فتخسر النقاط، أو قوية مناسبة فتكسب بها نقاطاً! ضربات متوالية سريعة عند المحترفين بطيئة عند المبتدئين بأنواع مختلفة: ضربة بداية (سيرف) لولبية (سكروو) قاطعة (سبين) قوية (شوت) قصيرة خلف الشبكة أو عميقة تلمس بالكاد طرف الطاولة (تَتش) اليوم وفاة، غداً ولادة، خطوبة، زفاف، نجاح، رسوب، حادث؛ اليوم خمر وغداً أمر! اليوم بنج وغداً بونج، تضحك بجنون ثم تبكي بحرقة، تغضب ثم ترضى، وما الفارق بين التشبيهين؟ أرى الحياة أسرع إيقاعاً من القطار، ولماذا أتفلسف؟ أظنه وقت الفلسفة، كنا في مرحلة من العمر يحاول فيها المرء أن يكتشف نفسه والعالم من حوله من جديد، يتغير جسده ويتطور تفكيره، هل مررتم بتلك المرحلة؟ لم تعد طفلاً ولم تستوِ، مرحلة الشك في كل شيء، البحث عن كل شيء، التمرد على كل شيء، والتساؤل حول كل شيء: الله! القضاء والقدر، حقيقة الحياة والموت، التأرجح مرات كل يوم بين شك قاتل ويقين مطمئن، ثم الأسئلة التي يقتلها الشباب بحثاً: اللحية؛ فريضة أم سنة؟ هل باع الفلسطينيون أرضهم حقاً؟ هل النقاب فريضة؟ أم يجوز إظهار الوجه والكفين؟ هل سنحارب الصهاينة مرة أخرى؟ تلك القُصة التي تظهر من تحت الطرحة! هل سيفوز الزمالك

بالدوري يوماً؟ الماكياج والنمص وصوت المرأة! البنطلون حلال أم حرام للنساء؟ بل وللرجال؟! علامات الساعة: الصغرى التي تحققت جميعاً، والكبرى المنتظرة قريباً؟ ماذا سنفعل حين يأتي المسيح الدجال؟ هل النظر للفتيات حرام؟ أكيد؟ وما رأيكم: فلنجمع إذن بين التشبيهين، هي قطار يتأرجح سريعاً فيلعب بنا (بنج بونج)! لكن الفتى كان له رأي آخر، ذات صباح يقول لي:

- تعال نلعب شطرنج
- أحب لعب الشطرنج عندكم كي ألمس بيدي تلك القطع؛ تحفة فنية رائعة!
- وماذا تفيد فخامة القطع إذا كنت لا تجيد اللعب؟
- تفتح النِّفس.. نرص القطع فيقول:
- ألا ترى معي أن الحياة تشبه الشطرنج.. أضحك:
- هذه جديدة، منك نستفيد
- بجد، نضحي بالعساكر المساكين من أجل أن يعيش الملك
- قد يتقدم العسكري ويتقدم حتى يترقى، ويصبح وزيراً
- نادراً.. فضحكت وقلت:
- بل وقد يصبح مِلكاً! اِلعب.. يضحك:
- في الحقيقة كل القطع تضحي بنفسها لكي يحيا الملك
- والحياة مناورات مستمرة
- طبعاً، الوزير يتحرك في كل اتجاه والحصان ينطلق بدهاء فيُحدِث مفاجآت غير متوقعة
- لكن الملك في الحقيقة أضعف قطعة، ألا ترى أنه الوحيد الذي لا يستطيع أن يتحرك إلا مربعاً واحداً، حتى العسكور يمكنه أن يتقدم للأمام مربعين في أول حركاته!
- ههههه يستطيع الملك أيضاً أن يتحرك أكثر، مع التبييتة
- تستعين بها كثيراً! أيضاً حماية للملك
- قواعد اللعبة يا فتى

- قواعد ظالمة، فلنغيرها
- وما الجدوى؟
- العدل!
- العدل قواعد يلتزم بها الجميع؛ لكل منا مواهبه، وقطعه التي يجيد تحريكها، والأخرى التي لا يجيد تحريكها
- بالضبط، لكل منا في الدنيا أربعة وعشرون قيراطاً
رغم عدم اقتناعي- جزئياً- بهذه النظرية، لكنها جديرة بالتأمل، قلت له:
- أراك تتفلسف يا فتى؟
- أتقمص دورك الليلة
- هات ما عندك
- أحد أصدقائي يقول: الحياة مثل محل الأحذية
- كيف؟ أضحك وأكمل: ذكرتني بالنكتة الشهيرة التي يشبهون الحياة فيها بالخيارة: يوم في يدك ويوم في.. السَّلَطة، يصمت قليلاً ثم يعاود الفلسفة: يضحك فيهتز جسده كله ويقول:
- صدقاً؛ تشبه الدنيا محل أحذية كبير، يدخله الناس فيأخذ كل منهم نصيبه؛ بعضهم يأخذ حذاءً أصغر من مقاسه فيؤلمه طيلة حياته، وبعضهم يأخذ حذاءً أكبر من مقاسه فيظل يعاني من التخبط والقلقلة
- وبعد؟
- القليل جداً يخرج بحذاء مناسب له فيعيش سعيداً
- لا، الكل يأخذ ما يختار، والكل مُحاسَب على اختياره
- ترى الإنسان مخيراً أم مسيراً
- أراه مسؤولاً! واللهُ هو العدل
- يعني؟
- يعني ألّا نشغل بالنا أصلاً بسؤال كهذا، كل منا سيُحاسَب على اختياراته وتصرفاته في الدنيا، والله عادل، ألمح دمعة توشك أن تغادر مقلته:
- يرعبني حديث إن الإنسان قد يعمل بعمل أهل الجنة حتى قبل موته فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وقد يعمل بعمل

أهل النار حتى قبل موته فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها
- ويرعبني أيضاً، ولكن الحديث عن العمل الظاهري أمام الناس، أما القلوب والنوايا فلا يعلمها إلا الله، وما يخيفنا في الحديث أحوال نادرة، أما الغالب فإن من يعيش على الصلاح والتقوى يقبضه الله على عمل صالح فيدخله الجنة برحمته
- لكنك لم تجب
- تسألني سؤالاً إجابته محيط لا قرار له (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) هل يجبرنا العادل سبحانه على شيء ثم يحاسبنا عليه؟
- ترى الإنسان مخيراً إذن، لكنك لم تقلها بصراحة
- ولن يجيبك أحد بما يشفي تساؤلاتك، ولماذا نضع أنفسنا فقط بين هذين الاختيارين؟
- مسير أم مخير؟
- نعم، نقول إما هذا أو ذاك، ولكن لله تعالى في خلقه شئوناً أخرى لا نعلم عنها شيئاً
- كيف؟
- تأمل التنوع المذهل بين أنواع المخلوقات، انظر مثلاً إلى تباين البشر المعجز في بصمات الأصابع، وبصمات الصوت، حتى لون العين والبشرة؛ هل الناس أبيض وأسود فقط؟ أو طويل وقصير فقط؟ كل إنسان هو عالَم مستقل بذاته من الأسرار التي لا يشاركه فيها أحد!
- سبحان الله، ولكن ما علاقة ذلك بسؤالي
- ننظر إلى الأمور وكأنه حتم علينا إما أننا مسيرون أو مخيرون وفقط بينما قد يكون هناك حالات كثيرة بين الحالتين أو حتى خارجهما أصلاً!
- وما معنى القدَر إذا كان الإنسان مخيراً؟
- وهل القدر معناه الإجبار؟
- ما زال السؤال يؤرقني
- لا أعرف إجابةً إلا ما قلته لك: الإنسان مُحاسَب مسؤول عما يفعل، والله عادل، فلننشغل بأن نعمل لننجو (فمن زُحزِح عن النار وأُدخِل الجنة فقد فاز) هذه دار عمل ولا جزاء وهناك دار جزاء ولا عمل، وربنا

يجعلنا من الفائزين، يتبسم أخيراً:
- دوماً تحيرني
- وأنا كذلك مُحتار
- ههههه مُحتار مُحتار
- ها أنت قلتها بنفسك، مُختار مُختار فكيف يكون الإنسان مجبراً؟
على العكس مني تماماً، هو جريء يحب الغناء والصفير والتصفيق، يجري ويركل الزلط بقدميه في الطريق دون حرج، وربما يصيب شيئاً فيذهب يرجو صاحبه أن يسامحه... : لم أقصد والله، فإن رضي وإلا عرض عليه أن يعوضه ولو بعد حين!
نعود يوماً فنجد خالي الأكبر عندهم، يشعل سيجارة ويقول بلهجة آمرة:
- طفاية.. يبادره الفتى:
- شيخ المسجد يقول: التدخين حرام، فلماذا تدخن؟ يدخلان في جدال:
- بل مكروه
- حرام
- مكروه
- وحتى لو مكروه فلماذا تفعل المكروه؟ نقاش حاد لكنه مرح ينتهي بقول خالي له:
- روح أنت والشيخ صاحبك، لا تفهمون.. فيضحك ويقول:
- حرام وأنت عارف!
مساء اليوم التالي نلتقي بصديقيه في النادي القريب؛ أتفوق في كرة الطاولة؛ نلعب وأفوز فيهتف: قلت لكم سيفوز، أخي حبيبي هزمكم، الله أكبر، القاهرة تفوز على المنصورة من جديد! فيضحك زملاؤه كذلك لأنهم يعرفون أنه يمزح ولا يتعمد إحراجهم! ولو هزموني لطيَّب خاطري وربت على كتفي وقال كلاماً قريباً من: ولا يهمك، العيال دول أنا عارفهم طول النهار قاعدين يلعبوا لا شغلة ولا مشغلة، يسأل صديقه مجدي:
- ماذا قررت؛ علمي رياضة أم علوم؟ فيقول:
- علوم إن شاء الله، ويسأل بهاء فيرد:
- رياضة، وأنت يا أكرم؟ فيقول:

- لم أقرر، سأرى المناهج أولاً، يسأله بهاء:
- وحجزت؟
- للدروس الخصوصية؟ لا لم أحجز، يسارع مجدي:
- اِلحَق لك مكاناً، الكل يحجزون الآن وأخشى أن يفوت الوقت، لم يعد المدرسون يشرحون في الفصل، أتعجب من الكلام؛ عندنا في القاهرة في ذلك الوقت كانت الدروس الخصوصية موجودة، لكن المدرسين - أشهد لأغلبهم - كانوا يشرحون ويرهقون أنفسهم ويؤدون واجبهم في المدرسة والحصص، عندما كان هناك مدرسة وحصص! أما أن تحجز قبل بدء الدراسة فالأمر لم يكن على تلك الدرجة من الأهمية، لم أحصل أنا كمثال على دروس خصوصية في تلك المرحلة، هل بدأ فساد التعليم أولاً هناك في الأقاليم، ثم انتقلت العدوى إلى القلب! إلى القاهرة شيئاً فشيئاً حتى وصلنا إلى ما نحن فيه الآن؟ أهو فساد أم إفساد متعمد؟

يسافر والده لعمل وتلاحظ والدته تغيراً، فإذا قالت له:
- تعال كُل معنا يا أكرم، يرد:
- لست جائعاً، وإذا قالت له:
- خذ معك كيس القمامة، يقول في تأفف:
- ولماذا أحمل القمامة كل يوم؟

يتأخر مع أصدقائه خارج البيت فتقول له:
- فلتُحضر مجدي وبهاء هنا أهلاً وسهلاً
- لا أحب اختناق الجدران الأربعة
- إذن لا تتأخر
- لم أعد صغيراً، سأعود حين ننتهي من اللعب

يتأخر ليلةً إلى قرب منتصفها، تخرج أمه تبحث عنه في غاية القلق؛ يا ترى ماذا جرى له؟ تجده في النادي القريب يلعب فتنادي عليه من بعيد:
- أكرم.. يراها فيأتيها مسرعاً ويقول في ضيق:
- لماذا جئتِ يا أمي، كنت سألعب آخر مباراة وأعود، أحرجتِني أمام أصدقائي

بعد أيام يعود والده، تحكي خالتي له، يشير إليه:
- لا تعجبني أحوالك هذه الأيام، مالك؟
- لا شيء، أريد أن أذهب مع خالي وأسرته إلى المصيف في جمصة وماما ترفض
- ماما تأمر وأنت تطيع
- أريد أن أذهب معهم بضعة أيام فقط، ما المشكلة؟
- قلت لا، يعني لا
- تعاملونني كطفل في الحضانة.. يبتسم والده ثم يسمع طرقات على البوابة أسفل البيت، يخرج إلى الشرفة ويعود فيقول:
- انزل قابل عمك أسفل البيت واحمل معه ما أحضر
يضرب الفتى بقبضته القوية فوق منضدة الصالون فتنفلق قطعة الرخام! ويقول بعصبية:
- ليس في البيت غيري لأقوم بكل شيء!
وهنا أشار إليه والده بابتسامة ذات معنى:
- خلاص، لا تنزل، تعال معي... يغلق الباب، بحركات مفاجئة سريعة يخلع الحِزام وينهال على جسد الفتى ضرباً! أول علقة أو هي الوحيدة! فلم يكن يضرب أولاده، يسقط الحزام على الأرض فيتلقى الفتى صفعات متتالية، يصعد عمه بسرعة على صوت صراخه فيتدخل لإنقاذه.

٥... الحَجَر

ويمر العام، بالفعل لم يلحق الفتى حجز المدرسين المتميزين ولم يتفرغ للمذاكرة بسبب العمل في مشاريعه الصغيرة، أسافر إليه ويقترب موعد ظهور نتيجة الثانوية العامة! نصلي الجمعة في مسجد قريب ثم نقرر ببساطة أن نذهب إلى خالي في (الحُسَنية)، لا هواتف ولا مواعيد مسبقة، البيوت مفتوحة للجميع في كل وقت! ينحني ليلتقط حجراً وكأنه كسر من رخام رصيف الكورنيش، يتأمله ويبتسم فأقول:

- مالك؟

- أُنظر.. ويعطيني القطعة المكسورة، أقلبها وأقول:

- وما بها؟

- تأمل جيداً

- تقصد أنها تشبه ملامح إنسان؟

- جداً، بشكل غريب، إنسان حسّاس يبكي

- سبحان الله

- وكأن أحدهم نحتها لتكون قطعةً فنية جميلة حزينة

- لا أظن، بل نحتتها حوادث الأيام والليالي.. يبتسم ويقول:

- كالإنسان تماماً

- لكن الإنسان لحم ودم، روح وجسد وعقل، وليس صخرةً

- تظن ذلك؟ أعطني.. مد يده وأزال عنها التراب العالق ثم فجأة قذفها بقوة في النيل! يتموج الماء في دوائر احتفالية وأبتسِم في اندهاش:

- ظننتك تريد الاحتفاظ بها

- لا لزوم، مثلها كثير

- ولماذا قمت بتنظيفها؟ ضحك:

- كي تغرق بأناقة، هل يستوي الغريقان: الملوث والنظيف؟ ولماذا يُغسِّلون الموتى قبل تكفينهم؟ صمت فجأة ثم قال: أوصيك أن تحضر غُسلي وتكفيني! أبتسم في حيرة وأقول:

- ومن أدراك أني لن أموت قبلك، مالك؟

- مرة أخرى تسألني؟ أنا بخير، فليكن؛ إذا مات أحدنا فليكفنه أخوه ويغسله.. تزيد حيرتي:
- ولماذا هذا الكلام الآن؟
- سمعت أن بعض السحرة يضعون الأعمال السوداء في أكفان الموتى، أتعرض لأحوال غريبة!
- تقصد الامتحانات؟ نتخطى سينما (عدن) عن يميننا ثم نعبر شارع الكورنيش، فيقول:
- كنت أعرف إجابة السؤال ثم أكتب كلاماً آخر! أندهِش فيكمل: موضوع عجيب يا ابن خالتي، أستفسر قلقاً:
- كيف؟ نعبر السكة الجديدة ونكمل في شارع حسين بك، فيرد:
- لا أدري، طوال العام أذاكر ويشيد المعلمون بمستواي، ثم أفقد تركيزي تماماً أيام الاختبارات، ألا تجد الأمر غير طبيعي؟
- طبعاً، غريب جداً
نكمل في الشارع المليء بمحلات قطع غيار السيارات فنترك جامع حسين بك عن يميننا ونكمل، أسأله:
- وفيم تفكر؟ يبتسم:
- لا شيء، فقط أفضفض معك
- وتلك الأشياء؛ سحر، حسد، عمل؟
- لا أستبعد ولا أؤكد ولا أظن! الله أعلم..
نقف أمام بائع التين الشوكي، نشتري بعض الحبات، بمهارة يزيل الرجل القشر والأشواك ويضعها في كيس ورقي، يبتسم الفتى ويقول له: يا ليت كل الناس مثلك، نأكل ونترك بعض الحبات لنهديها لأولاد خالي (بنتين وولد) نصل إلى شارع جانبي يسكن خالي في نهايته، أسأله: وهل ستلجأ إلى أحدهم؟ يضحك:
- تقصد المشايخ؟
- مثلاً
- بل نتوكل على الله وندعوه في كل وقت! نصعد الأدوار الأربعة لنصل إلى شقة خالي، نطرق الباب فتفتح زوجته البشوش بحفاوة معتادة:

- أهلاً بالشباب.. ندخل الصالون ويأتي خالي:
- يا مرحباً.. ويسألني: متى أتيت من القاهرة؟
- بالأمس فقط.. يسأل عن أحوالنا، ثم يلتفت إلى أكرم:
- أبوك رجع من كنج مريوط؟
- يعود الليلة بإذن الله
- مستقر في عمله هناك؟
- الحمد لله، يقول إنه ربما يأخذنا لنقضي بعض الوقت معه، يسأل:
- ومتى النتيجة؟
- يقال بعد أسبوع
- بالنجاح يا رب... ألاحظ وجهه فأقول:
- ألف سلامة، تبدو متعباً
- الله يسلمك، إرهاق شديد
- ولماذا؟
- العمل، ماكينات متهالكة، لم يعد يجدي إصلاحها ولا توجد قطع غيار
- لماذا؟
- روسية الصنع منذ الستينات، فتخرج الأقمشة مهترئة والألوان باهتة وعيوب تقفيل بالجملة
- والحل؟
- أحاول مع العمال بكل جهد، نتعب كثيراً لكن المحصلة ضعيفة، لابد من تغيير الماكينات بأخرى حديثة
- فليكن
- لا أحد يريد إصلاح الحال، رئيس مجلس الإدارة مرتاح؛ مطبّلاتي كبير يتقاضى مئات الآلاف ولا يهمه مصلحة العمل ولا جودة الإنتاج!
- خسارة، وهل كل مصانع المحلة هكذا؟
- للأسف، بل مصانع مصر كلها! يهتف أكرم بجرأته المعتادة:
- قَضّوها كلاماً، جُعنا، أين الغداء؟ يضحك خالي:
- لا غداء اليوم، سنغديكم بعد ظهور نتيجتكم بشرط التفوق
- لا بل سنتغدى الآن، ثم بعد النجاح نعزمكم نحن بشرط التفوق

- انزلوا هاتوا لنا أكلة سمك من عمك عبده
- يعني طنط لم تطبخ؟! اذبحوا لنا فرختين من العشة- كانت تربي الدجاج البلدي في عشة ملحقة بالمطبخ، وطيلة حياتها لم تتذوق طعم الفراخ البيضاء وكان خالي يقول إن طعمها يشبه الأحذية البلاستيكية! يضحك خالي:
- يا ولد انزل بَطَّل رَخامة، الغداء يوم الجمعة سمك
- من عم عبده في آخر ميت حَدَر؟
- نعم؛ وهل هناك غيره؟
- هيا بنا
- هاتوا اثنين كيلو بوري واثنين شبار صغير
- تمام، حاضر، تذكر كرمي معك
- خذ يا غلباوي، كيلو البوري بثلاثة والشبار بجنيه
- خلي يا حاج
- كفاية التين الشوكي، خليها علينا هذه المرة يا كريم
- ههههههه هذه المرّة وكل مرة! أتريد الباقي؟
- ليس ضرورياً، لا تنسوا حاجة السلاطة، والشوي؛ عند محجوبة؛ الكيلو بربع جنيه
ننزل معاً إلى حي ميت حدر القريب، نمر بشارع جانبي فيقول:
- هذا شارع (صيام) المشهور بالراقصات والآلاتية وأشياء أخرى
- مثل شارع محمد علي في العتبة؟ يضحك ويقول:
- لهذا الشارع قصص شهيرة
- احكِ لي
- شارع البغاء والمخدرات، من أيام الإنجليز وربما أقدم
- أعوذ بالله! الاستعمار سبب كل الكوارث! فيعيد:
- وربما أقدم، يبتسم ويكمل: أو أننا نعشق الانحراف وننتظر فقط فرصة،
أحد أصدقائي له قصة رهيبة مع هذا الشارع، ذكرني لأحكيها لك فيما بعد فقد وصلنا...

نتجه إلى عبده الشهير، يبادره أكرم:
- نحن من طرف الحاج...
- أعرفك وأعرف خالك، سلم عليه كثيراً، تأمُر
- اثنين بوري واثنين بلطي
- عيني للناس الغالية، ينتقي السمك الطازج ويتعمد إضافة البعض فوق الوزن، يسأله الفتى:
- وأين محجوبة؟ ينادي على امرأة بجواره ترتدي عباءةً سوداء وتبتسم سعيدة:
- يا محجوبة، اشوِ لهم السمك، حاجة وصاية، تبعي
- تأمر يا عم عبده.. وترفع صوتها تردد بنغمة محببة: الشيّ يا سمك...
نعود بالسمك ولوازم السلاطة، يرفض الفتى أن أحمل معه أي شيء! نتغدى السمك والأرز الأبيض الخطير بالسمن البلدي الذي لا تتذوق مثله إلا عند زوجة خالي! نجلس لنحبس بالشاي، تسألني:
- كم ملعقة سكر؟
- ثلاث، وتسأل الفتى:
- وأنت.. فيجيب بابتسامة:
- ضعي إصبعك في الكوب فقط، تضحك وتقول:
- يا بكّاش
- فملعقتين كالمعتاد
- عارفة، أمازحك فقط!
تعتبرنا أولادها ونعتبرها أُمّاً لنا، كان الفتى يضحك ولكني ألمح في عينيه حزناً غريباً، نجلس في الشرفة الواسعة البحرية؛ هواء نقي لا مثيل له؛ بارد منعش في عز الصيف؛ يرد الروح! يهتف الفتى:
- أين الكريم كراميل؟
- حالاً جاهز، نأكل قالبين- تصنعه بمهارة فائقة- نعود بعد الغروب، ما أجمل كورنيش المنصورة المتلألئ بأنواره ليلاً، نسيم رائع، نتمشى على مهل ونحكي، أقول له:

كان صالح جودت محقاً عندما أنشد: آه مما بي وهل تدرين ما بي   يوم ودعتك ودعت شبابي - ومن كان يخاطب؟..
- ومن كان يخاطب؟
- المنصورة
- الله أكبر!
- بعدما غادرها ليعيش في القاهرة
- أعرف أن أم كلثوم غنت من أشعاره الثلاثية المقدسة (أنا البيت قبلتكم في الصلاة أنا البيت كعبتكم للرجاء) أضحك وأقول:

أمة علمها حب السماء   كيف تبني ثم تعلو بالبناء
فمضت ترفل في وحدتها   وتباهي في طريق الكبرياء
بيد توسع في أرزاقها   ويد تدفع كيد الأشقياء
سادت الأيام لما آمنت   أن بالإيمان يسمو الأقوياء، فهتف بحرقة:

- لمّا
- كلام أغاني، يا ليت تلك الأيام تعود
- ومن غنى له أيضاً؟
- وردة: اسأل دموع عينيا اسأل مخدتي
- ههه وعبد الحليم؛ أظن (الوايلي والزاوية)
- الويل الويل يا يُمة! ..... نتمشى فيقابل رجلاً مألوف الملامح، يعتنقان بحرارة ويهتف:
- عم عبد اللطيف! تذكرت الوجه على الفور، رد في اشتياق:
- كيف حالك يا أكرم؟ كيف حالك يا أستاذ؟ صافحني وسأله أكرم:
- أخبارك يا رجل يا طيب؟
- الحمد لله
- وعيالك؟
- صباح زوجناها ابن عمها، وجمعة أخذ الدبلوم ونبحث له عن سفرية للعراق
- والجيش
- خرج طبي الحمد لله؛ عنده حاجة في رجله، سألته:

- ولم السفر والغربة؟ ألا يزرع معك؟
- المعايش ضاقت، والعيال تغيروا.. فقال أكرم:
- لا ترضيه حياتكم؟
- كنا نغالب النعاس حتى نصلي العشاء ونستيقظ قبل الفجر، نكتفي بثوب في الشتاء وآخر في الصيف ونعيش من الزراعة وريع المحصول ولبن البهائم، أما الآن؛ العيال معذورة، يشاهدون التليفزيون ويسهرون لمنتصف الليل ويستيقظون في الضحى ويريدون أن يعيشوا كالبهوات في البندر، تصور يا أستاذ؛ صباح ابنتي لا تخبز، يشترون العيش المدوّر من المخبز الآلي! يندهش أكرم من وجود مخبز في بلدهم، فيعاجله الرجل بمفاجأة جديدة:
- وقعدت مع زوجها شهرين ودبت عركة مع حماتها وقالت لازم انفصل، فهتفتُ:
- لا حول ولا قوة إلا بالله، تنفصل عن زوجها؟ فضحك أكرم وقال:
- لا؛ لا يقصد الطلاق وإنما الانفصال عن بيت العائلة الكبير مع أهل زوجها، ولكن أين سيعيشان؟ فرد الرجل:
- أخذوا شقة إيجار، قالت تبقى على راحتها!
يسأله أكرم باهتمام عمّن فتح المخبز في بلدهم ليعرف كل التفاصيل، نودع الرجل ونتمشى، ونحكي حتى نتعب، ثم نعود إلى شقتهم. يوقظني لصلاة الفجر فأقوم متثاقلاً، أعود أستكمل نومي، يذهب بعد ساعة إلى عمله في الورشة، أصحو فأمضي إلى الصيدلية القريبة لإحضار علاج للسعال الذي استلمني منذ أمس، ألتقي بصديقيه مجدي وبهاء، بعد السلام أسألهما:
- أخبار الامتحانات؟
- الحمد لله، مضت على خير
- أريد أن أسألكم عن أكرم.. ينظر كل منهما للآخر:
- بصراحة هناك مشكلة
- وما هي؟
- تراجع مستواه كثيراً أيام الامتحانات

- وهل هناك سبب؟
- لا نعرف، تكلمنا معه أكثر من مرة، ليس لديه رغبة في التفوق
- ألا تجدون الأمر عجيباً؟
- صارحنا باختناقه وعدم قدرته على التركيز، نظن الأمر داخلي، حاول أنت معه، كانا يتحدثان بحرج وتردد فقلت:
- أخبرني أنه كان يمر بفترة عصيبة، أتخفيان عني شيئاً؟
- يبدو أن ظروفه في البيت أثرت عليه، فتعجبت:
- البيت! كيف؟ فقال مجدي:
- والده! فهمت قصدهما فقلت:
- ضربه!
- هو ذاك
- أعرف ذلك بالطبع.. ألمح بعض ارتياح في وجهيهما بعد زوال الحرج
- نظن ذلك هو السبب، لا يرغب في التفوق، كان يجيب إجابة النجاح بالكاد
- عناد؟
- أو تمرد
- لكن موضوع الضرب كان في الإجازة، مر وقت طويل
- لا ندري، لم تتغير أحواله إلا في أيام الامتحانات
- ربنا يصلح الحال.. أتركهما وأفكر؛ أتراه مجرد تعب طبيعي، أم حالة نفسية؟ أم رغبة في الانتقام أو تحدياً لمن عاقبه؟ مراهقة؟ عناد؟ سحر أسود؟ ألا يرغب حقاً في التفوق؟
بعد أسبوع ثقيل تظهر النتيجة، نملأ الاستمارات ويرسل مكتب التنسيق بطاقاته؛ يحرز الفتى مجموعاً يرشحه لدخول المعهد الفني الصناعي بالزقازيق، ألتحقُ بطب عين شمس ومجدي بطب المنصورة وبهاء بهندسة المنصورة، أتكلم معه ويحاول أخوالي إقناعه بإعادة السنة للالتحاق بكلية جامعية لكنه يرفض:
- هكذا أفضَل، صدقوني معهد سنتين ونخلص، أقول:
- وما المانع من فرصة أخرى؟

- لا يهم، أنا راضٍ
- ما زال العمر أمامك طويلاً وينتظرك بإذن الله مستقبل مشرق.. فيرد:
- لا علاقة للمستقبل بالشهادات ولا بالدراسة.. فأرد:
- فلنأخذ بالأسباب
- أي أسباب؟ النجاح في الحياة مرتبط بالسعي والكفاح لا بالشهادات والكليات
- لكن مستواك الحقيقي أعلى من درجاتك بكثير
- ربما هذا هو الخير لي
- يا أكرم!
- وماله محمد ابن الحاج منصور؟ دبلوم تجارة وما شاء الله سافر إيطاليا سنتين ورجع اشترى الأرض وبنى البيت وافتتح مشروعه، وعبد الرحمن الأشقر الذي لم يكمل دراسته بعد الإعدادية وسافر السعودية عامل زراعي خمس سنوات وربنا فتح عليه وعاد ليفتتح المخبز في بلدنا، حتى جمعة ابن عبد اللطيف سيسافر للعراق، أنا متفائل بالمعهد.
- ربنا يقدرلك الخير حيث كان، لكن أرجوك فكر ثانية

٦... أجازة سعيدة

أكان الحلم واضحاً في ذهنه بتلك الصورة؟ دراسة بسيطة لا تعطله عن عمله؛ تنتهي سريعاً، ثم سفر وادخار، ثم عودة ومشروع، ثم ثراء ونجاح!
يصطحب والده الأسرة إلى كنج مريوط، لا يذهب الفتى معهم لارتباطه بعمله، يرسل والده إلى أسرتنا لنقضي معهم أسبوعاً قبل بداية العام الدراسي الجديد، أياماً رائعة خارج غابات الإسمنت ودخان العوادم! أيام لا تُنسى سعادةً وفرحاً، خضرة وملاعب وضحك وانطلاق بلا قيود!
يقيمون في فيلّا واسعة تابعة لصاحب العمل؛ هناك الجو الرائع والجري في الهواء الطلق المنعش، افعل ما تشاء وقتما تشاء؛ نم واستيقظ أينما شئت وقتما شئت، ضع المراتب والمساند الإسفنجية في أي مكان تشاء ونم! غرفتان للبنات وغرفتان للشباب، أما الكبار فلكل زوجين غرفة مستقلة، وهناك غرف أخرى إذا احتاج الأمر، إذا أحسست بالجوع فاذهب إلى المطبخ وافتح الثلاجة وكل ما تشاء أو ما تستطيع! تقف في الشرفة أو تنظر من النافذة فلا ترى إلا رمالاً بيضاء نقية وسماء زرقاء صافية، لا زحام ولا ضجيج ولا تلوث! يعود أبي إلى القاهرة بعد ثلاثة أيام لدواعي عمله فنزداد انطلاقاً وحرية.
يعلم أكرم بوجودنا فيطلب أجازة من عمله ليلحق بنا بعد يومين، أسبوع معايشة كاملة يجعلك تكتشف أقاربك من جديد؛ والده شديد الحنان دائم الابتسام؛ حتى مع الخطأ يرشدك بنظرة مميزة تحمل مع خبرة العمر لوم المُحِب، وخالتي الطيبة دائمة الدعاء للجميع والتي لا تكاد تخرج من المطبخ؛ تطهو وتعد الشاي والحلويات للجميع طوال الوقت، تساعدها أمي وأخته الكبرى التي حضرت بطفلها؛ يعلمه الفتى كيف يخطو خطواته الأولى فوق منضدة الطعام جيئةً وذهاباً؛ يتعثر فنضحك ونسانده ونراقبه فرحين، وأخته الثانية؛ حبيبته الطيبة الحنون أكثر الناس له دعماً وكاتمة أسراره التي كثيراً ما ينفرد بها يحكيان طويلاً ثم تربت على كتفه فيعود مبتسماً وقد زال قلقه! وأخته الثالثة شديدة المرح التي لا تكف عن الضحك والنكات! أخوه الأكبر رابعهم في الترتيب؛ من أكثر الناس طيبةً

وتحملاً للمسؤولية، ما زال يمتعنا كل ليلة بمواويله العذبة، ثم أخوه الأصغر الذي كان مرحاً كثير الحركة واللعب متيماً بأغاني عبد الحليم الثورية وبعبد الناصر وبشرب الشاي، مكان ساحر مختلف؛ نِعم الترفيه والتغيير، ملاعب مفتوحة: كرة قدم وسلة وطائرة وتنس ومساحات خضراء فسيحة، المحلات بعيدة فشراء الطعام والتسوق والتنزه في الإسكندرية ولابد من سيارة! والسيارة تأتي عصراً بعد أن ينهي والده عمله، يلحق بنا خالي بأسرته من المنصورة فتكتمل الصحبة الرائعة الضاحكة، ويحضر شاب يقول لوالد الفتى: يا خالي؛ فيزيد العدد والمرح.

نستيقظ قبيل العصر، من شاء فليأكل من الشطائر أو القراقيش، ولا بأس طبعاً من الشاي الذي لا يتوقف برّادُه عن الغليان ليلاً أو نهاراً، ثم نبدأ اللعب: لعبة الأفلام التي يشترك فيها الجميع وكانت مثيرة للضحك أكثر منها للتنافس، ننقسم فريقين؛ أختار لهم فيلمي المفضل؛ لثواني أتخيلهم يمثلون أكل القوي للضعيف، وتقلُّب الدنيا حتى ينتصر أهل الحق المساكين، تذهب مندوبتهم الضاحكة؛ كبرى بنات خالي التي تصغرني بأربع سنوات، تشير في الكلمة الأولى إلى مكان وضع الدبلة وفي الكلمة الثانية بأصبعين فهتفوا (الزوجة الثانية) أذهب كمندوب عن فريقي؛ أحتار فلست ماهراً في التمثيل، أضع يدي في جيبي وأخرجها بسرعة؛ النشال، أشير: لا، اللص؟ لا، الحرامي؟ أبتسم وأشير بأن الاسم قريب من ذلك، ينقذني الفتى بذكائه: الحرام! أسرح في معنى الرواية، كان إدريس يقصد أبعد مما يتبادر إلى الذهن حين نطلق تلك الكلمة: الحرام! كان يقصد الأوضاع الظالمة التي تؤدي إلى الوقوع في الحرام! وهكذا نقضي الوقت في التنافس ويفشل بعضنا في معرفة الفيلم فنتلاوم ونتقاذف بالمساند!

نملّ فنلعب ألعاباً أخرى: الشطرنج والضُمنة وألعاب الكوتشينة المختلفة، صلّح واستغماية!

أما الطاولة فلعبة الكبار: يتبادلون الفوز ويشربون القهوة، ونراها مملة؛ تعتمد على الحظ والزَّهر لا على المهارة؛ كما كنا نظن! لكن أكثر لعبة أثارت المرح لعبة الشايب؛ يحكم الفائزُ على الخاسر- الذي

يفشل في التخلص من الشايب في النهاية- بأي حكم مهما كان قاسياً أو غريباً، بعد عدة دورات تخسر أميرة اللعب وأكثرنا فوزاً: شقيقته الثالثة؛ تتلقى حُكماً إجبارياً من الفائزة- ابنة خالي- اذهبي واطلبي حبة أرز واحدة من الجيران، انتقاماً منها لأنها حكمت عليها أن تمسح قيشاني الحمام كاملاً فجر الليلة الماضية! تحاول: اختاري حُكماً آخر، كيف سأطرق الباب عليهم الآن؛ الساعة الثانية صباحاً؟ كيف سأخرج من الأساس؟ اختاري حكماً لا يوقظ جيراننا الذين لا ذنب لهم، يتأزم الموقف ولكن الفتى يذهب معها لأنه الوحيد الذي تعرّف على أبناء الجيران وصاروا أصدقاءه! يحضران حبة الأرز اليتيمة وسط دهشتنا وضحكاتنا، حين يأتي موعد الغداء فالفقرة الثابتة أن نتنازع ونتخاطف أصابع المحشي أو قطع اللحم، ثم نعاود اللعب والمرح، وهكذا نسهر حتى شروق الشمس ثم ننام.

يقف قريبهم ذو الدم الخفيف والوزن الثقيل يتوضأ للمغرب فيكسر حوض الحمام ويجرح ساقه؛ يصرخ وينزف بشدة، يسارع الفتى لإسعافه بالشاش والبُن، لكن النزيف لا يتوقف؛ يجري الفتى فجأة ثم يعود بسيارة أجرة لا ندري من أين أتى بها ليلاً في هذه المنطقة المقطوعة! يصطحبه إلى المستشفى فيتم إسعافه ويعود باللفائف والعلاج ومزيداً من السخرية والضحك! حادث جعلنا نهدئ كثيراً من الجري والحركة داخل الفيلّا.

أنفرد به فأذكره بوعده ليحكي لي عن قصة صاحبه مع شارع صيام فيقول:

نبيل، صديق يكبرنا بعدة أعوام، يسكن بجوارنا، تعرفت عليه في المسجد، كان مواظباً على صلاة الفجر

- طالب؟
- كان في نهائي الصيدلة
- وماذا حدث؟
- كان يقف في صيدلية والده، جاءته إحداهن تطلب أقراصاً مخدرةً
- ثم؟
- رفض، فلم يكن يصرفها إلا بوصفة من طبيب متخصص
- وبعد؟

- نسجت حوله حبائلها، راقصة لعوب وشاب وسيم غني تحتاج إليه كمصدر للمخدرات
- وبعد؟
- صار مغرماً بالأفراح والرقص يلاحقها أينما ذهبت، ثم بدأ يشرب ويتعاطى المخدرات، ثم رافقها ليلة
- وضاع؟!
- جاءت سيارة الشرطة بالسارينة تفض مشاجرة أسفل العمارة، ظن أنهم سيصعدون لإلقاء القبض عليهما في ذلك الوضع المخزي، قفز من شرفة الدور الثالث، وأصيب بالشلل!
في الليلة التالية نتفق مع سائق السيارة لتوصيلنا إلى الإسكندرية؛ نحضر بعض احتياجات البيت ونذهب إلى السينما، تعرض فيلمين (أربعة في مهمة رسمية) و(النمر والأنثى) نعود لنجد السائق ينتظرنا، يمضي يردد مع شريط عمرو دياب: ومنين اجيب ناس لمعناةِ الكلام يتلوه.. والجدع قتلوه، ثم يتمايل في طرب مع الأغنية الأخرى: المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين لازم.. لازم تشوفه العين، يضحك أكرم ويذكرني: مسير أم مخير؟ فقلت:
القدَر لا ينافي التخيير!
يعدنا والده برحلة إلى العجمي قبل نهاية الأسبوع بيومين، يخبر خالتي بأننا سنلتقي هناك بقريب له يعيش في استراليا منذ سنوات وجاء بأسرته ليقضي إجازة في مصر، نلتقي بهم على الشاطئ، نجلس تحت الشمسية على الرمال وننزل البحر نلهو، لا يجيد أحد منا السباحة إلا شقيق الفتى الأكبر، جو البحر يشعرك سريعاً بالجوع، نجري إلى بائع الفريسكا ونحضر للجميع، نعود لنلتقط القواقع من على الشاطئ ونضعها بالقرب من آذاننا لنسمع صوت هدير البحر، نرى سيارة تبيع الآيس كريم؛ يفضل الفتى الأكواب وأفضل قرطاس البسكويت، لا يسمح لي أبداً بأن أدفع من نقودي: أنت ضيفنا وأنا أعمل وأنت ما زلت تلميذاً، لن تدفع شيئاً، أقول: يا أكرم، معي نقود كثيرة من النقوط، يرفع يده أمام فمه: انتهينا، نبني قصوراً من الرمال، يلمح بائع الترمس وحمص الشام الشهي فيسبقني

إليه ويشتري ثم نعود لنوزع على الجميع، نعطي لأولاد قريبهم ونكتشف أنهما لا يفهمان ما نقول، أنظر إليه متعجباً وتلمحنا أمهما فتقول: لا يجيدان العربية، المدارس هناك بنظام اليوم الكامل، يعودان بعد الخامسة مساءً، وللأسف لا تصل قنوات أي تليفزيون عربي هناك! نتسابق إلى عربة الفول السوداني الساخن فيسبقني ككل مرة ويحضر للجميع، أتبادل معه نظرات، يفهمني فنقوم لنلعب الراكيت ونبتعد قليلاً، أقذف الكرة وأجري لأنفرد به: ما رأيك، كيف تبدو لك فكرة السفر الآن؟ فيقول: لابد منه، وكيف سأبني مستقبلي؟ لكن ليس بالضرورة إلى دولة أجنبية؛ ليست استراليا حلمي، ممكن دولة عربية، نلتفت على نداء بائع البطاطا المشوية، أسبقه هذه المرة فيأمر البائع بحزم: لا تأخذ منه شيئاً، الحساب عندي! نعود فنجد قريبهم يحكي عن حياته هناك: لا مقارنة؛ كل شيء هناك منظم نظيف، وكل شيء هنا عشوائي قذر! تقول زوجته: ليست الجنة! يقول: وماذا يغضبك هناك؟ فترد: المجتمع الغريب المختلف عن حياتنا وعاداتنا، يقول: يا شيخة هذه عيشتهم لن يغيروها من أجلك، تلتفت إلينا: تخيلوا؛ في الشارع الذي نسكن فيه حانة لشرب الخمور يخرج منها السكارى رجالاً ونساءً مترنحين خاصةً في نهاية الأسبوع، لا نسمع صوت الأذان، أتعجب؛ كانت تجلس مكشوفة الشعر والساقين يحرك الهواء ملابسها فلا تتحرج، ننزل البحر من جديد ونعود، تضحك ابنة خالتي الثالثة وتقول مازحةً: يا لحظكم يا شباب، لو معي رداء البحر (المايوه) لنزلت إلى الماء فوراً، ترد المرأة: معي المايوه في السيارة جديد ونظيف، تعالي معي نحضره وانزلي كما تشائين، تضحك أخته وتشكرها؛ المرأة لم تفهم إنها تمزح، وكيف ترتدي فتاة ملتزمة محجبة المايوه هكذا أمام الناس؟ قالت لها بعد محاولات كريمة: لا أستطيع أن ألبس ملابس حضرتك، تضحك المرأة وتقول: مكسوفة يا حبيبتي؟ هو هدية لك؛ والله جديد بورقته، تعالي وانظري بنفسك، يمضي الحوار؛ تحاول معه أن يستقروا في مصر ولا تريد العودة إلى استراليا، بينما الرجل متمسك بالبقاء هناك، يسأله أكرم: ألا تفكر في افتتاح مشروع في مصر؟ فيجيب: نعم؛ اشتريت قطعة أرض في المنصورة، سأبني عليها عمارة وأقيم أسفلها

سوبر ماركت كبير وأبيع الشقق بالتمليك، وأخي سيباشر المشروع فلست مستعداً للعودة الآن، بل غالباً لن أعود، تقاطعه زوجته: حرام عليك، الأولاد لازم يعيشوا حياة طبيعية وسط أهلهم، هناك هم مقطوعون كأنهم نبت شيطاني، فيرد: تعجبك الزبالة والرشوة والتعليم الفاشل والمستشفيات الخربة؟ هناك مستقبل أولادك رائع مضمون، تقول: وماذا سنفعل عندما يأتي كل واحد منهم بصديقته (الجيرل فريند) إلى البيت؟ فيجيب: ماذا سنفعل؟ احمدي ربك إنهم أولاد وليسوا بنات، بَطّلوا تخلف! تشيح بوجهها عنه ثم تحاول مرةً أخرى مع بنت خالتي: تعالي خذي المايوه، لو أعرف لأحضرت واحداً آخر من أجلك، بعد يأسها من أي استجابة منها تقوم فتحضر شيئاً من سيارتهم ثم تعود وقد ارتدت المايوه لتنزل البحر! ورغم قلة أعداد المصطافين لكنه كان لافتاً جداً حتى أنها اضطرت تحت لهيب النظرات أن تغطي فخذيها بإيشارب- شفاف لم يُخفِ شيئاً -وسرعان ما أمرنا زوج خالتي بالتجهز للرحيل! لكن بنت خالي تهتف: أريد أن أجلس حتى الغروب، أريد أن أرى الشمس وهي تنزل في البحر وتقول: تِشّ!! وهنا شعرت نحوها بإعجاب خفيّ كأني أراها لأول مرة؛ مرحة خفيفة الظل عنيدة رائعة الجمال واثقة في نفسها! هل أسكرتني نشوة البحر والانطلاق أم هي بدايات حب؟!

٧... الاستخارة

في السيارة يسأل الفتى أباه:
- ألا ترى تلك المرأة غريبة؟ فيرد:
- ولماذا؟
- لبسها، وشعرها، والمايوه، ومع ذلك تريد العودة إلى مصر!
- تزوجت وسافرت وولدت طفلها الأول هناك بعد سنة، وعمره الآن عشرة أعوام، أي أنهم سافروا من مصر تقريباً عام ١٩٧٧، كان حجاب النساء وقتها نادراً والمايوهات تملأ الشواطئ ولم يعودوا إلى مصر إلا هذه المرة! أظنها هي التي تتعجب من أحوالنا الآن.
- ولماذا تريد العودة؟ ألم تتعود على معيشتها هناك؟ أليس المجتمع الاسترالي المتحرر أقرب إلى طريقتها؟
- يا بني رغم كل شيء يظل الإنسان مرتبطاً بجذوره، ربما هي لا تصلي، لكنها تقول مستنكرة: لا نسمع هناك صوت الأذان! مهما ذابت الفوارق بين البشر تظل لكل أمة مميزاتها، المسألة ارتباط عميق داخل كل منا، يصعب أن ينسلخ المرء من جلده.
-ولماذا غادرنا مبكراً؟
- هذا أمر آخر، أشفقت عليكم من عيونكم يا شباب، تتدخل بنت خالي: نعم، غادرنا مبكراً جداً، ألم يكن ممكناً أن نبقى فقط حتى الغروب؟
- سنعوضها لك في مرة قادمة إن شاء الله .
تنقضي الأيام الرائعة سريعاً، نعود إلى القاهرة ويعودون إلى طلخا، مع السهر وكثرة العدد وترك كل شيء لآخر لحظة تكاسُلاً نأخذ إحدى حقائبهم بالخطأ ونترك حقيبتنا التي تشبهها، نستعد لمرحلة جديدة من الحياة، أسبوعين وتنطلق الدراسة، المدرسة شيء والجامعة عالَم آخر، قبل بدء الدراسة بعشرة أيام تصلني رسالة من إحدى الأسر بالكلية؛ بطاقة أنيقة مزدانة بالورود (تتشرف أسرة الوطن بدعوتكم لحضور حفل التعارف مع الطلاب الجدد أطباء المستقبل يوم الخميس القادم الساعة العاشرة صباحاً ويحضره السيد الدكتور/ عميد الكلية ورؤساء الأقسام ويتضمن

تعريفاً بنظام الدراسة وأقسام السنة الأولى وأنشطة الأسرة، مع خالص تمنياتنا لكم بالتوفيق) رائع، ذهبت وفوجئت: لا أحد ولا شيء هناك! أسأل العمال والموظفين وبعض الطلاب المتناثرين فيشيرون إلى مقر الأسرة الخاوي في ساحة الكلية ويردّون بأنهم لا يعلمون شيئاً عن الحفل! أين المسؤول؟ لا يجيبك أحد، أنتظر قليلاً قبل أن أجد بعض المخدوعين من أمثالي؛ أين الحفل؟ أين مقر الأسرة؟ كيف نتواصل معهم؟ وبدأت رحلتي مع الجامعة بموقف سخيف أدى إلى نفور مبدئي من تلك الأسرة التي لم تلتزم بموعدها وأهملتنا منذ البداية، أستأذن والدي في رحلة سريعة إلى بورسعيد، تحتاج الكلية إلى ملابس جديدة! فلتذهب أولاً إلى المنصورة، لماذا؟ لترجع الحقيبة إلى أصحابها وتسترد حقيبتنا، ولكن لن أذهب بالقطار! أذهبُ وألتقي بالفتى الذي يرافقني إلى بورسعيد؛ حيث المنطقة الحرة لمّا تحتضر بعد، الأسعار تقترب من مثيلاتها في القاهرة والمنصورة، والكساد واضح فالشوارع والمحال مليئة بالبضائع خاوية من المشترين، بعد قليل نكتشف أن أغلب الملابس والبضائع مغشوشة، البنطلون (الكاشاريل) الإنجليزي نسيجه بالغ السوء ومن الواضح أنهم وضعوا (الماركة) عليه بينما هو في الحقيقة صيني أو تايواني، لكن ما جعلنا نتخذ قرارنا بعدم العودة ثانيةً كان طريقة التعامل التي لم نعهدها من قبل، ذهبنا قبلاً إلى بورسعيد كثيراً، لكن تلك المرة كانت مختلفة! يتكرر الأمر في أكثر من مكان؛ يريد التاجر أن تشتري منه ولو بالإكراه! إذا توقفت أمام بضاعته وجب عليك الشراء ولو لم يعجبك المعروض! نمضي ونقول: بين البائع والشاري يفتح الله، فنفاجأ بسيل من الشتائم: ولماذا وقفتم عندي من البداية!؟

ثم كان أول يوم في الجامعة؛ حفل التعارف الحقيقي تقيمه الأسرة الإسلامية في المدرج الرئيسي، يتحدث رئيس اتحاد الطلبة فيأخذني بلغته العربية البليغة وتمكنه من فن الخطابة وحفظه وقدرته على ترتيل القرآن، ينشد أحدهم بصوت عذب فيأخذ القلوب قبل الأسماع:

بلادي بلادي اسلمي وانعمي سأرويك حين الظما من دمي

وربِّ العقيدة لن تُهزمي ومن أكمل الدين للمسلمِ

ما هذه الروعة؟ وما هذا الاحتواء والترحاب والبشاشة؟ سأكون مع هؤلاء! بل سأكون من هؤلاء! وهل يجوز أن ألتحق بأسرة الوطن التي ذهبتُ إلى مقرها بعد نهاية الحفل لأسألهم لماذا لم يقيموا حفل التعارف المزعوم فوجدت مسؤولهم- الأخ الأكبر- يرد في استهانة: انشغل العميد فألغينا اللقاء، وكانت تلك نهاية قصتي مع أسرة الوطن التابعة- كما عرفت بعدها- للحزب الوطني الديمقراطي.

أما الفتى فيعمل أثناء دراسته بالمعهد في مصنع للعلب الكرتون في شربين يمتلكه أحد أبناء قريته الأولى، وبعد فترة يشاهد أبناء عمه يتعاملون مع صاحب المصنع، يراهم يركبون أفخم أنواع السيارات، يقابلونه فيسلمون عليه بتعالٍ، يعود مغضباً فيواجه أباه: هل تدري من رأيت اليوم؟ ابن العمدة، كان يركب مرسيدس! وأخوه قبل يومين كان يركب فولفو، فيرد أباه: ربنا يبارك لهم، فيقول: ولماذا ليس عندنا سيارات ومشاريع مثلهم؟ فيرد: قل الحمد لله، فيسارع الفتى: الحمد لله على كل حال، لكن.. حضرتك.. فيرد: نحن أفضل من غيرنا كثيراً، يكفينا الصحة والستر (وتلك الأيام نداولها بين الناس) فيرد: كنا أغنى منهم، ما الذي أضاع أموالنا في مشاريع خاسرة؟ ينظر الوالد إليه حزيناً: الأرزاق بيد الله، لم أُضِع أموالك عامداً، يخرج بعصبية ملوحاً بيده في الهواء فتلمس الخيط الواهي الذي كان يحمل الصورة القديمة لناصر فتتهشم تماماً، وما ذنب الصورة؟ انتهى الأمر ولم يعد يجدي الترميم! ثم يبكي الفتى نادماً ويعود يقبّل يدي والده ويعتذر؛ ظل يعتذر سنوات وسنوات؛ كلما تذكر ذهب إلى والده وقبّل يديه وقدميه! طبعاً لم يُضِع الثروة عامداً، بل كان الأمر نوعاً من عدم التوفيق.

في كلية الطب تحتاج فترة ليست بالطويلة كي تلحظ الفروق الهائلة بين البشر، بعض الطلبة والطالبات لا يجيدون العربية كتابةً ولا نطقاً، أصغر منا عمراً بسنة بل وبسنتين؛ خريجو الثانوية البريطانية.

المحاضرات بالإنجليزية لا نفهم منها كمتخرجين من المدارس الحكومية شيئاً في أول شهرين، مستويات مادية متفاوتة جداً، الأزياء- خاصةً ملابس الطالبات- تخبرك بذلك في وضوح سافر، أغلبنا يأتي إلى الكلية راكبين

الأوتوبيس أو مترو الأنفاق، والبعض يحضرون في سياراتهم الخاصة وقلة يأتون في سيارة خاصة بسائق! وبعد قليل يرهقني الزحام والتأخير فأشترك في مشروع الأتوبيسات الطلابية وسرعان ما أتعرف بأعضاء الاتحاد؛ الإخوة! وتبدأ رحلتي معهم.

تنقضي السنتان ويتخرج الفتى فنياً للتبريد والتكييف، في البداية يرفضون إعفاءه من التجنيد، ثم يحصل بعد جهد على الإعفاء بسبب كسر ذراعه الذي لم يلتئم منذ طفولته؛ رُب ضارة نافعة، وهل دخول الجيش ضرر، والخروج منه منفعة؟ يمر علينا يبشرنا بالخبر السعيد يحكي عن ذكرياته هناك وأوضاع المجندين ومعاناتهم من ضباط الصف الذين يسخِّرونهم في معاملة أسوأ من العبيد، تستقبله أمه بالبط وتسجد لله شكراً: الحمد لله على نجاتك، ربنا يفاديك يا ابني، وتبدأ رحلته مع العمل بعد التخرج.

في الإجازة أزورهم، نذهب إلى خالي ونلاحظ قلقه، نسأله فيجيب:
- يقترح بعضهم بيع شركات ومصانع الدولة للقطاع الخاص والمستثمرين الأجانب؛ يسمونها (خصخصة) فوجئت بالكلمة، وسأله أكرم:
- بعضهم؛ من؟
- حكومة عاطف صدقي وضعت الخطة، لكن المحجوب (رئيس مجلس الشعب) رافض حتى الآن! فسألت
وما مشكلة تلك الخصخصة؟
- مشكلة، بل مشاكل؛ أو قل مصائب، الإشاعات تملأ الشركة ولا أحد يعرف حقيقة ما سيحدث، هل ستستمر في عملها أم يبيعونها أرضاً بملايين؟ هل سيحتفظون بالعمال أم يسرحونهم؟ وهل سنأخذ حقوقنا؟ وماذا سنفعل؟ الماكينات متهالكة ولكننا تعودنا عليها؛ نحفظها عن ظهر قلب، كيف سنتعلم من البداية على الجديدة، كيف يبيعون البلد والعمال هكذا؟ تُحضر الشاي فأكتم أشواقي لكن الفتى يسألني بعد أن نغادر مباشرةً:

حب؟ فأقول مبتسماً: ماذا تقول؟ هي أختي! فيبتسم: عيني في عينك! فأقول خجِلاً: بل سمّه إعجاباً، فيضحك: ربنا يوفقك!

يعمل في بعض الورش المجاورة لسكنه بضعة أشهر، ثم يعمل في قرية سياحية مملوكة لواحد من أقارب أبيه في (سفاجة) لفترة ولكنه يبدو مضطرباً، هذا هو المتاح الآن يا فتى، يعمل أسبوعين ويرتاح مثلهما، في الإجازة يزورنا؛ نتمشى في شوارع حلمية الزيتون حيث نسكن، نترك جامع خالد بن الوليد عن يسارنا ونمضي في شارع متحف المطرية، يحكي لي عن الأفواج السياحية من مختلف الجنسيات؛ يابانيين، كنديين، برازيليين، إسرائيليين، إيطاليين، ألمان، لكن الأغلبية من الروس! أسأله:

- وهل تعلمت شيئاً من لغتهم؟

- الكثير، أتحدث الروسية الآن، وأشار إلى رأسه: وأضرب بها أيضاً... أضحك وأسأله:

- فقل لي بعضاً من كلماتهم

- التحية عندهم (دراستي)

- أي مثل (السلام عليكم)

- بالضبط، ومع الاحترام (دراستفييتي)

- و (صباح الخير)؟

- دوبري دين

- ومساء الخير؟ يبتسم ويقول:

- دوبري فيتشر.. ندخل يميناً إلى شارع ١٨ ثم نعبر منشية التحرير لنسير في شارع (صعب صالح) ينظر للافتة تحمل اسم الشارع فيقول:

- صعب وصالح؟ كان الأفضل أن يسموه سهل صالح.. أبتسم وأعود للغة الروسية:

- و(كيف حالك)؟

- كاك ديلا، وردها بمعنى (جيد): خاراشو

- يا خاراشو يا خاراشو، طلعت لغة سهلة، وما معنى (رجل)؟

- رجل: موشينا، وامرأة: جينشينا، وطعام: بلودا.. نصل إلى وجهتنا؛ فرن العمدة؛ حيث الخبز الأسمر الرائع؛ نجد زحاماً شديداً، نقف في الصف ونكمل حوارنا حول عمله، يبدو حزيناً فأسأله:

- هل مرتبك ضعيف؟

- بل أتقاضى مرتباً ممتازاً يحلم به الكثيرون
- فهل العمل مرهق؟
- بل مريح جداً لا يستهلك وقتاً ولا جهداً، ولكني أعمل نصف ساعة فأشعر بالتعب وكأنني اشتغلت سنة
- غريبة، هل هناك مشكلة في الإعاشة؟
- بل الإقامة فندقية مميزة، والطعام والشراب متوفر بنوعيات ممتازة
- فما المشكلة؟
- قلبي منقبض! المال منزوع البركة! أتعرف حكم الشرع في العمل في مثل تلك الأماكن؟ أشتري عشرين رغيفاً ونقف قليلاً (لنهوّي) الخبز، أصحبه إلى صديقي شيخ مسجد (طارق بن زياد) في طريقنا للعودة؛ وهو أيضاً مدرس بكلية أصول الدين بالأزهر؛ يبالغ في الحفاوة كعادته، نستفتيه فيسأل:
- وهل عملك متعلق بشيء محرم؟ يرد أكرم
- لا يا مولانا، يطلبونني لتركيب أجهزة أو لإصلاح الكهرباء ولا علاقة لي بالحرام.. يسأله الشيخ:
وهل يعطلك عملك عن الفرائض كالصلاة أو الصيام؟
- فيرد: لا، فيجيبه الشيخ:
- إذن لك أن تستمر في عملك، ولكن ابحث عن عمل آخر لا شبهة فيه، ونحن يكفينا بعض هذا الخبز الساخن.. أضحك وأقول:
- كله لك يا مولانا
- بل آكله إن شاء الله يوم فرحك يا دكتور، بألف هنا وشفا.... نعود، أسأله:
- هل أقنعك كلام الشيخ؟
فيقول:
- الله المستعان، سأرى
- أخذت فتوى صريحة من عالم

- استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك، لست مرتاحاً؛ يكفي مناظر السائحات العاريات والسكارى، صرت لا أشعر بالخشوع في الصلاة.. أسأله:

- ألا يمكنك الانفراد بنفسك والانعزال عن هذا الجو وليكن المصحف رفيقك، فيرد:

- لست ملاكاً، ولكن سأحاول..

يعود إلى سفاجة فلا يكمل فترة خدمته، نجده يطرق الباب بعد أسبوع؛ ماذا حدث يا فتى؟ قدمت استقالتي.. ينفرد بي فيخبرني:

- استخرت، ودعوت الله باكياً أن يرشدني إلى ما فيه الخير، نمت مطمئناً، استيقظت وصليت الفجر، وخرجت قبل الشروق متفائلاً إلى منطقة فسيحة خضراء، ووقفت أتنسم الهواء الرائع وأردد أذكار الصباح

- وبعد؟

- وجدت إحداهن، ضاقت بها الدنيا فوقفت أمامي تماماً، تخلع ملابسها ثم تنام فوق الحشائش

- ملابسها؟

- كلها

- لا إله إلا الله، ثم؟

- علمت أن هذا رد الاستخارة، لا يمكن أن أعيش في مثل هذا المكان وأحافظ على ديني، ربما يستطيع البعض، لكني لست منهم، انتهينا، لن أعود..

قُضي الأمر، اتخذ قراره فترك العمل واثقاً في فرج قريب من ربه، يلومه البعض ويطلبون مني إقناعه؛ مالك القرية ينتظر عودته ويعد بزيادة في المرتب والمزايا! أسأله:

- هل أنت مرتاح الآن؟ هل تشعر بالخشوع في الصلاة؟ فيجيب باطمئنان:

- نعم والحمد لله، كأن حجراً ثقيلاً رُفِع من فوق صدري، فأشجعه:

- إذن فلا تلتفت لأحد، يضيع المرء بين الشهوات والشبهات، وطوبى لمن ينجو، وقليلٌ ما هم.

يعود لعمله المرهِق في الورش ثم يأتيه التعيين الحكومي فني تبريد وتكييف بمركز الكلى بالمنصورة، بعد أشهر قليلة يشيد العاملون بكفاءته وإخلاصه، أصبح الدكتور الأسطورة رئيس المركز يعرفه، وذات مرة قال له: يا بني رغم أنني لا أحب (التنطيط) لكني أراك كل عدة دقائق في مكان ولا فرقع لوز، ولا أقدر أن أعاقبك لأني كل مرة أسأل المديرين: ماذا يفعل هنا؟ فيثبُت أنك تؤدي عملاً، ثم دعا له بالتوفيق.

٨...فيزا حُرّة

يتقدم في عمله بمركز الكلى، ويحقق كذلك نجاحاً ملحوظاً في عمله بالورش المجاورة، يكتسب سمعة طيبة؛ فأين يجد الناس مثله في الإخلاص والأمانة؟ يزيد دخله ببُطء لا يسمح له بالادخار لكرمه الشديد! طريقة رائعة لكنها لا تكفي لتحقيق أحلامه الكبيرة.
تتزوج شقيقتاه في ليلة واحدة؛ أما الثانية فيتزوجها ابن خالتنا المشتركة الأكبر؛ أبيه عثمان؛ وهو كذلك ابن عمي، طبيب تنتقل معه إلى القاهرة- بجوارنا تماماً- لظروف عمله، فتصبح زيارات الفتى لنا أكثر من زياراتي لهم، أما أخته الثالثة فتتزوج بشاب مثقف لا يُمَلُّ حديثه يعمل محاسباً في شركة للبترول فتنتقل للإقامة معه في رأس غارب.
يحمل العام ١٩٩٠ أحداثاً جساماً بدا معها حلمي القديم خيالاً! رغم عودة مقر جامعة الدول العربية إلى مصر- قلب العروبة النابض- في العام نفسه، اجتاحت قوات صدّام الكويت واحتلتها! ودارت بيننا حوارات؛ ما الذي حدث؟ ولماذا؟
- فلنقرأ عن الأصل التاريخي للمسألة، أبحث في مكتبتي عن كتاب حول تاريخ الجزيرة العربية، يقول:
- يقول إعلام صدام أن الكويت كانت جزءاً من العراق لكن الاحتلال البريطاني تسبب في انفصالها ليحرم العراق من ميناء واسع على الخليج.. أجد كتاباً:
- تعال نرى.. يلاحظ المكتبة الخشبية المعلقة متهالكة تكاد تسقط مثقلةً بما تحمله من كتب ومجلدات، يحاول أن يضبط أركانها بيديه القويتين ثم ينظر معي في الكتاب:
- ها هو أول ذكر للكويت، للرحالة مرتضى بن علوان، من عام ١٦١٣!
يقول: دخلنا بلداً يقال لها الكويت بالتصغير، بلد لا بأس بها تشبه الحسا (الأحساء)
- وهنا مكتوب: كان أهلها يعملون بالتجارة البحرية والغوص لاستخراج اللؤلؤ

- وإن أول شيخ لأهلها هو (عبد الله بن الصباح) لا عجب إذن أن يكتبوا في دستورهم أن الحكم يكون في أبناء تلك العائلة وفقط! فجأةً يقوم ويقول:
- دقائق، تركت عدّتي فوق... يقصد عند أخته، يعود بعد قليل ومعه حقيبة العدة؛ يُخرج منها شاكوشاً وبعض المسامير ويبدأ في إصلاح المكتبة:
- معك يا مولانا، أكمل
- مكتوب أنه لم تتواجد أي حامية عسكرية عثمانية في الكويت ولم يتم تجنيد أبنائها في الجيش العثماني
- يعني مستقلون! ينظر معي وهو يضبط زوايا المكتبة السفلى:
- ولم يدفعوا ضرائب للدولة العثمانية
- ورفض أهلها أن يكونوا تابعين للبصرة العراقية في القرن التاسع عشر
- واستقلوا عن بريطانيا في ١٩٦١
- وبعدها بأسبوع قام الزعيم العراقي عبد الكريم قاسم بطرح فكرة إن الكويت من الأساس جزء من العراق
فتدخلت الجامعة العربية وأرسلت قوات من مصر والسعودية والسودان إلى الكويت لحمايتها والدفاع عنها
- كان زمان، وفي ١٩٦٣ اعترف العراق باستقلال الكويت
- تعال نقرأ عن الأزمة الحالية
- الكويت قدمت مساعدات للعراق بمليارات الدولارات أثناء حرب العراق مع إيران
- والعراق اتهم الكويت بتعمد تخفيض سعر البترول ليخسر العراق
- ثم اتهموا الكويت بسرقة البترول من حقل (الرميلة) المشترك بينهم، وطلب صدام إلغاء كل الديون عليه من الكويت والسعودية
- حوالي ستين مليار دولار
- والسفيرة الأمريكية جلاسبي قالت لصدام إن بلادها ليس لها رأي بشأن صراع (عربي- عربي)
- وهل يكفي أن تقول ذلك لكي يقدم رئيس دولة عربية على غزو دولة شقيقة؟

- وقتل أربعة آلاف من أولادها - إخوته وأبنائه - في يومين... يبتسم راضياً بعد أن أكمل عمله الشاق:
- المكتبة رجعت أمتن، ثم وقف يعلقها ويعيد رص كتبها، فقلت:
- أتظن ذلك؟ لا يجدي الإصلاح في جسد متهالك أنهكته السنون وكثرة الإصلاح مرة بعد مرة؛ لابد من تغيير كلي!
- سوف نرى
- لا أشكك في مهارتك، دعك مني، وماذا فعل صدام أيضاً مع أشقائه؟
- نهب خيراتهم من نفط وذهب وغيرهما
- هل كان كل ما تربينا عليه من أُخوَّة العربي للعربي محض أوهام؟
- يبدو ذلك؛ المصلحة أهم!

لكن الأسئلة الأخطر توالت بعد ذلك! أكانت مؤامرة أمريكية للسيطرة على كل منابع نفط الخليج؟ أعلن بوش أنه لن يسمح باجتياح العراق للسعودية، وتدفقت القوات الأمريكية إلى السعودية خلال أيام، وتكون تحالف دولي من حوالي مليون جندي من أكثر من ثلاثين دولة لتبدأ عملية (درع الصحراء) يستمر الاحتلال سبعة أشهر وينتهي بتحرير الكويت في فبراير ١٩٩١، في العام نفسه ينهار الاتحاد السوفييتي ويتشرذم إلى خمس عشرة دولة!

بعد سنة يتركون شقة طلخا ويرحلون إلى قرية أخرى، نركب الميكروباص من موقف طلخا فلا يتحرك إلا بعد حشر أربعة في المقعد الخلفي! أغلب الركاب من أهلنا الفلاحين البسطاء بزيهم التقليدي وكثيراً ما تجد معهم أولادهم الذين يرتدون الجينز! تتوالى المحطات وحركة الركوب والنزول: ميت عنتر، شرنقاش، الطويلة وكفر الطويلة، ديَسط، بساط، ثم إلى وجهتنا الأخيرة: بطرة، نعبر جسراً صغير إلى اليمين حيث تقف بقايا الحنطور ثم نسير مسافة قصيرة إلى الشقة في أول القرية، بطرة هي بلد جدي لأمي، يلقون حفاوة بالغة من أهلها الذين يقدرون والده ويعرفون مقامه العالي، سرعان ما يتعرف الفتى بالجميع فيعيد أواصر القربى وصلات الرحم بعد غياب طويل، فهذا خالي فلان ابن عمة أمي وهذه خالتي فلانة بنت عمها ، يزور الجميع ويزورونه، يذهب إلى إحدى خالاته

الجدد؛ يطرق الباب فتجيبه من الداخل: ادخل؛ الباب مفتوح، فيجدها مريضة في فراشها فيصر أن يقف وحده في مطبخها يعد لها طعام الغداء حتى يعود أبناؤها من مدارسهم وجامعاتهم فيجدون الطعام جاهزاً، بإحراج تقسم عليه ألا يفعل، فيقسم: أنا طباخ ماهر، لا تخشي شيئاً! لن أفسد الطعام، لا تعملي تكليف، ألست ابن أختك؟ أنتِ خالتي والبيت بيتي.

أكتوبر ١٩٩٢، تتزلزل مصر زلزالها الشهير، مئات القتلى، آلاف المصابين، وعشرات الآلاف من المشردين! معونات عاجلة من العرب والعالم ينهبها نظام مبارك بكل همة! تتخبط الحكومة وتقف عاجزة عن إغاثة الناس، يأتي الفتى على جناح السرعة ليطمئن علينا وعلى أخته؛ الحمد لله لم يصبنا مكروه، فقط سقطت المكتبة وتكسرت؛ بل تفتتت! يختفي أكرم فجأة ويعود في اليوم التالي بادي الإرهاق: أين كنت يا فتى؟ أساعد الناس، أرفع أنقاضاً، أسعف مصابين وأساعد في نقلهم إلى المستشفيات!

بعد أشهر أزورهم فأجد معه صديقه ابن خالتي التي طبخ لها؛ طالب في مثل عمرنا بجامعة المنصورة، بعد تعارف سريع يستكملون حوارهم؛ يتكلم صديقنا الجديد بحماس عن بلدياته الشيخ جاد الحق! شيخ الأزهر:

- ولد الشيخ في بلدنا بطرة وعاش فيها طفولته وبدايات شبابه، تحضر خالتي الشاي وتضيف:

- كان صديقاً لوالدي- جدكم المكاوي- رحمه الله، فقلت في دهشة:

- لا أعرف.. فقال الفتى:

- سمعت أنه عمل فترة بالقضاء.. فأكمل قريبنا :

- زمان كان الحاصل على شهادة العالمية من الأزهر يمكنه أن يعمل بالقضاء.. فقلت:

- تقصد القضاء القديم؛ الشرعي؟ فقال:

- ثم العادي بعد إلغاء الشرع، أقصد الشرعي، ههههههه

- وبعد؟

- ظل قاضياً لسنوات، ثم صار مفتياً لمصر ١٩٧٨

- ثم تولى مشيخة الأزهر منذ ١٩٨٢
- رجل محترم، أتعلم أنه وقف أمام مبارك في عدة مواقف؟
- يقال أنه أثناء عمله بالقضاء كان حاجبه في المحكمة هو والد مبارك
- وتوسط ليدخل مبارك الكلية الحربية
- وليته ما توسط
: - هههههه ما فات مات، فسألت متشككاً
- وما مواقفه مع مبارك؟
- أشهرها عندما طلب منه فتوى تبيح وضع الأموال في البنوك الربوية فرفض الشيخ بإصرار وعندما أحس مبارك بالحرج قال له: كنت أمزح يا شيخ، فرد الشيخ بصرامة: الأمر جد ليس مجالاً للهزل!
تبدأ الحكومة تنفيذ خطة الخصخصة فعلياً فتباع الشركات والمصانع تباعاً للمستثمرين، أتابع أخبار كفاح الفتى وأستمع سعيداً إلى قصص مهارته في إصلاح الأجهزة الكهربائية وتقدمه في عمله بالمستشفى والورشة، ثم يرتبط بقصة حب نظيفة مع ابنة خال لنا، التقي بها عند إحدى خالاتنا الجدد فأعجب بحيائها وجمالها الهادئ، تزور عمتها- والدته- عدة مرات فيزيد الإعجاب المتبادل، هو شهم يساعد الجميع، كريم يبذل دون حساب، واضح التدين والخلق لا تفوته فريضة في المسجد، لسانه يقطر عسلاً، وسيم يشبه رشدي أباظة وراغب علامة! فارس أحلام تتمناه أي فتاة، لكن ما ادخره من مال لا يكفي لشبكة أو شقة أو أي من متطلبات الارتباط، فما العمل؟
رغم ورود أخبار سيئة بمقتل جمعة في العراق في ظروف غامضة يبحث الفتى عن عقد عمل، بعد بحث ودفع لمبلغ كبير يتضح أن صاحب مكتب السفريات نصّاب أخذ ماله ومال غيره من الشباب ثم اختفى، تمر شهور ثقيلة، لكنه دائماً واثق في فرج الله القريب، يمرض أبوه فيزورهم لواء سابق من أبناء عمومته؛ يعرف الفتى أن الرجل يعمل منذ أحيل إلى المعاش في بلد خليجي فيدخل ويقدم له الشاي ثم يسأله في بساطة: ممكن تساعدني في الحصول على عقد عمل بالخليج؟ معجباً بجرأته وثقته بنفسه يعده الرجل خيراً ويأخذ أوراقه ثم يمضي، لكن الوالد

يلومه: الرجل جاء يزورني بعد غيبة سنوات فلا يصح أن تطلب منه شيئاً كهذا!!
نتحاور كثيراً حول السفر والاغتراب؛ أيكون ما حدث لجمعة مصير من يسافر بحثاً عن لقمة عيش نظيفة؟ ولماذا الغربة من الأساس؟ البحث عن حياة أفضل! وما الجدوى؟ ولو سافرنا جميعاً فمن سيزرع الأرض ومن يعالج المرضى ومن يعلم التلاميذ ومن ومن؟ الأرض يتم تبويرها وتُباع بآلاف الجنيهات وتُبنى عليها البيوت! ومن يسافر يعود بأموال وسلع استهلاكية وقِلة تبني مصانع وتشغل عمالاً! فيرد: لن أدخر أموالاً لأنفقها دون طائل بل سأفتتح مشروعي الخاص وأجمع شباب العائلة ليعملوا فيه!
وأخيراً ينجح في الحصول على (فيزا حرة) يذهب ليلتقي بفتاته في كليتها ويتفقان على أن يخطبها مع أول إجازة: سنكون لبعضنا إن شاء الله، تبتسم في خجل؛ تخفي وجهها بكفها وتقول بصوت خفيض: إن شاء الله. يترك العمل في مركز الكلى ويحضر إلى القاهرة لعمل الكشف الطبي والإجراءات النهائية قبل السفر، يحكي لي في سعادة عن قصة حبه الوليد، أسأله عن معنى (فيزا حرة) فيجيب:
تتفق مع الكفيل على مبلغ يتقاضاه منك مقابل أن يتركك تعمل بحُرية في أي مجال
- المصريون في العراق ... يُقيمون مشاريعهم الخاصة دون كفيل! وماذا ستعمل؟
- كما أعمل هنا؛ في إصلاح الأجهزة والمكيفات.
يسافر الفتى، نتبادل الرسائل وشرائط التسجيل، يحكي عن عمله المجهد الذي يستمر في اليوم لأكثر من خمس عشرة ساعة ودخله المتواضع الذي يأكل الكفيل أغلبه، لكنه يحمد الله على نعمته: لو جلست في مصر لما فعلت شيئاً.

٩... الزواج

أتخرج، يتصل من غربته في مكالمة طويلة لتهنئتي:
- ألف مليون مبروك حبيبي
- الله يبارك فيك
- سبع سنوات!
- نعم، من الأشغال الشاقة
- أعانكم الله؛ دراسة مرهقة
- ليس فقط لصعوبة الدراسة ولكن أيضاً لمرارة الظلم!
- ماذا تقصد؟
- كم عانيت من امتحانات الشفوي والعملي والتي تصل نسبة درجاتها في بعض المواد إلى ستين بالمائة من مجموع الدرجات
- وما مشكلتها، هل تختلف عن الامتحانات النظرية؟
- لا علاقة لها بمستواك أو مذاكرتك، عن نفسي أرتبك جداً ولا أطيق المواجهة مع الأساتذة، هذا غير أولاد الأساتذة!
- كيف؟
- بعينيَّ رأيت أساتذة يعطون بعض الطلبة الدرجة النهائية بعد سؤالهم عن صحة الوالد الذي هو غالباً أستاذ زميل لهم
- الله أكبر، قمة العدل، وعددهم كبير؟ أرد ساخراً
- حوالي ستين
- مشكلة
- وهناك أكثر، رأيت أستاذاً يعطي إحدى الطالبات الدرجة النهائية بعد أن أُعجب بأناقتها الواضحة، فسألها: من أين أنت؟ فأجابت: من شبرا، فقال مندهشاً: أنا قلت هذا الجمال من مصر الجديدة، مبروك، ثم عصرني!
- ههههههه لا حظَّ للرجال
- أنا صاحب المقولة: الميزة الوحيدة للامتحان الشفوي أنه ينتهي
- والنظري؟

- ليس أفضل كثيراً، تسرب في سنتنا الأخيرة لأبناء الأساتذة وأصدقائهم
- إذن الأوائل جميعاً من أبناء الأساتذة ومن حولهم؟
- لا، فرغم كل ذلك لا أنكر أن بعض الطلاب كان يستحق أن يكون من الأوائل وحصد التفوق بالفعل
- وما تقديرك أنت؟
- الحمد لله؛ جيد جداً مع مرتبة الشرف
- والترتيب؟
- ترتيبي متأخر لكن يبقى لي أمل التعيين في وظيفة معيد بأحد الأقسام الأكاديمية التي يدرس بها الطلاب خلال أول ثلاث سنوات بعيداً عن المستشفى؛ لا أحب التعامل مع الناس
أتقدم بالفعل إلى إحدى تلك الوظائف الأكاديمية، يخبرني زميلي حاتم أنني لن أُعين أبداً! لماذا؟ رأيت الأمن يوصي عليك بنفسي! ولماذا؟ ربما لدخولك اتحاد الطلبة وارتباطك بالأسرة الإسلامية، لا أفهم؛ لم أكن ناشطاً لهذه الدرجة، يحدث ما أخبرني به، تنتهي سنة الامتياز وأتسلم التكليف في وزارة الصحة!

١٩٩٤ يُعقد مؤتمر السكان بالقاهرة، يهاتفني الفتى سعيداً: أرأيت ما فعل الشيخ جاد الحق؟ فقلت: ماذا حدث؟ فقال: أراد مبارك أن يمرر توصيات مؤتمر السكان، قال للشيخ: لا تُغضِب الأجانب، فقلت: التوصيات التي تتبنى وجهة نظر الغرب، فقال: لا تجرم الزنا وتشجع الشذوذ وحرية اختيار الجنس وتغييره، فقلت: سحق لهويتنا ومسخ لثقافتنا بل وللفطرة السليمة، وماذا فعل الشيخ؟ فقال: رفض، بل وقدم استقالته ولكن مبارك رفضها.
وظل الشيخ- آخر الرجال المحترمين- في منصبه حتى توفاه الله بعد عامين من تلك الواقعة.

تمر سنة غربته الأولى وبضعة أشهر، يحضر في أولى إجازاته محملاً بالهدايا للجميع! ويخطب فتاته في حفل بسيط جميل، يبرز دور أخويه وخاصةً أخيه الأصغر في تجهيزات الخطبة والمساعدة في النفقات، كان أخوه الأكبر قد تزوج وانتقل إلى مقر عمله في الشركة التي يعمل بها زوج شقيقتهم

الثالثة؛ رأس غارب، يختلف الأمر كثيراً في الغربة حين يكون لك أخوة محبون أمناء يقومون بمراعاة مصالحك في وطنك، بل وينفقون من مالهم إذا تطلب الأمر من أجل إسعادك.

تمر الشهور، انتهي من فترة التكليف ثم ألتحق لدراسة ماجستير التحاليل الطبية بإحدى المستشفيات، يحضر الفتى في أجازة صيف ١٩٩٧ وقبل أن تنتهي أجازته يأتي لزيارتنا، يصلح كل شيء في البيت! يركب الجلد للحنفيات التي تنقط، يصلح توصيلات الكهرباء، يضبط إيريال التلفاز، يدعّم السرير العتيق لكي يكف عن الاهتزاز والتزييق، وسط زحام العمل والمناوبات أقتنص سويعات لأراه، نتمشى فنعبر شارع جسر السويس، ننعطف يساراً في شارع محمد فريد الذي تتوسطه حديقة خضراء؛ يسألني عن أحلامي القديمة فأقول:

- لا أرى شيئاً يدعو إلى التفاؤل

- ما رأيك في انتفاضة الفلسطينيين؟

- كنت أقصد الحكومات، طبعاً جهاد الفلسطينيين يُشعرني بالفخر

- أنا منبهر بتجربة الشيخ أحمد ياسين

- عندك حق؛ الرجل مشلول! لكن بهمته العالية نجح في إنشاء تلك الحركة التي فجرت الانتفاضة

وتواجه صلف الصهاينة المعتدين على أرضنا وعرضنا

- تعرف أن المغتصبين قدموه للمحاكمة

- وحكموا عليه بالسجن مدى الحياة... يقف متأملاً أصناف الفاكهة بجوار جامع الفتح؛ يشتري بعض المانجو ويقول: ما شاء الله؛ نعم جليلة؛ أذوب في غرام المانجو، ثم سألني فجأة:

- أخبرني يا ابن خالتي، ما هو أكثر شيء يسعدك؟

- الجنة

- لا أقصد في الآخرة، بل في الدنيا

- تحرير الأقصى

- ههههه، أسألك عن شيء يسعدك حين تستيقظ صباح الغد فتجده تحقق أمامك!

- صباح الغد؟ أفكر قليلاً فيقول بابتسامة:
- قُل؟
- أن يقوم المجاهدون بعملية فيقتلوا العشرات من المغتصبين الصهاينة، ينظر إليّ متعجباً ثم يبتسم ويقول:
- لا فائدة! وهل أنت مقتنع أنها عمليات استشهادية؟
- الفتاوى كثيرة متضاربة؛ بين انتحار لا يجوز وبين استشهاد وجهاد، لكني مطمئن لفتوى إنها عمليات استشهادية إن شاء الله؛ خاصةً أنهم لا يستطيعون الحرب التقليدية، وإمكانياتهم لا تسمح بمواجهة مباشرة، فرتل بخشوع:
- (ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوٍ نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح)
- هو ذاك، نصلي العشاء في جامع الفتح، يوقظني صباح اليوم التالي؛ ٣١ يوليو ١٩٩٧ وهو يضحك بشدة:
- صدق خالك، دائماً يقول عن هذه العائلة: ذرية أولياء.. أقوم مبتسماً
- ماذا حدث؟
- لن تصدق، عملية استشهادية أمس، ومقتل ستة عشر صهيونياً وإصابة العشرات
- الله أكبر
- سأعتبرك من اليوم من أولياء الله الصالحين
- ههههه تعرف أن خالي كان يمزح، وأنني مليء بالمعاصي، وربنا يسترها علينا جميعاً.
يعود إلى الرياض ولا تنقطع مكالماته ورسائله، رغم مُضي الحكومة في خطة الخصخصة لكن أوضاع الناس ومرتباتهم تتحسن إلى حد ما، تنتشر الموديلات الحديثة من السيارة (لانسر) في الشوارع بشكل ملحوظ! يبدأ المحمول (الموبايل) في الظهور شيئاً فشيئاً وكذلك تظهر الأطباق اللاقطة (الدش!) على أسطح بعض المنازل، وتظهر المحلات التي تبيع أجهزة الاستقبال.

تغيبك المناوبات عن الأحداث؛ ذات يوم من شهر سبتمبر يتصل بي الفتى ليخبرني: تعرض مشعل لمحاولة اغتيال في عَمّان، حقنه عملاء الموساد بالسم لكن تم القبض على اثنين من المنفذين، طلب الملك حسين من (نتن ياهو) الترياق المضاد للسم فرفض! تدخل كلينتون وأجبر (نتن ياهو) على تسليم المضاد للأردن، وتم الاتفاق على إطلاق سراح الشيخ ياسين في مقابل إطلاق سراح منفذي العملية! سبحان مغير الأحوال، عاد الشيخ إلى بيته فتهللت غزة بالفرحة.
يعود بعد عام آخر لإتمام الزواج في حفل جميل تاريخه لا ينسى ١٩٩٨/٨/٨! يطلب أغنية بعينها: يا طيب القلب وينك! أذهب لأعانقه:
- مبروك يا حبيبي ربنا يسعدكم، بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير، فيسألني وكأنه نسي الفرح والحفل وكل شيء:
- ربنا يسعدك، عقبا لك، يا أخي طريق الطب هذا صعب جداً، تذاكرون طيلة عمركم ولابد من الدراسات العليا وتتأخرون في الزواج! ثم قال لي هامساً: أعرف أنها مخطوبة، لكني متفائل لك بالخير! يعرفني بصديق جاء يهنئه: عايد؛ صديق العمر ورفيق كفاحي من أيام المعهد، يبتسم صديقه ويقول: ولي الشرف! يقضي مع عروسه أسبوعين ويسافر! يطلبني هاتفياً ليبلغني بالخبر:
- فُسِخت الخطوبة
- أي خطوبة؟
- بنت خالك، هيا توكل على الله
- حبيبي، أغلقت هذا الباب حتى أحصل على الماجستير
- ولماذا لا تكلم أباها؟
- وماذا أقول له؟
- قل له أنك تريد أن تخطبها ولو مبدئياً بدبلتين وبعدها ربنا ييسر وتتزوجوا
- لا أستطيع
- على الأقل فاتِح البنت، اعرف رأيها، هي ممكن تقنع أباها بالانتظار
- ولماذا تنتظر، أختها الأصغر منها تزوجت، لماذا أمنع عنها رزقها؟ عندما

أكون مستعداً لخطبتها فسأتقدم، أما قبل ذلك فلا
- اسمح لي؛ هذه سلبية، لماذا لا تقاتل من أجل حلمك؟ أنا أمامك لم أكن أملك شيئاً، ذهبت وفاتحت فتاتي في الأمر فطمأنتني وعُدت وخطبتُها ثم عدت وتزوجتها، ربك يرزق، فما المشكلة؟
- أنا المشكلة، لست جريئاً مثلك، لا أستطيع أن أذهب وأكلمها وأتفق معها أن تنتظرني حتى أحصل على الماجستير وأبني مستقبلي وربما يستغرق الأمر سنوات.. يقول متعجباً:
- أعانك الله

تمر عليّ فترة النيابة ثقيلة؛ محاضرات واختبارات ومذاكرة ومناوبات أتنقل بين المستوصفات والمستشفيات، يتصل: صوتك متعب.. فأجيبه:
- إرهاق؛ نيابتي في مستشفى حكومي؛ أمارس العمل أثناء دراستي للماجستير
- وهل أنت وحدك في القسم؟
- معي زميل آخر، فيجب أن أحضر المناوبة يوماً ويحضرها يوماً
- وما فترة النوبتجية؟
- من الثانية ظهراً ولمدة أربع وعشرين ساعة، ولا يحق لك أن تحصل على أكثر من خمسة عشر يوماً كأجر على المناوبات كحدٍ أقصى كل شهر
- ولماذا يضعون حداً أقصى للأجر؟ هل يدفعون مبالغ كبيرة؟
- جداً؛ المناوبة بخمسة جنيهات لا تكفي المواصلات
- تعملون وسط الجراح والدماء وضغوط المرضى والحوادث مقابل خمسة جنيهات، أهذا معقول؟
- ههههه بالنسبة لي لا جراح هناك، أنا نائب تحاليل
- يعني شغلك كله دم و.. أشياء أخرى؟
- بدل العدوى تسعة عشر جنيهاً شهرياً.. فتعجب: تمزح؟ فقلت: لا والله!
- وماذا تفعلون في الشهر الذي يكون واحداً وثلاثين يوماً؟
- أقسّم مع زميلي أجر المناوبات فأحصل على أجر خمسة عشر يوماً ويحصل على مثلها ويقوم أحدنا بالعمل يوماً دون أجر على أن يتم تعويضه في الشهر الذي يليه ويكون واحداً وثلاثين يوماً كذلك

- وأيام الأعياد؟
- زميلي ناجي اسكندر يتحمل المناوبات في عيد الفطر وعيد الأضحى، بينما أتحمل مناوباته في أعياده!
- وهل أنت مرتاح في العمل والمذاكرة؟
- لا أبيت في البيت إلا يومين في الأسبوع، كعب دائر! والحمد لله على كل حال
- تعال هنا، الأطباء مطلوبون جداً، أسأل لك في المستوصفات القريبة مني؟
- أكرمك الله يا حبيبي، لن أسافر قبل الحصول على الماجستير
- ولم؟
- السفر كأخصائي بعد الماجستير يختلف في التقدير مادياً ومعنوياً عن السفر كممارس عام أو طبيب مقيم، فلنصبر قليلاً، قل لي أنت متى ستذهب العروس إليك؟
- بدأت إجراءات الاستقدام، ولكنه صعب
- ولماذا؟
- يقولون أن مهنتي لا يسمح لمن يعمل بها بالاستقدام
- وما الحل؟
- أحاول، وإلا فسأقوم بعمل تأشيرة زيارة
- وهذه يسمحون بها؟
- نعم، ويمكن تجديدها، لكن الاستقدام أفضل
- أما زال العمل مرهقاً بنفس الدخل الضعيف؟
- تتحسن الأمور بفضل الله
يمر علينا أخوه الأكبر في طريق عودته من رأس غارب حيث يعمل أسبوعاً ويرتاح أسبوعاً، أسأله عن أحواله فيجيب بسعادة:
- الحمد لله، اشترى والدي أخيراً قطعة أرض في طلخا لنبني فوقها بيتنا المِلك
- مبروك، خطوة رائعة ربنا يوفق
- خطوة تأخرت كثيراً لكن كل شيء بأوان

- الحقني بالتفاصيل
- ثمن الأرض اشتركنا فيه جميعاً، بابا بجزء من مكافأة نهاية الخدمة ونحن أولاده الذكور وزوج أختي الثالثة معنا
- عظيم
- حلم والدي القديم؛ يجمع أولاده معه
- وتكاليف البناء؟
- تم الاتفاق على أن تقسم علينا بالتساوي ويكون لكل واحد منا شقة- دوراً في البيت، سألته عن المواويل فقال: طار اليمام!
يدخر الفتى ويرسل المال لوالده ويسدد أخوه الأصغر عنه إذا احتاج الأمر.

١٠ ... كوكا كولا، موبايل، إنترنت!

وهكذا كنت أحكي له ويحكي لي كل التفاصيل عبر مكالماته ورسائلنا المتبادلة، يتقدم في عمله بشكل مُرضٍ ويترك إصلاح المكيفات والثلاجات ليبدأ مرحلةً جديدة تتناسب مع تطور العصر! أسأله في إحدى المكالمات:

- وتركت إصلاح المكيفات؟
- الحمد لله، افتتحنا محلاً لإصلاح الجَوّالات (المحمول)
- وهل عندك خبرة لهذا الأمر؟
- أتعلم من العيال البنجالية؛ عفاريت في التصليح
- بِن! بنجالية؟
- آه، يعني من بنجلاديش، منتشرون هنا جداً
- لكنه ليس مجالك
- أتعلم بسرعة، والدخل أفضل بكثير.. ثم أكمل وكأنه يقرأ أفكاري غير المقتنعة: لا أحد يعرف أين الخير، صليت استخارة عدة مرات
- ربنا يقدرلك الخير حيث كان

تُخطب فتاتي عدة مرات وتفسخ، ثم يُكتب كتابها فعلياً؛ مهندس يعمل بالإمارات، تستقر أمورها نسبياً، هل كان معه حق حين طالبني بالتمسك بحلمي ومفاتحتها أو والدها؟ أقنع نفسي بأن الأمر كان مجرد إعجاب وأدفن مشاعري في زحام العمل، أدعو لها بالتوفيق ولا أتمنى لها إلا الخير.

يجهز الفتى شقة عائلية في الرياض بعد جهد شاق وتسافر زوجته إليه بتأشيرة زيارة لمدة ثلاثة أشهر ويقوم بتجديدها لمدة مماثلة.

في مكالمته التالية يسألني:

- اشتريت جوّالاً؟
- لا يا عم
- ولِم؟
- لا أحتاجه
- ولو، أصبح جزءاً من تطور العصر
- أو الوجاهة الاجتماعية! ولماذا يشتري المرء شيئاً لا يفيده؟ مواعيدي

وأماكني معروفة ولا يتطلب تخصصي الاتصال بي في أي وقت!
- هنا يتفاخر الشباب بتغييره كلما نزل موديل جديد، صدقني سيقلب حياتك رأساً على عقب!
- لا علاقة لي بهذا الجو، تقدرتقول إني متخلف
- ههه، هناك أنواع جيدة وليست غالية
- أصبحتَ خبيراً في سوق المحمول
- شُغلي
- إذا أردتُ شراءه فسأخبرك لتنصحني بأفضل الأنواع
- لا غيره، نوكيا، فنلندي، أصلي
- هههههه، هنا ينطقون اسمه (بالراء) فِرلندي، أصلي

بعد محاولات ونفقات يوافقون على أن تقيم زوجته معه بصفة دائمة وبعد أشهر يرزقهما الله بالمولود الأول (عمر) ثم ينجح في الحصول على تأشيرة زيارة لوالديه فيحضران ليقيما معه في الرياض ثلاثة أشهر يصفها بأنها أسعد أيام حياته، لماذا؟ لأنه يراهما ويقبل أيديهما كل يوم! يتصل فأخبره أخباراً سعيدة:
- أختي خُطِبت
- مبروك، ومن سعيد الحظ؟
- لا نعرفه من قبل، جاء عن طريق إحدى قريباتنا؛ جارة والدته
- من المنصورة؟
- بل من عين شمس
- وماذا يعمل؟
- محاسب في شركة كوكا كولا بالسعودية
- جميل، يا رب يكون في الرياض
- خميس مشيط، بجوار أبها
- أوه، في الجنوب
- نعم
- ومتى الزواج؟

- أكتوبر القادم إن شاء الله
- أعانكم الله، طمئني على أخبار الماجستير؟
- الحمد لله، نسيت إخبارك، عمل الواجب وزيادة
- مَن؟
- زوج أختك الكبرى أكرمه الله، كان هنا في مأمورية، تعرف إنه يعمل في مركز الأبحاث بجامعة المنصورة
- وما علاقته بموضوع الماجستير؟
- عمله بالجامعة يختص بمساعدة الأطباء لدراسة الماجستير والدكتوراه، يقوم بتجهيز ما يريدون من أبحاث عن طريق شيء اسمه (الإنترنت)
- شبكة المعلومات؟ هو المسؤول عنه هناك؟
- بالضبط، يدخل عن طريق الكومبيوتر ويجهز الأبحاث التي يحتاجونها
- وبالنسبة لك
- طلبت منه مساعدتي في الرسالة
- وهل أفادك؟
- جداً، لا تتخيل، كنت أذهب إلى مكتبة الكلية وأظل أبحث لساعات طويلة ولا أخرج إلا بعبارات بسيطة من كتب متناثرة أغلبها قديم، لكن هذا (الإنترنت) أقرب إلى السحر! يحضر لك في ثوان معدودة أحدث ما كُتب عن موضوعك في جميع أنحاء العالم، لا يأتي من جهتكم إلا كل خير
- هههه، نحن عائلة واحدة، زوج أختي يعني زوج أختك
- طبعاً

يؤدي مع والديه فريضة الحج، يعودان فيحكيان بسعادة عن المملكة والحج والرياض: الفتى في انتظارك! تشجعني قصصهما أكثر على خوض التجربة، أعود للمستشفى في الصباح لأجد أقاويل عن فتى (فني) وفتاة (ممرضة) ضبطهما عامل يتبادلان القبلات في أحد الأماكن الهادئة، وما أكثرها في المستشفى وفي كل مستشفى! يضايقني الكلام فيلاحظ أحد الزملاء ويحاول تهدئتي:
- أراك غاضباً؟
- ألم تسمع بما جرى؟

- عادي جداً، يحدث كل يوم، والموضوع مصيره إلى الحفظ، ما الذي يزعجك؟

- تردي الأخلاق، شدة الفقر، صعوبة الحلال وانتشار الحرام

- حرام! الموضوع كبر جداً، لازم قعدة، ههه.. يأخذني إلى الكافيتريا، يطلب الشاي وأضع ملعقتين من السكر، يشعل سيجارة ويضحك ثم يقول: والله ظننتك قلقاً على مصيرهما، أنت تحفة!

- ماذا تقصد؟

- إلى متى ستظل مغيباً عن واقع الحياة؟ التدين شيء والغفلة شيء آخر

- غفلة؟

- حبيبي، لابد أن تفهم وتعرف ما يدور في دنيا الناس

- أعرف، وهذه الأمور تصيبني بالقرف.. يبتسم في سخرية وينفض رماد سيجارته في المطفأة ويقول:

استفزني كلامه فقلت:

- قرف؟ وماذا تعرف؟ استفزني كلامه فقلت:

- بعد أيام من نيابتي... ظلت إحدى الممرضات تشاغلني وأنا غير مهتم، ثم كتَبَت اسمي على رسغها طوال أسبوع كامل فلم أعرها التفاتاً.. فرد ضاحكاً:

- ولماذا؟ طبعاً هي بطولة منك، لكنها- لا تؤاخذني- لن تأكلك يا صاحبي

- لا أحب تلك العلاقات

- علاقات؟! ابن حلال، هل تعلم أن نادية ممرضة الرعاية تخرج مع الدكتور كريم كل ليلة؟

- يا عم ارحمني

- أقسمت لي تلك الصاروخ أنها مستعدة لدفع أي مبلغ من المال لتخرج معك أنت ولو لليلة واحدة

- تخرج معي؟ وما المناسبة؟ وماذا نفعل؟

- ههههه تلعبون صَلّح، يخرجون إلى السينما أو الديسكو وقد يتطور الأمر حسب الظروف، والمزاج طبعاً، بالتراضي!

- اسكت أرجوك، سأتقيأ

- لا، لابد أن تعرف كل شيء، هل تعلم أنهم يسمون سهام (رفيقة الامتياز) والحق يقال: البنت مخلصة، وهل تعلم أن جميع زملائك في الاستقبال اختلوا بالأخت قمر-وهي فعلاً قمر-وقبّلوها

- لا إله إلا الله، اسكت

- أما رواء فحُبلى في شهورها الأخيرة؛ دون زواج طبعاً من زميلنا...

- كفى، لا تخُض في الأعراض

- ههه، خلاص، يا مكسوف! احمرّ وجهك، لكن لا تقلق، سأساعدك، تحب آخذ لك موعداً من إحداهن؟

- اتركني في حالي الله يهديك

- الله يهديك أنت، قل يا باسط ولا تعقد الأمور، أنت شاب وأعزب والبنات يردن وقتاً ممتعاً وكلاماً حلواً، عش حياتك ولن تطالبك إحداهن بأي شيء؛ لا التزامات ولا خطوبة ولا زواج، مجرد وقت لطيف ويذهب كلٌّ في طريقه

- وسمعة البنت وسمعتي وكلام الناس

- في كل الأحوال لن تسلم من كلام الناس، التي تشاغلك والتي تريد قضاء وقت جميل بصحبتك والتي واللتان واللاتي؛ البنات خيالهن واسع، كل واحدة ستطلق لأحلامها العنان وتحكي لصديقاتها مغامراتها المزعومة معك وكأنها حقيقة واقعة، وتجد نفسك محاطاً بإشاعات لا تنتهي يا جميل المُحيا، يغمز بعينه ويكمل: أكيد تفهم قصدي!

- ومالهم ومالي؟ كما ترى أنا منعزل عن الجميع؛ من البيت إلى المناوبة إلى المستوصف وبالعكس، ينظر إليّ متعجباً:

- معقولة، ألا تعرف؟ أرد بضيق:

- لا أعرف ماذا؟

- اسمع، بالأمس قالت لي إحداهن أنك يا متدين يا ورع كنت تتلصص على البنات! قبل أن تذهب لصلاة الفجر يا تقيّ! أرد مغضباً:

- أتلصص؟ أي بنات؟ ماذا تقول؟

- لا تخف، أنا ستر وغطاء عليك، اهدأ وخفض صوتك؛ الممرضات تحت التمرين النائمات في قسم الأطفال، والموضوع بتفاصيله الآن عند رئيس

القسم يا مولانا الشيخ
- تتكلم كأنك لا تعرفني، كنتَ زميل دفعتي، بالله عليك هل رأيتني أتحدث أصلاً مع أي فتاة؟ ينظر إليّ بتشكك:
- لا ولكن بالتأكيد حدث شيء ما، تذكَّريا صديقي، البنات سيشهدن ضدك
- نعم نعم، الآن تذكرت، كنت أبحث عن نائب الأطفال لأبلغه عن نتيجة التحاليل لحالة حرجة وهو مختفٍ ولا يرد على الهاتف، فتحت باب الغرفة وأنا لا أعلم أنهم يبيتون فيها
- أصدقك، لكن هل سيصدقونك هم؟ تعال نفكر بهدوء، الإشاعة سرت في المستشفى كلها وقد يصل الأمر إلى تحقيق
- لا إله إلا الله
- خذ حذرك وجهز إجاباتك، الكل ساقطون لكنهم يمثلون دور الطهر والعفة، بينما أنت قد تكون نظيفاً لكنهم سيورطونك، حذرتك وأنت حر!
- جزاك الله خيراً
- لكن فكر فيما قلته لك، لابد من بعض الخبرات في الحياة، وعدتني إحداهن أن تقف في صفك... لو وافقت وخرجتما معاً
- السلام عليكم
أحكي للفتى فيفاجئني:
- ههه، عنده حق
- أكرم!
- والله، لأنك أبعد ما تكون عن كل تلك التفاهات
- الله يحفظك، ومنك نستفيد
- أمزح معك، ولا يهمك
- الموضوع أصبح معروفاً في المستشفى كلها
- وهل فعلت شيئاً يشينك؟
- لا والله
- طيب ما رأيك أن الله لن يضيعك أبداً، وسترى
- يا رب

يُحفظ التحقيق لعدم الجدية ولشهادة رئيسة القسم (الدكتورة سناء جرجس) لي بحسن الخلق، لكن الأمر كله؛ تلك العلاقات، اتهامي بالباطل، مجرد التحقيق؛ كل ذلك ترك في نفسي ضيقاً شديداً وأضاف إلى غضبي غضباً، وكأن كل الأوضاع تدفعني إلى الرحيل، وأخيراً أنجح في الماجستير فيتصل الفتى لتهنئتي:

- مبروك، هيا أنا في انتظارك

- اصبر قليلاً يا فتى

- صبرنا طويلاً، آن الأوان نكون عزوة في الرياض، الإخوة السودانيون، ما شاء الله، إذا أتاهم متعاقد جديد يوفرون له السكن والإعاشة حتى تتحسن ظروفه، يتجمعون ويتساندون كالأهل حتى الذين لا يعرفون بعضهم قبل ذلك

- والمصريون؟

- لا، المصريون شيء آخر، ربنا ينجيك من المكر والمقالب!

- لماذا تخيفني؟ ليلتك بيضاء، هل أبقى هنا؟

- ههههه لا تخف، تعال فقط وسنتصرف، البقاء عندك لا طائل من ورائه

- عندك حق، ليس فقط من الناحية المادية، أنا مخنوق، لكن لابد من فترة خبرة، على الأقل سنتين لكي يعتمدوني أخصائياً، لن أسافر كطبيب مقيم بعد أن حصلت على الماجستير

- وتصبر سنتين؟

- هو صعب ولكن لابد

- ستظل في المستشفى نفسها؟

- ستنتهي فترة النيابة بعد أشهر وسأحاول الاستمرار في المستشفى

- ولكن الأوضاع المادية رديئة

- بل تحت البائسة، لكن الصبر أفضل، زملائي الذين سافروا دون سنوات خبرة يمرون بظروف سيئة ويحصلون على رواتب متدنية

- والزواج؟

- لا يمكن قبل السفر

- ألم تدخر مالاً طوال تلك السنوات الست بعد تخرجك؟
- ثلاثة آلاف جنيه أولاً عن آخر
- لا حول ولا قوة إلا بالله، غير معقول، يا عم تعال واخلص
- وهل أنت مرتاح في الغربة؟
- كل شيء مريح هنا إلا افتقاد أهلك وأصدقائك، غير ذلك نحن في نعمة والحمد لله، وأسأل نفسي: وهل افتقاد أهلك شيء يسير!؟
أحاول افتتاح معمل في مجمع عيادات قريب، صاحبه (يسري) زميل يسبقني بدفعة ويشيد بأمانتي وإخلاصي، أشتري الأجهزة وأحضر فنية لتقوم بالعمل اليدوي وأحضر كل مساء لأعتمد النتائج وأناقشها مع المرضى، يحصل كما اتفقنا على ربع الدخل، بينما أدفع تكاليف كل شيء: الأدوات والمستهلكات والمحاليل والكيماويات وأجر الفنية، في البداية أراجعه كثيراً لأنني أرى مبالغته في طلب تحاليل لا يستفيد منها المريض، ثم يخفت صوتي شيئاً فشيئا! أستسلم للأمر الواقع: نصحته مراراً ولن يتغير؛ يستفيد من الإيراد! بعد ستة أشهر يكثر المراجعون ويزداد الدخل، لو استمرت الأمور هكذا فلن أحتاج- على الأقل مادياً- للسفر، يطلبني يسري في عيادته، أذهب إليه فيبادرني:
- أهلاً يا باشا
- أهلاً بك
- معذرةً، أريدك في موضوع
- تفضل
- كان اتفاقي معك أن تقوم بعمل التحاليل بنفسك، أما أن تترك الفنية تعمل وتأتي أنت ساعتين آخر اليوم للتوقيع فهذا يؤثر على صحة النتائج، وبصراحة أنا لا أثق في عملها.
- وماذا تريد؟
- نغير الاتفاق يا باشا
- كيف؟
- نجعل نسبتي أربعين بالمائة ونسبتك ستين، فما رأيك؟
- غير موافق طبعاً، لم نتفق على ذلك منذ البداية، ولم يتغير شيء

- تقوم الفنية بعمل التحاليل وهي لم تكن موجودة في اتفاقنا أصلاً
- بالضبط، لم تكن موجودة في الاتفاق، وأنا أعطيها راتبها بالكامل ولا أكلفك منه شيئاً، وهذا نظام المعامل في كل مكان، تعمل الفنية ويراجع الطبيب ويعتمد النتائج، وأنا المسؤول عن صحة النتائج
- يا سيدي نغير الاتفاق، ليست مشكلة
- إذا كانت المشكلة في الفنية فسأحضر يومياً وأقوم بعمل التحاليل بنفسي وهي ستساعدني فقط
- هذا شأنك ولن أتدخل في عملك، تساعدك، تساعدها، لا مشكلة، المهم: النسبة
- قل ذلك من البداية، ولكني لن أغير النسبة، هذا ليس عدلاً
- لم نكتب عقداً وأرى أن النسبة التي أقترحها أكثر عدلاً
- نعم، لم نكتب عقداً ولكن الله شهيد على اتفاقنا، وما تقترحه لن يكون مجزياً، وماذا سأكسب بعد أن أدفع كل تلك النفقات وأزيد من نسبتك؟ أنا غير موافق
- إذن فهو الفراق
- فليكن
ألملم أشيائي وأدوات المعمل وأرحل حزيناً، لكن الفتى يتصل بي ليطرح وجهة نظر أخرى!
- ألا تقول إنه كان يطلب فحوصاً لا ضرورة لها؟
- نعم
- فماذا كان يحدث لو استجبت لمطالبه وزادت نسبته؟
- كان سيطلب أكثر وأكثر
- إذن فالحمد لله الذي أراحك من هذا المكان ومنعك عن الحرام!
- الله يكرمك، لم أفكر هكذا أبداً
وهكذا مضيت أعاود البحث عن مكان آخر..... حتى أسافر

١١ ... الأطباق

يترك إصلاح الموبايلات! يقل الدخل لانتشار المحلات التي تمارس النشاط نفسه، في مكالمته يبشرني:

- هناك عمل آخر، دعواتك
- ربنا يكرمك، ما هو؟
- تركيب الأطباق: الدِّش
- هذا زمن القنوات الفضائية! ما شاء الله، في مصر انتشرت جداً
- لكن هنا في بداياتها، وإن كان مستقبلها هائلاً
- ما زالت في بداياتها؟
- نعم، المجتمع لا يتقبلها، التركيب يتم في السر
- لهذه الدرجة
- أصحاب العقارات يرفضون تركيبها للمستأجرين، وبعض الشباب المتدينين إذا اكتشفوها يقذفونها بالأحجار حتى يكسّروها
- ولماذا؟
- يعتبرونها حراماً
- عجيب، هناك قنوات قرآن وبرامج إسلامية أيضاً
- يصعب إقناعهم، هل ركبتم الطبق عندكم؟
- لا.. وبعد عدة أشهر أسأله: وماذا يحدث حين تركب طبقاً لأحدهم
- أنصحه: هذه فتنة، فاحرص على ألا تشاهد إلا حلالاً ولا تدخل بيتك شيطاناً يدمر حياتك وحياة أولادك
- وبعد؟
- لا شيء، يركب الدش وغالباً يركب القمر الأوروبي أيضاً (الهوت بيرد)
- ههه بما فيه من كوارث! لكن ما نسبة انتشارها؟
- تزداد تدريجياً، وربنا يسامحني
- تشعر بتأنيب الضمير؟
- جداً، وأحاول أن أبحث عن عمل آخر

- تعب كلها الحياة، ربنا يكرمك بالرزق الحلال
يختلف الوضع كثيراً مع وجود زوجة وطفل، واحتياجه لتحويل مبالغ مالية منتظمة لتكملة بناء البيت، يشترك في عدة مشاريع؛ يحاول مع بعض أصدقائه أن يفتتح محلاً للعصير؛ يفشل المشروع ويخسر بضعة آلاف فيضطر إلى العمل الشاق ليل نهار، يشتري حبوب الترمِس الجافة ويعدها ويبيعها للبقالات القريبة، لكن الدخل يكفي بالكاد، يحادثني:
- ذنبي؛ كنت ألوم والدي على الخسارة في مشاريعه
- تُحمِّل نفسك فوق ما تطيق، لا حيلة في الرزق؛ كانت مجرد كلمات اعتذرتَ عنها كثيراً
- ادع لي أن يرزقني الله بعمل بمرتب ثابت يكفي احتياجاتي
- ربنا يقدرلك الخير حيث كان
تمضي أسابيع ليبشرني باستجابة دعائه! تفوقه وشهرته في صيانة المكيفات ثم في سوق الجوالات في حي (المرسلات) ثم مهارته في تركيب الأطباق وبرمجة القنوات؛ كل تلك الخبرات أهلته أن ينتقل إلى شركة الملياردير المعروف (البلشان) يدفع مبلغاً كبيراً لكفيله ليسمح له بنقل الكفالة، في مكالمة جديدة أسأله:
- ولماذا أخذ منك كل هذا المبلغ؟ ألم تكفه الإتاوة السنوية؟
- أدفع أو أرحل، أو أستمر معه ولن أتقدم خطوة
- وأين عملك الجديد؟
- بمحطة الأقمار الصناعية في بلدة قريبة من الرياض تُدعى (ديراب)
- وما طبيعة عملك؟
- أبراج تقوية شبكات المحمول؛ تحتاج صيانة مستمرة
- وطبعاً هذا مجالك؛ لعبتك يا فتى
- بالضبط
- هل العمل مرهق؟
- جداً، لكنه أفضل من عدم الاستقرار
- صف لي يومك
- أصحو مع الفجر، بعد الصلاة أسافر إلى ديراب لأصل حوالي السابعة،

أحصل عند أذان الظهر على ساعة راحة لا تكفي بالطبع للذهاب إلى البيت والعودة، فأقضيها في المحطة وأتناول الغداء، بعدها أعود إلى العمل حتى السابعة مساءً، في بعض الأيام أسافر خارج الرياض لتركيب أبراج جديدة، أذهب إلى البيت قتيلاً أبحث عن السرير.

- هذا هلاك، ومتى ترى عمرو أمه؟

- يوم الجمعة! وفقط

بعد أشهر قليلة يطلبونه بالاسم للصيانة والإشراف على تركيب الأبراج في فرع الشركة بجدة، يقضي فترة يتحرك بين الرياض وجدة ثم بعد قليل تصبح جدة مركز تحركاته إلى مناطق غرب المملكة، يعود كل بضعة أيام إلى الرياض ليقضي يومين مع أسرته، في إحدى المرات يحتاجونه على وجه السرعة، لابد من الذهاب إلى جدة فوراً، يذهب إلى المطار فلا يجد طائرة، يتصل بمديره فيخبره أنه سيحاول التصرف، يفاجأ بعد قليل باتصال هاتفي؛ صوت خليجي لرجل كبير السن:

- السلام عليكم، أنت أكرم؟

- نعم، من معي؟

- أنا البلشان.. صمت لحظات يستوعب الأمر، ثم رد:

- أهلاً يا شيخ

- جاهز تروح جدة الآن؟

- أنا في المطار

- وأنا أيضاً، تعال إلى صالة الطيران الخاص

- هناك طائرة سأركب فيها؟

- طائرتي الخاصة، أنا ذاهب إلى جدة الآن، تعال معي

- حالاً يا شيخ! بالفعل يذهب ويركب مع الشيخ في طائرته الخاصة شديدة الفخامة، يسأله الرجل:

- لعلك مبسوط معنا

- الحمد لله بفضل ونعمة

- مرتاح في مواعيد الدوام والراتب

- جداً الحمد لله.. يبتسم الرجل ويقول:

- أعرف أن عملك مجهد، هل الأهل معك؟
- نعم يا شيخ
- ربنا يبارك لك، عندك أولاد؟
- عندي عُمر الحمد لله
- وكم عمره؟
- سنة يا شيخ
- أعلمُ إن الراتب ضعيف والأسعار تتزايد بسرعة لكن انظر، وأخرج من جيبه شيئاً
- ما هذا؟
- ريال كما ترى، قبل ستين عاماً لم أكن أملك إلا هذا الريال، وريال فوق ريال على ريال، عملت وتعبت واجتهدت وادخرت وكسبت وخسرت، سألتُ عنك؛ يشهدون أنك بارع في عملك، خذها نصيحة يا ولدي، لا تفرط في أبسط شيء، ضع كل شيء في مكانه؛ ولو ريال، لمصلحتك
- إن شاء الله
- رأيت ملابسك فاخرة فأردت أن أنصحك
- جزاك الله خيراً
- أحب المصريين فمدرسوهم علمونا وأطباؤهم عالجونا ومهندسوهم أنشأوا طرقنا وخططوا مدننا، لكن لديكم عيباً خطيراً! يحقد بعضكم على بعض، المحاسبون المصريون نصحوني بتخفيض الرواتب، وبأن يدفع العاملون تكاليف الاستقدام والإقامة، وبأن يكون الراتب طبقاً للتقويم الميلادي لا الهجري توفيراً للفارق! وبتأخير الرواتب كل شهر بضعة أيام لنستفيد من تراكم الفوائد في البنوك!
- لا حول ولا قوة إلا بالله
- في الحقيقة علَّمَنا المصريون كل شيء؛ من تلاوة القرآن حتى الرقص البلدي! بلد الأزهر وشارع الهرم!
تُسند إليه أعمالٌ أكبر في كل مناطق المملكة فيضطر أن تغادر أسرته إلى مصر حتى تستقر أموره ولكنه مقتنع أن مكانه الأصلي سيبقى في الرياض فيحتفظ بشقته هناك.

تسافر أختي مع زوجها، لم تكن هناك رحلات مباشرة من القاهرة إلى أبها، لابد من توقف لبضع ساعات في مطارجدة، يعرف الفتى بالأمر فيذهب ليلتقي بهما في المطار، يقضي معهم فترة الترانزيت ثم يعطيها (نقوطاً) خمسمائة ريال! بكل المقاييس كان مبلغاً ضخماً، ربما يمثل ثلث مرتبه في شهر كامل من الشقاء والمعاناة، تقول: هذا كثير، فيرد: لم أحضر فرحك؛ ولا كثير عليك يا أختاه! أما زوج شقيقتي فسرعان ما صار صديقاً للفتى الذي يدخل قلوب الجميع بجرأته المحببة وأناقته اللافتة وثقته بنفسه وشدة كرمه!

يخبرني زميلٌ بأنه قدم أوراقه في عدة مكاتب للسفريات، سألته:

- ولكن كيف ستسافر قبل اكتمال السنتين- مدة الخبرة؟

- سألت وعرفت أن أطباء التحاليل لا يلزم لهم موضوع السنتين للحصول على ترخيص أخصائي

- متأكد؟

- جداً، كل المكاتب تقول ذلك

- توكلنا على الله

- ستبحث أيضاً؟

- طبعاً، من باكر

- طيب، تابع إعلانات شركات إلحاق العمالة بالخارج في جريدة الأهرام، وسأعطيك بعض أرقام الشركات

- تسلم..

في اليوم التالي أذهب إلى المستشفى، أوازن بين البقاء والرحيل؛ يتردد داخل نفسي حوار ساخن: تترك أهلك وأصدقاءك وذكرياتك لتكسب بعض المال، لو ظللت في مصر فلن أفعل شيئاً ولو بعد عشرين عاماً، من قال ذلك؟ ربما تجد مكاناً أفضل من مكان (يسري) ويرزقك الله بالحلال ولا تحتاج إلى السفر والغربة، فلأسافر وأجرب وسأشترط أن تكون مدة العقد عاماً واحداً قابلة للتجديد بموافقة الطرفين، سنة وتمر بسرعة، وقد تجر السنة سنة وسنة ثم سنوات، اذهب وإذا لم يعجبك الوضع تعود بعد عام وتكون ادخرت مبلغاً معقولاً تبدأ به زواجك أو مشروعك..

أفاجأ بصرخات وطرقات عنيفة آتية من استقبال المستشفى، أهرع إلى مكان الصوت فأجد فرداً من أمن المستشفى يجري في اتجاهي ويصرخ بهلع: اخلع البالطو! تلك الصرخة التي نعرفها وتعني أن أحد المرضى قد توفي في الاستقبال وأن ذويه يبحثون عن الأطباء لينتقموا منهم! أسرع الناس هروباً في تلك الأحوال هم الأمن؛ يختفون في أي مكان ويساعدهم أنهم كانوا يرتدون ملابس عادية- لا الزي الموحد الذي ظهر فيما بعد- ثم يبلغون الشرطة، أجري بعيداً عن الاستقبال وأنزع أزرار البالطو بأقصى سرعتي، وإذا بقبضة عنيفة تهوي فوق رأسي وصوت يصرخ:
- آه يا دكاترة يا أولاد الكلب، ثم ضربات متوالية من عدة أشخاص ظفروا أخيراً بغايتهم؛ طبيب من معسكر الأعداء يحاول أن يزيل دليل جريمته: البالطو الأبيض! لم يسمعوا توسلاتي:
لا ذنب لي، لم أر الحالة، أنا طبيب تحاليل.. ليصبح صوتي صرخات مكتومة، ثم حشرجات متقطعة، ثم اختفى، وسقطتُ مغشياً عليّ.
رأيت بعض زملائي يبتسمون لي في غرفة الإفاقة والأربطة تحيط برأسي وذراعي في الجبس مع آلام رهيبة في كل أجزاء جسدي: حمداً لله على سلامتك، انكتب لك عمر جديد، تركوك بعد الإغماء وانتشروا في المستشفى يحطمون كل شيء ويضربون كل من يرتدي البياض! وأين الشرطة؟ جاؤوا بعد حوالي ساعة، واستقبال المستشفى تحطم تماماً، هرب البلطجية عندما سمعوا صوت السارينة، تم عمل محضر لكن الممرضات لم يذكروا أوصاف الجناة، منعهم الرعب لأنهم من سكان المنطقة وسيعتدون عليهم مجدداً إذا ذكروا أسماءهم أو أوصافهم! هل تتذكر وجوههم؟ فقلت: لا أذكر شيئاً، ضربوني من الخلف ولم أتبين أي ملامح! صرخت من ألم مفاجئ فجاءت الممرضة لتعطيني حقنة مخدرة لأعرف وأنا أتقلب ألماً أن المتوفى رجل تخطى السبعين وأن أولاده جاءوا به مع عشرات من أصدقائهم البلطجية ميتاً إلى الاستقبال، وكأن على الأطباء أن يحيوا الموتى! وإلا تعرضوا للضرب والقتل، زميلنا طبيب الطوارئ الذي اكتشف الوفاة فهم العواقب من أشكال المحيطين بالجثة، استأذنهم ليحضر جهاز الضغط ثم انطلق هارباً خارج المستشفى! وهل

تلوم من ينجو بحياته من موت محقق؟ أستغرِقُ في تفكير عميق لا يقطعه إلا صرخاتي متألماً أستجدي حقنة المورفين! هل يمكن أن أستمر في العيش في بلد لا تمنح الأمان لطبيب يقوم بعمله ولا يطلب حتى أجراً عادلاً؟

وبدأت رحلتي مع مكاتب السفريات: مئات المكالمات وعشرات المكاتب والمقابلات، مع الأغلبية منهم تخرج بانطباع واحد: تحلية بضاعة! يصفون لك الوضع في الخليج وكأنه جنة لا مثيل لها، مرتب محترم لا يقارن بدخلك في بلدك، سكن عائلي مؤثث رغم أنك لم تتزوج بعد، أجازة وتذاكر طيران سنوية، بعد عدة مقابلات ستكتشف بعض الحقائق؛ أغلب عقود الخليج سعودية أما عقود الكويت والإمارات فنادرة جداً وتحتاج غالباً إلى شهادات غربية! وعقود المملكة تختلف حسب المناطق؛ إذا كان التعاقد في مكة أو المدينة المنورة يخصم الكفيل من راتب المِثل حوالي ألف ريال شهرياً وعندما سألت عن السبب قال لي أحد أصحاب المستوصفات: نبيع لكم الحرم! المصريون يحبون العمرة وزيارة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، ووجودك داخل مكة أو المدينة يوفر لك آلاف الريالات التي تنفقها في الحج والعمرات والزيارات!

كنت بلا خبرة فلم أناقش كثيراً من التفاصيل، وبعد الاستخارة جاء دور الاستشارة، اتصلت بالفتى فأغلق هاتفه واتصل مباشرةً فقلت:

- لماذا تغلق الخط؟
- لا أريد تكليفك، المكالمات من هنا أرخص
- أبشرك، وجدت عقداً؛ وفي الرياض
- الله أكبر، تعاقدت فعلاً؟
- قلت اتصل بك أولاً لتسأل عن سمعتهم
- تأمر، ما اسم المستوصف وعنوانه
- مستوصف البركة، خلف ماكدونالدز
- قريب مني جداً
- طيب الحمد لله
- أعطني فقط أربعاً وعشرين ساعة وآتيك بالخبر اليقين، هل تريد أن

أسأل عن أشياء محددة؟
- سؤالان؛ هل ينفذون العقود؟ وهل هم منتظمون في دفع الرواتب؟
- لا تتخيل كم أسعدتني هذه الأخبار.. في اليوم التالي يتصل:
- ذهبت وسألت، مدير المستوصف من بطرة
- ههههه يعني قريبنا
- نعم، يعرف أخوالك، تصاحبت عليه، يقول أن الكفيل يدفع الراتب بانتظام، تعال بسرعة أنا في انتظارك
- الله المستعان، توكلنا على الله
- لا تخش شيئاً، تعال وسنحل أي مشكلة بإذن الله

وتعاقدت كأخصائي مختبر في ذلك المستوصف، أغلب المكاتب تحصل على مبالغ أكبر بكثير مما يحدده القانون وهو واحد بالمائة من مبلغ التعاقد لمدة عام، حصلت صاحبة المكتب على عشرة أضعاف المبلغ: وإلا لن أتمم التعاقد، كنت قد وصلت إلى درجة الاختناق الكامل، وعرفت أن أغلب المكاتب تحصل على مبالغ أكثر، توكلنا على الله، أنهيت إجراءات التوثيق والكشف الطبي والأجازة وتبقى تصريح العمل، أذهب إلى مكتب التصاريح بقسم الشرطة فيقولون لي تعال غداً، في اليوم التالي أذهب لتقول لي الموظفة: عندك مقابلة بعد يومين في أمن الدولة بلاظوغلي! ولكن موعد الطائرة غداً، حاولت معها فقالت: انتظر قليلاً، ثم جاءت ومعها جندي اصطحبني إلى مكتب العميد مسئول التصاريح بالقسم، قال لي: الأمر بسيط، لكن لابد من الذهاب في الموعد، فقلت: وماذا أفعل؟ طائرتي غداً، فقال: أجّل سفرك، لن تسافر بدون التصريح.

١٢ ... حسين!

ولم يكن هناك بد من الذهاب؛ لاظوغلي! أسأل أصدقائي الذين ذهبوا قبلاً:

- لا مشكلة، لم تُعتقل من قبل، أسئلة روتينية؛ حوار للحصول على معلومات

- معلومات؟ لا أعلم شيئاً- غالباً يسألون عن نشاطك أيام الكلية، تذكّر- لم أفعل شيئاً، لماذا يعطلونني عن السفر؟ هل يريدون اعتقالي؟ ولماذا؟ اطمئن؛ لو كانوا يريدون اعتقالك لجاءك زوار الفجر وكسّروا باب البيت واختطفوك، تلك طريقتهم، أما أن يطلبوك وتذهب إليهم بقدميك فالأمر يسير، تستمر حواراتي الداخلية: تعذيب! تقييد يديك خلف ظهرك وتغمية عينيك، كهرباء، تعليق، غمس رأسك في الماء القذر، ضرب مبرح، إطفاء سجائر، انتزاع أظافر، وانتهاك للعرض! ولماذا؟ لم أفعل شيئاً، لا تذهب! كيف؟ ربما لن يطلبوا منك التصريح في المطار، وحتى لو طلبوه فيمكنك استخراجه من مكتب التصاريح بصالة السفر، لا، لا أستطيع أن أخوض مثل تلك المغامرة.

فلأذهب وما قُدِّر سيكون.

وذهبت؛ تنتظر ساعات طويلة دون أن يسأل عنك أحد؛ زيادةً في التشويق، أو في التخويف! يغلقون عليك مع آخرين باباً فتقضي ما شاء الله من الوقت لتخرج وقد أصبحت شخصاً آخر! أكثر جُبناً وأشد حذراً، أقل كلاماً وأكثر سخطاً، المكان شبه مظلم لا يدخله إلا بصيص نور من فتحة نافذة مطلية بلون كحلي كئيب يحجب أشعة الشمس، تكاد سنة ١٩٩٩ تلفظ أنفاسها الأخيرة، بعض الأشخاص جالسون، لم أتكلم مع أحد كما نصحني أصدقائي فلا يمكنك أن تعرف إن كان أيٌّ منهم جاء مثلك في استدعاء أو أنه مدسوس عليك!

بعد قليل أتبين المكان، طرقة طويلة بها كراسي معدنية صدئة على الجانبين وفي آخرها مكتب يجلس خلفه بعض العساكر يتناوبون قياماً وقعوداً كل بضع لحظات ليزيدوا توتري، ينفذ إليها الباب الذي دخلنا

منه، وبابان آخران خلف المكتب، حين دخلت فتشوني تفتيشاً سخيفاً.. جداً! أخذوا بطاقتي الشخصية، انتظرت من التاسعة صباحاً- الموعد الذي حددوه- وكلما مرت ساعة وقفت وسألت أحد العساكر: متى سأدخل؟ فيقول بابتسامة ساخرة: انتظر، لا تستعجل، حتى الرابعة عصراً، قمت وبدأت في رفع صوتي: غير معقول، جئت فقط من أجل تصريح العمل، وأنتم الذين طلبتم مجيئي، أدخلوني أو اتركوني أخرج فوراً، قال أحدهم: انتظر دقيقة، وعاد: تعال خلفي، مضيت وراءه في طرقة أخرى طويلة على جانبيها عدة أبواب حتى وصلنا إلى الرائد (جميل) دخلت فوجدته رجلاً ثلاثينياً متشاغلاً بتقليب أوراق وبجواره شاب يكتب فجلست؛ نظر إليّ وضحك:

- كنت سأقول لك تفضل بالجلوس، لكنك تفضلت فعلاً، حضرتك صاحب المظاهرة بالخارج منذ قليل؟

فقلت مرتبكاً: تأخرتُ كثيراً

- آسفين، أخرنا معاليك

- آسف لرفع صوتي

- ولا يهمك، الجلسة مريحة؟

- نعم، شكراً

- ما المشكلة؟ لماذا شرفتنا اليوم؟

- ليس عندي مشكلة، أنا طبيب متعاقد للسفر إلى الخارج، أنهيت إجراءاتي وتبقى فقط تصريح العمل، ذهبت لاستخراجه فقالوا إنكم تريدون مقابلتي

- لماذا؟

- حضرتك قل لي

- يا رجل يعني لا تعرف لماذا نطلبك في أمن الدولة ونعطل سفرك؟ أنت أكيد مهم

- بل إنسان عادي جداً، ضغط زراً أمامه فجاء العسكري: هات ملفه يا ابني ...

- هات ملفه يا ابني، أين تسكن يا دكتور؟
- عين شمس
- دكتور ومن عين شمس، تهمتين لوز، ههههه
- أنا متهم؟
- اصبر، تشرب حاجة؟
- شكراً
- هل تحضر دروساً في مسجد بلال؟
- لا، عمري
- زوجتك منتقبة؟
- لم أتزوج بعد
- غريبة، هل كنت ملتحياً؟
أسمع طرقات خجولة على الباب ويدخل العسكري فيقول جميل: أخيراً، الملف المنتظر...، نشاط سياسي، ما شاء الله
- ليس لي أي نشاط
- ندردش قليلاً فقط
- تفضل
- بياناتك، اسمك وسنك وعنوانك ومهنتك.. أجبته فبدأ يسأل عن تفاصيل أكثر؛ الوالد ومهنته، الوالدة ومهنتها، الإخوة والأخوات، لي أختان متزوجتان وأخوان أصغر مني ما زالا بمراحل الدراسة، أسماء أزواج أخواتك، وظائفهم، محلات الإقامة بالتفصيل، رغم برودة الجو كنت أتصبب عرقاً، شعر بارتباكي فابتسم:
- مكتوب أنك كنت عضواً في اتحاد الطلاب عام ١٩٨٩، ما علاقتك بالجماعات الإسلامية؟
- دخلت اتحاد الطلاب عاماً واحداً رغبةً في خدمة الزملاء، ولا علاقة لي بأي جماعات
- ثم؟ أكمل يا دكتور
- وجدت أنه تضييع وقت فخرجت ولم أعد مرة أخرى
- عام واحد فقط؟

- نعم (كنت عضواً بالاتحاد خمسة أعوام لكنني كذبتُ محاولاً دفع تلك التهمة المشينة!)
- احكِ لي، ماذا كان الإخوة يقولون لكم؟
- لا شيء، جلسات بمسجد الكلية لتعليم تلاوة القرآن، ومحاضرات عن أهمية تنظيم الوقت وتحقيق التفوق الدراسي
- وماذا أيضاً؟
- مضت سنوات، نسيت ما كانوا يقولون
- لا، هذه أمور لا تُنسى
- لا أذكر شيئاً
- سأساعدك، أفغانستان
- عقدوا بعض الندوات عن الجهاد هناك وكانوا يجمعون التبرعات لإغاثة المصابين وأسرهم
- ولم يتكلموا معك عن السفر للجهاد هناك؟ فقلت صادقاً:
- أبداً
- وفلسطين؟
- نفس الأمر، كانوا يقيمون معارض حول معاناة أهلنا هناك ويجمعون تبرعات للإغاثة
- للإغاثة؟
- نعم
- وللجهاد؟
- لم يُطلب مني ذلك
- متأكد؟
- جداً
- ألا تذكر شيئاً آخر؟
- قلت كل ما أذكره
- مع أي مكتب سفريات تم التعاقد؟
- مكتب أبو نادي بمصر الجديدة.. تجهم وجهه الذي ظل مبتسماً طوال الجلسة، ورفع سماعة الهاتف وقال:

- استعلم عن العقد، هل خرج من مكتب الإخواني أبو نادي؟ حمدت الله في سري فلم يكن للمكتب ولا للتعاقد أي صلة بأي إخواني، نظرة واحدة للمدام- المديرة زوجة صاحب المكتب- تؤكد ذلك، فجأةً قام وقال:

- انتظر قليلاً، سأتأكد بنفسي.. فقلت:

- صدقني لا علاقة لي بهم، فقال: سنرى.

خرج ومرت دقائق ثقيلة مع تخيلات مفزعة، الكل يعرف ما يدور في أقبيتهم! لماذا جئت بقدميّ؟ ألم يكن من الأفضل أن أذهب إلى المطار مباشرةً؟ ماذا سيفعلون بي؟ ماذا ستفعل أمي المسكينة؟ وأبي الذي نصحني بعدم السفر؟ لا معلومات عندي، إذن فسيزداد التعذيب حتى أعترف بما يريدون، أفاقني دخوله المفاجئ:

- اذهب وتسلَّم التصريح من القسم بعد أسبوع

- خلاص؟

أشار بيده وفهمت الإشارة: اخرج..

يتصل الفتى ليسأل:

- لماذا أجلت الحجز؟

- تصريح العمل

- وانتهى؟

- أخيراً

- صوتك متغير

- سأحكي لك حين أراك

- أمن الدولة؟

- عندما أراك

- لن أكون في الرياض، ربما لستة أشهر قادمة

- جدة؟

- بل الجنوب

- أعانك الله

- لا تقلق، سأرسل لك بعض أرقام أصدقائي، تركت مفتاح شقتي مع جاري وأخبرته أنك ستمر وتأخذه

- لا لزوم، سيوفرون سكناً
- قد لا يكون مريحاً، لابد أن تأخذ المفتاح، أخاف يفتحها في غيبتي
- أعرف أنك فقط تريدني أن أذهب
- المكان قريب من المستوصف، والمدير صديق قديم لأخوالك، اطلب منه ما تشاء
- الله يكرمك حبيبي
- اشتريت جوّالاً؟
- مَن؟
- موبايل، محمول
- من أول مرتب إن شاء الله
- عند وصولك كلمني من أي كابينة تليفونات، ستجدها منتشرة، وأعطني رقم هاتف أي زميل بجوارك أو يعرف أخبارك، خذ عنوان شقتي
-حاضر
وسافرت، وهل كان عندي خيار آخر؟! وصلت إلى الرياض، ديسمبر ١٩٩٩ أول ما قابلني وأنا أهبط سلم الطائرة كان إعلاناً ضخماً عن نوع من الجبن مكتوب هكذا (بيق بوي) ضحكت ثم تذكرت اختلاف اللهجات، وجدت حسين في انتظاري؛ مندوب من المستوصف، رحب بي بوجه بشوش، ركبنا سيارته (الفولفو) وتعجبت من نظافة الشوارع واستواء الطرق وأحجام السيارات، يجبرك قرب العهد على المقارنة! أما زالت مصر رائدة التقدم والمدنية؟ قال: اليوم خميس وموظف السكن في عمرة، سألته: والحل؟ فقال: لا تشغل بالك، سنتصرف! تعال أولاً نذهب إلى المستوصف، وذهبنا، وراء ماكدونالدز، حي الملز، وجدت المكان غايةً في الأناقة قبل أن أكتشف بعد أسابيع مدى بساطته مقارنةً بمستوصفات الرياض الأخرى! قابلنا مدير المستوصف الدكتور البطراوي فقام بتعريفي لباقي الزملاء، يدهشك تنوع الجنسيات والديانات؛ العمال والسائقون هنود أو بنجالة، الأطباء أغلبهم مصريون ومصريات وقليل من السوريين، الممرضات أغلبهن فلبينيات مع اثنتين من الهند وواحدة مصرية، فني

المعمل هندي يعمل في المكان منذ عشرين عاماً! وأجهزة المختبر حديثة، مضى الوقت سريعاً وعاد حسين:
- هيا بنا، أكيد أنت متعب وتريد النوم
- جداً، لكن أين سنذهب؟
- إلى شقتي
- لا أريد إزعاجك، ومعي عنوان شقة ابن خالتي هنا، في حي المربع
- المربع قريب، ولكنه لم يقابلك في المطار؟
- في مأمورية عمل خارج الرياض
- إذن ستبيت معي حتى يعود
- ههههه عدة أشهر؟
- لا، اليوم وغداً فقط، بعدها ستنتقل إلى سكن المستوصف، آسفين، والله خطاب مكتب السفريات وصلني متأخراً
- لا داعي للأسف، كفى حسن استقبالك، أرجوك نذهب إلى شقة أكرم وسأبيت هناك
- سنذهب، لكن ليس الليلة، أنت ضيفي، أنا جالس لحالي- عزوبي- زوجتي وبنتي في مصر
- جميل لن أنساه
- لا تقل ذلك يا دكتور، نحن جميعاً إخوتك في الغربة.. وذهبت معه، واتصلت بالفتى ليأتيني صوته يرد روحي التي سُحبت مني حين ركبتُ الطائرة:
- حمداً لله على السلامة
قصصت عليه ما كان، فقال:
- طبعاً الأستاذ حسين رجل شهم، لكن لازم تعرض عليه نقوداً، وحاول تعزمه على العشاء الليلة أو على الغداء غداً، لا تتأخر.. فقلت متعجباً:
- ألا تجد الأمر محرجاً؟
- أليس معك نقود كافية؟
- معي والحمد لله، لكن..
- حبيبي، أرجوك، اعتبرها خبرة سفر
- إن شاء الله! وكلمت أبويَّ ثم أختي ليطمئنوا عليّ.

١٣... العَقد!

ينتابني شعور عجيب؛ انسلاخ من الجلد؛ لو كانت السمكة تشعر بهذا الشعور حين تخرج من الماء فربما هو أقسى عليها من القلي حيةً في الزيت المغلي! نصعد لشقة حسين الصغيرة، يحضر عشاءً بسيطاً؛ جبن وخبز، نأكل ونتحاور، يطلب مني العقد، فأتعجب:

- أليس عندكم نسخة؟

- لم يرسل المكتب نسختنا، سأصورها وأعيدها لك

- سأبحث عنها؛ تعرف التسرع في ملء الحقائب قبل السفر.. كانت نصيحة زملائي الذين سافروا قبلي: إياك أن تفرط في العقد، عقدك موثق وهم ملتزمون بما فيه، نظر إليّ بارتياب:

- أنت خائف مني؟ سأنسخ منه نسخة واحدة وأعيد لك الأصل... أيخونني ونحن نأكل معاً من نفس الطبق، لحظات ليس أكثر واستسلمت؛ خيبة؟ غباء؟ حسن نية مفرط؟ عشم زائد لا مناسبة له؟ سلمته العقد! هدة جسم؛ انطفاء روح دون أسباب واضحة؛ بل واضحة؛ الغربة وكفى! هكذا في اللحظات الأولى؟! نعم، شقته صغيرة وفي غاية الفوضى، أحضر لي مرتبة واعتذر: الشقة بها غرفة نوم واحدة، لأبيت في الصالة. رغم كل مخاوفي وارتباكي استغرقت في نوم عميق، يوقظني صباح اليوم التالي، أغتسل ونذهب لصلاة الجمعة، أبادره:

- صورت العقد؟

- لماذا أنت قلق، لم أذهب إلى المكتب بعد، سأصوره وأسلمك نسختك بمجرد أن أذهب.. فسألته بحيرة:

- ولماذا تحتفظ به معك؟ سلمه لي ونذهب معاً للمكتب تصوره وآخذ الأصل

- أنت عصبي جداً، العقد معي في الحفظ والصون، تفاءل خيراً، الدكتور رامي سيكون الليلة في مكتبه، سأرتب لك لتلتقي به

- ومَن الدكتور رامي؟ رد باحترام زائد:

- هو ابن المعلم (بركة) كفيلك، لكنه يدير كل شيء، سأخبره بأنك لم تتسلم سكنك حتى الآن وينبغي أن تنام في غرفتك.. رددت بعصبية:

- غرفة؟ مكتوب في عقدي: سكن عائلي مؤثث، وليس مجرد غرفة، ضحك وقال:
- وضع مؤقت، الشقة لمن يحضر عائلته
نعود فيقول:
- أحضر أوراقك وشهاداتك الدراسية وشهادات الخبرة ليطّلع الدكتور رامي عليها! تعال نلتقِ بزملائك من الأطباء في السكن، غالباً سيعطونك غرفة مع الدكتور طه
- طه؟ لم ألتق به أثناء جولتي بالأمس
- ربما كان مشغولاً، هو طبيب العيون
عمارة أنيقة، نصعد للطابق الثاني، طرقة طويلة، يتجه يساراً، يطرق باب الشقة فلا يرد أحد: أكيد خرج يتفسح، يطرق الباب المقابل ليخرج لنا عبد الوهاب، طبيب أسنان يعمل بالمستوصف، نجلس ويحضر الشاي، يخرج حسين لأجد السؤال الكريه الذي سيتكرر على مسامعي بعدها كثيراً: ومرتبك كم؟ ابتسم وأردد في نفسي: ومالك أنت؟ وما الفرق؟ وهل آخذ المرتب من جيبك؟ ثم أجبته إجابة ظننتها نموذجية:
- ولماذا تسأل؟ يبتسم:
- مجرد دردشة، الأمرليس سراً، كزملاء نعرف جميعاً رواتب بعضنا، أنا مثلاً عقدي.. قاطعته بإشارة من يدي:
- من فضلك، أنا لم أسألك، ولا أريد أن أعرف، ربنا يبارك لك.. فضحك:
- أنت متوتر بسبب إرهاق السفر، أهي أول مرة؟
- نعم، أول غربة.. يأتي حسين:
- هيا بنا؛ الدكتور رامي منتظرك.. المسافة هي أن تعبر الشارع؛ إدارة مجموعة البركة بجوار المستوصف، والكل (وراء ماكدونالدز) يعرفني بالموظفين، نجلس قليلاً ثم يأتي أحدهم: تفضل.
دخلت فإذا بشاب بدين حليق أحمر الوجه يرتدي ثوباً أبيض يسمونه (الثُوب) وتغطي رأسه (غُترة) بيضاء ناصعة! لم يقم من فوق كرسيّه بالغ الفخامة وبدا مشغولاً في توقيع بعض الأوراق، في المكتب عدد من الموظفين، بعضهم يحيطون به والبعض جالسون أمامه، لم أتقدم

لأصافحه وجلست في مقعد جلدي بعيداً عن مكتبه، رفع وجهه وقال:
- أهلين دكتور، حسين، كيف عرفت بقدوم الدكتور؟ فقال حسين:
- وصلني فاكس من مكتب أبو نادي أمس الساعة الثانية ظهراً بأن الطائرة ستصل في الرابعة، نظر رامي إليّ:
- لا نعرف عنك شيئاً يا دكتور، ابتسمت في توتر:
- كيف؟
- طلبتُ أخصائي مختبر من المكتب منذ فترة طويلة ثم نسيت الأمر، وفوجئت بحضورك
- وهل ما زلتم تحتاجون لي؟
- لا، طلبنا منهم أخصائي وأنت بحسب الشهادات أمامي لم تكمل فترة الخبرة الكافية وهي كما تعلم (سنتين) فبادرته:
- بالنسبة للتحاليل لا يتطلب الأمر تلك الفترة
- لا أعلم عن هذا الكلام شيئاً، سنتقدم بأوراقك وتخوض اختباراً للتصنيف المهني وسنرى بعد ذلك
- وماذا سترون؟
- هل ستنجح في اختبار الهيئة؟ هل سيتم تصنيفك أخصائياً أم طبيباً مقيماً؟
- وحتى تتبين الأمور؟
- أمامك خياران: تصبر معنا وتتسلم سكنك الليلة وتتسلم عملك من الغد وننتظر لنرى ولكن على أن نخفض راتبك قليلاً! قلت مندهشاً:
- لماذا؟
- قلت لك يا دكتور هذا راتب أخصائي وأنت لست كذلك
- وإذا رفضت؟
- تعود إلى بلدك وعلى حسابك الشخصي وطبعاً تكاليف قدومك وتأشيرتك لن نردها لك.. نظرت في حيرة؛ أعود! وقد أحرقت كل المراكب؟ أعود! على حسابي! نظر إليَّ حسين:
- لا تقلق يا دكتور، المرتب سيخفض بمقدار ألف ريال فقط! يضيف رامي:

- وإذا تم تصنيفك كأخصائي فسيعود مرتبك كما هو بالعقد الأصلي، فترة بسيطة وتعود الأمور إلى نصابها، اصبر معنا قليلاً، إذا وافقت سنوقع معك عقداً أفضل، بسنتين بدلاً من سنة واحدة وبكل المميزات، صدمات عنيفة متوالية! ماذا أفعل؟ نظرت في حيرة:
- معذرةً، سأفكر وأرد عليكم
- غداً.. نظر إلى أحد موظفيه: سيرد عليك الدكتور غداً التاسعة مساءً، جهز له العقد الجديد، أو تأشيرة الخروج! خرجت أعاني من دوار كل تلك الأحداث المفاجئة، هل أوافق؟ وكرامتي؟ فلأعد إلى وطني، ومن أين أدفع تكاليف التذاكر، وماذا سأفعل في مصر بعد أن سلمت عملي في المستوصفات لزملائي وتركت المستشفى؟ أأعود إلى وزارة الصحة حيث لا مرتب ولا احترام ولا آدمية بل آثار الضرب ما زالت تؤلمني! كم أحتاج إليك يا أكرم، الآن وليس بعد قليل، أريد من يخلص لي النصيحة، نصيحة! تذكرت نصيحته، وتذكرت أني جائع جداً فلم أتناول طعاماً منذ أمس! حسين! لم أستطع أن أعرض عليه نقوداً، أتصبب عرقاً رغم برودة الجو:
- تعال نتعشَّ، أنا عازمك.. قال متعجباً:
- هذا واجب علينا
- كفى مقابلتك وتعبك معي، تعشينا عندك بالأمس أما اليوم فدوري، تخير مطعماً.. يقول بود: سبحان الله، أتحب الكبسة؟ فقلت: وما الكبسة؟ ابتسم وقال: هيا بنا..أتفضل الدجاج أم اللحم؟
أجد كابينة هاتف؛ اتصل بالفتى؛ وهل يمكن أن أصف إحساسي بصوته تلك الليلة؟ غريق أتعلق بمنقذ! إحساس عجيب؛ تائه محاط بمجموعة من المجرمين الأشرار ثم فجأة تسمع صوت أخيك مطمئناً: لا تخش شيئاً! يسألني عن كل التفاصيل فأجيبه، ينتظر ثواني ثقيلة قبل أن يقول:
- آه يا حبيبي، فعلوها معك، أشعر بك تماماً، لكن لي سؤال، هل مرتبك بعد الخصم مجزٍ مقارنةً بما تحصل عليه في مصر؟
- لا وجه للمقارنة، المرتب بعد الخصم أكثر من خمسة أضعاف ما أحصل عليه في مصر شهرياً بعد الجري على الطرق والطحن في المواصلات (كان الريال يساوي ثمانية وتسعين قرشاً)

- وهل عزمت حسين؟
- نسيت، عزمته على العشاء بعد اللقاء
- لا إله إلا الله- وكأن صدره يغلي- قدرالله وما شاء فعل، وأخذ العقد؟
- نعم
- طبعاً سلَّمَهُ لهم، هو خطئي أنا، لا حل، فلتصبر معهم حتى تثبت وجودك وإن شاء الله تنصلح الأحوال
- يا رب، ولا تلم نفسك، أنت لم تخطئ بشيء، أنا من نسي نصيحتك!
- لولا ظروفي لأتيتك فوراً، لكن سأحاول
- حبيبي لا تشغل بالك، أنا بخير
- وهل وصلت لهاتف بجوارك أتصل بك على رقمه؟
- غداً إن شاء الله أنتقل إلى السكن- أضحك ساخراً وأقول (الغرفة) وممكن أعطيك رقم زميلي.

أذهب مع حسين، يقول: ستبيت عندي الليلة أيضاً وغداً تستريح حتى أمر عليك في المساء لترد عليهم، وجدت الأمر محرجاً فكيف سيذهب إلى عمله ويتركني في شقته، فقلت:

- أريد أن أبيت الليلة في شقة أكرم
- ما زلت مصراً؟
- نعم، أرجوك
- وهو كذلك، أعطني العنوان.. أخرجت الورقة من جيبي
- المربع، شارع الفوَّالين
- ولا أقرب، هيا بنا

١٤ ... المصري!

نصعد شقة حسين لآخذ حقيبة ملابسي، أركب معه، المسافة لا تتجاوز عشر دقائق، يحكي:

- المعلم والد رامي متجنس: فلسطيني من مهجري ٤٨ أصبح أردنياً ثم جاء هنا منذ خمس وعشرين سنة وأخذ الجنسية، وابنه رامي لا دكتور ولا حاجة

- لكنك وموظفي المكتب والأطباء تقولون: الدكتور رامي

- فرض علينا ذلك، لكن هو أصلاً فني بصريات

- يا سلام

- وأصل ثروتهم هي محلات النظارات، يحضرون الإطارات (الشنابر) بالجملة في سفن ضخمة من الصين، الإطار الواحد يتكلف حوالي ريال أو ريال ونصف ثم يلصقون عليه أسماء ماركات عالمية: إيطالي وأسباني وانجليزي وغيره ويبيعونه بستمائة أو سبعمائة ريال

- لهذه الدرجة

- وأكثر، العدسات والعدسات اللاصقة تكسب أكثر

- مكاسب هائلة

- ملايين

- كفاح سنين

- كفاح؟ بل حرام في حرام

- لكنك كنت تتحدث عنهم باحترام!

- لا تحرجني، لم أكن أعرفك جيداً، لكن الآن انفتح قلبي لك، طبعاً لن تحكي لأحد عما قلته

- اطمئن، سِرّك في بئر (قلت في نفسي: عزومة واحدة تقلب الأمور هكذا! كنتَ على حق يا أكرم وكنتُ مهملاً عندما تأخرتُ في تنفيذ نصيحتك)

حكى لي عن مأساة ابنته المريضة واضطراره لإرسالها مع زوجته إلى مصر لدخول مدرسة لذوي الاحتياجات الخاصة وأنه لا يراهم إلا في أجازة الصيف، ثم قال:

- هذا شارع الفوالين أو الفوّالة، أسموه كذلك لكثرة مطاعم الفول

والتميس، والشارع والحي مليئان بالسودانيين
- أعرف الفول والسودانيين، لكن ما التميس؟
- خبز مستدير كبير وسميك لا يؤكل إلا ساخناً.. أتأمل اللافتات فلا أفهم شيئاً: كبدة حاشي، يغمش، منتو، معصوب، مطبق، مثلوثة، إيدامات، مندي، مظبي، حنيذ، مضغوط.. يقول:
- ستتعود يا دكتور، ها هو أول تقاطع.. يخرج رأسه من نافذة السيارة ويسأل رجلاً:
- بيت العسال.. يشير الرجل إلى مدخل عمارة بالشارع الجانبي، يشكره ويقول:
- وصلنا.. ننزل فنجد بوابة حديدية، يسألني:
- هل معك المفتاح؟
- لا، عند جاره في الدور الأول
- معك رقم جوّاله؟
- نعم
يطلب الرقم ثم يقول: لا يرد، ربما نام، الساعة الحادية عشرة والنصف
- أو ربما الهاتف مغلق لأي سبب
- نجرب ننادي عليه، ما اسمه
- سعيد.. نحاول عدة مرات قبل أن يُفتح زجاج نافذة في الدور الثالث، يطل علينا رجل نحيل أبيض الوجه أصفر الشعر بلحية قصيرة ليصرخ بلهجة شامية:
- ما الأمر، من تريدون؟
- نريد الأستاذ سعيد
- ممكن نام، هل الأمر ضروري؟ أنزل أحاول معه؟ نظر حسين إليّ وهمس:

- نبيت الليلة عندي وخلاص.. فهتفت بالرجل:
- معذرةً أستاذي، نتعبك معنا، حاول توقظه، أنا قريب أكرم الساكن في الدور الثاني، ترك مفتاح الشقة عند سعيد وأنا أريد المبيت، والبوابة هنا مقفولة، انفرجت أساريره:

- قريب المصري، يا مرحباً والله نبيتك عندنا لو ما فاق.. أسقط مفتاحاً من النافذة وقال:

- هذا مفتاح البوابة، افتحوا واطلعوا، وأنا سأغير ملابسي وأنزل.. هتفت:

- لا داعي لتعبك، سنطرق نحن باب سعيد

- لا والله، ما يصير، يا عيب الشوم، سأنزل.. فتحت البوابة وقلت لحسين:

- تفضل أنت

- سأبقى معك حتى تدخل الشقة واطمئن عليك

- صعدنا الدور الأول لنجد الرجل قد سبقنا ووقف يطرق الباب، فتح سعيد أخيراً وقال نافضاً آثار النوم:

- خيراً؟ فصاح جاره:

- أقارب أكرم يريدون مفتاح شقته، انتبه سعيد فجأة وابتسم:

- أهلاً يا دكتور، حمداً لله على السلامة، مد يده فصافحته، ثم صافح حسين فقلت:

- الله يسلمك، هذا الأستاذ حسين محاسب بإدارة المستوصف.. ونظرت إلى الرجل الذي نزل من الدور الثالث فقال:

- أنا أخوكم أيمن من سوريا.. فقلت:

- ونِعم

- أنتم الأفضل، أخوك المصري نِعم الرجال.. فقال سعيد متثاقلاً:

- تفضلوا نحضّر عشاءً ونشرب الشاي.. فقلت:

- تعشينا الحمد لله، وآسفين على إزعاجك لكني مرهق أريد النوم، لو تتكرم وتعطيني المفتاح.. فقال:

- شاي سريع.. فرد حسين:

- لنا عندك شاي، لكن الآن نترك الدكتور يستريح.. ثم وقف:

- سأمر عليك غداً يا دكتور

- الثامنة مساءً إن شاء الله

- بل الثامنة والنصف

أخذت المفتاح وصعدنا إلى الدور الثاني، بالدور شقة واحدة لها بابان

خارجيان، فتحت الباب الأيمن منهما بينما أضاء أيمن بكشاف المحمول: بسم الله.. مفتاح النور خلف الباب إلى اليمين، ضغطت فلم يضئ فأشار إلى لوحة مفاتيح الكهرباء الرئيسية إلى اليسار، أدرتها فأنارت الصالة، قال أيمن:

- تأمر بشيء.. فشكرته

إحساس عجيب بالراحة حتى قبل أن أرتمي على أول مقعد، أخيراً؛ مكان أنتمي إليه، فيه رائحة أخي وأنفاسه، ولماذا تقول: أخيراً؟ وصلت بالأمس فقط، ولكن ما حدث لي في أقل من ثمان وأربعين ساعة لم أتعرض لمثله في حياتي، تنقلات متوالية، إرهاق الغربة، الجوع طوال اليوم، مقابلة رامي وعرضه السخيف، تغير حسين الذي لم أتوقعه بهذه السرعة، مقابلة أيمن التي تشعرك بالفخر لأنك قريب للفتى، بالتأكيد مارس معه أهم هواياته في الحياة: الكرم الشديد! جولة في الشقة، كما وصفها بالضبط، غرفة خارجية هي صالة صغيرة وغرفة استقبال للضيوف بها مجلس مرتفع (أنتريه) ثم طرقة طويلة وثلاثة أبواب إلى اليسار، أول باب يفتح في غرفة صغيرة بها مكتب عليه جهاز تلفاز وسرير مفرد وعدة كراسي، ثم غرفة النوم الرئيسية بسريرها ودولابها، ثم المطبخ بثلاجته والبوتاجاز، وفي نهاية الطرقة باب الحمام، ومن داخل المطبخ يفتح باب إلى غرفة أخرى كبيرة يضع فيها سريراً احتياطياً وأسطوانة غاز احتياطية وعدة مراتب ومخدات وأغطية وبطاطين وحقائب وعدد وأدوات وغير ذلك، لا شرفات! أجد منبهاً صغيراً فأضبطه على الساعة الخامسة لأقوم لصلاة الفجر، أبدل ملابسي، أنفض بعض الغبار وأفرش ملاءة نظيفة أحضرتها من الدولاب على السرير المفرد، أستلقي: باسمك اللهم أضع جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين، أروح في نوم عميق، أرى رؤيا لا أذكر منها إلا أنني كنت سعيداً جداً! لدرجة أنني حين أُذِّن للصلاة قبل أن يرن جرس المنبه بقليل استيقظت وأنا أضحك بشدة، يا ربي لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ما أعظم رحمتك يا أرحم الراحمين، ترسل السكينة لتطمئن عبادك المساكين في لحظاتهم القاسية تخفف عنهم وتمسح على

قلوبهم الضعيفة (فإن مع العسر يُسراً إن مع العسر يُسراً) أقوم وكلي تفاؤل، أتكون هذه بركة المبيت هنا في الشقة التي أنا موقن من طهارة صاحبها؛ كم مرة ختم فيها القرآن؟ كم مرة صلى فيها ركعاته الخاشعة بالليل؟ كم مرة قبّل فيها يدي أبيه وأمه؟ كم مرة اتصل من هاتفه يصل رحماً أو يساعد محتاجاً أو يسأل عن مريض؟ كم مرة زاره أحدهم فأكرمه ورعاه وأعطاه دون حسابات أو انتظار لرد؟ أتجهز وأنزل إلى المسجد لأجد أيمن، نعود معاً فيبادرني:

- أخوك طوّل الغيبة، متى سيعود؟
- حسب ظروف العمل
- بالسلامة إن شاء الله
- يا رب، لكن معذرةً عندي سؤال، فقال بحفاوة:
- ولو، تأمر أمر يا حكيم
- الله يكرمك، حضرتك قلت عنه: المصري، مع إن سعيد ساكن تحت وهو مصري أيضاً وأكرم ليس لديه في اسمه لقب (المصري)
- لكنها شهرته في الشارع كله (المصري) منذ جئت هنا؛ عامل البقّالة البنغالي والزول في المطعم السوداني واليمني في مطعم حضرموت وخبّاز التميس الأفغاني والحلاق التركي والمغربي زوج الكوافيرة والكهربائي الفلبيني والباكستاني في محل الجوّالات وحتى صاحب محل شرائط الفيديو ابن صاحب البيت؛ لو تقول قدامهم "المصري" يعرفون إنك تتكلم عن أحسن أخلاق؛ أكرم
- لقب جديد للفتى إذن
- ماذا؟
- ولا حاجة، أشكرك جداً.. نصل إلى الشقة فيناولني مفتاحاً
- نسختك من مفتاح البوابة
- الله يبارك لك
- يا شيخ؛ أخوك هذا آية في الكرم والتربية، ناس أكابر صحيح
- والله أنتم الناس الأكابر، شكراً

أُغلق باب الشقة من الداخل بالمفتاح كما هي عادتي، وأدخل لأنام من جديد، أفكر فيه: أخي أكرم؛ اكتسبت لقباً جديداً (المصري) ونِعم من يمثل المصريين في هذا العالم المصغر، أستلقي ثانيةً، أروح في عالم جديد من الأحلام الهنيئة! فجأةً يتغير الحلم إلى أصوات طرقات عنيفة، ماذا جرى؟ ليست بقية الحلم السعيد، إنه باب الشقة يُطرق بشدة، ثم جرس الباب يدق: أقوم مفزوعاً أصيح: من؟ لا أحد يرد، طرقات متوالية ثم دق للجرس، أندفع إلى الباب متوتراً: يا ترى من يكون؟ أفتح الباب فلا أصدق: أهو هو؟ أم أنني ما زلت في أحلامي، هتفت وأنا أفرك عينيّ بشدة:

- أكرم!

١٥ ... سمك مشوي!

يلقي حقيبته جانباً؛ يقبل عليّ بوجهه البشوش محتضناً ومعانقاً، هذا الحُضن القوي الذي اشتقت إليه بشدة، يقول بصوته المبحوح الحبيب:

- حمداً لله على السلامة، أخيراً أصبح لي أهل في الرياض

- الحمد لله على سلامتك أنت، ما هذه المفاجأة؟ كيف جئت رغم ظروف العمل؟

- أزعجني صوتك، قلت لابد أن آتي لأطمئن عليك، طلبوا شراء قطع غيار، كانوا يريدون إرسال سائق هندي، وجدتها فرصة فقلت لهم بل أذهب أنا، أخذت السيارة وجئت.

- بالسيارة؟ أفرك عيني ثانيةً وأقول: كم الساعة؟

- الثانية ظهراً يا كسول، هيا لصلاة الظهر.. صليت وعدت إليه

- وأين مكان عملك الآن؟

- أقصى الجنوب

- لا إله إلا الله، وكم تبعد عن الرياض؟

- أنا في بلد اسمها (أحد المسارحة) انتقلَت إلى المملكة حديثاً، ما زالت اللافتات هناك تقول: مرحباً بكم في اليمن السعيد! تبعد حوالي ألف وثلاثمائة كيلو متر عن الرياض

- وتحملت القيادة كل هذه المسافة؟

- هنا غير مصر، وأنا معتاد على القيادة مسافات طويلة

- ومتى تحركت من هناك؟

- حوالي منتصف الليل

- يا الله، إذن نَم الآن واسترح، أكيد في غاية الإرهاق

- لا أستطيع النوم مباشرةً، (دُشّ) سريع، ثم نرى ما سنفعل.. احتضنني من جديد قائلاً: واحشني يا ابن خالتي، يعود بعد ربع ساعة، يسألني بالتفصيل عن كل من وما تركت في مصر، أسأله عن ظروف عمله ثم أقول:

- أتعبت نفسك بشدة

- المهم أننا الآن معاً، أخذنا الحمّام وانتعشنا والحمد لله
- نعيماً
- أنعم الله عليك، لا تأخذني في الكلام، هيا نأكل، دجاج أم لحم أم سمك، هنا قريب من سوق الأسماك، ما رأيك أنزل أحضر سمكاً وجمبري عجب؟
- بل ترتاح أنت وأنزل أنا.. يضحك:
- لا يصح، أنت ضيفنا
- أصبحتُ من أهل الرياض، حرام تنزل الآن بعد تلك المشقة
- بمجرد رؤيتك زال كل التعب، أنا جاهز، أعرف الباعة جميعاً ومن أين أشتري، أما أنت فجديد هنا
- كلهم أصدقاؤك يا (مصري)؟
- من قال لك؟
- أخوك أيمن، معجب بك جداً، قل لي ماذا فعلت معه ليحبك كل هذا الحب
- نأكل أولاً ونحكي، سأشغل لك التليفزيون حتى أعود
- بل أنزل معك.. مسافة قريبة بالفعل لم تتعد خمس دقائق، قلت له:
- ما شاء الله، مسافة سير
- ممكن لأننا الآن في الشتاء، أما في الصيف فصعب جداً، الحر هنا فظيع، لكن لا رطوبة، الجو صحي وجاف.. يتوقف أمام محل وينادي البائع:
- يا أبو محمد، يأتيه الرجل من الداخل فرحاً ويحتضنه:
- أبو عمر! متى وصلت؟
- الآن فقط، يشير إليّ ويقول: أخي الدكتور جاء من يومين، لو احتاج أي أسماك سيأتيك
- يشرفني في أي وقت، وجالس في الرياض أم راجع؟
- لا، هذه مأمورية سريعة
- ومتى تعود؟
- الفجر

- أعانك الله
- نريد تشكيلة من أسماكك الطازجة والجمبري الكبير
- انتقِ ما تريد ونشويه أو نقليه لك كما تشاء.. يتقدم إلى حوض زجاجي كبير تتقافز فيه أسماك البلطي الحية، يأخذ من جانب الحوض شبكة صغيرة وقفازاً، ثم يصطاد! أقول مندهشاً:
- تصطاد من الحوض؟
- هذا هو النظام هنا
- ومن أين يحضرونها لتظل حية هكذا؟
- المزارع.. أتأمل فينظر إليّ مستفهماً:
- مالك؟
- تعرف أنني مجنون قليلاً، يضحك فأقول: سأقول لك بعد قليل، جميلة حكاية الحوض هذه، لم تكن عند عم عبده!
- كان يُحضر الأسماك طازجةً من النيل.. أسرح في أفكاري العجيبة ثم أقول:
- نعم، أفضل شيء الطازجة.. ينتقي أربعاً، ثم يسأل:
- والبوري؟
- فُلّ
- نأخذ على ضمانتك؟
- أكيد.. يقول لي الفتى:
- أما البوري فمجمد من مصر، خذ منه في الشتاء لا في الصيف، يعود إلى الرجل:
زن لنا اثنتين، وكيلو جمبري.. يلتفت إليّ :
- مشوي أم مقلي؟ أتعجب:
- هل سيأكل أحد معنا؟ هذا كثير جداً
- لا كثير ولا حاجة، ثم قال بلهجة مسلسلات الكرتون: سنقضي عليه! مشوي أم مقلي؟
- أفضل المشوي دائماً
- وأنا كذلك.. يصيح: اشوِ يا أبو محمد وسنعود بعد نصف ساعة،

يبتسم الرجل:
- بعد العصر إذن.. ينظر الفتى في ساعته ثم يقول لي:
- باقي على العصر ربع ساعة، هنا يغلقون المحلات وقت الصلاة.. يشير إلى الرجل: ولا تنس الطحينة والأرز
أقول متعجباً
- ما شاء الله، المحلات تغلق وقت الصلاة! كلها؟
- نعم
- رائع.. نتمشى في السوق ليشتري الطماطم والخيار والجرجير والليمون ويعرّفني على بقية المحلات، ومع أذان العصر يقول:
- لكن أفضل السمّاكين هو أبو محمد عن تجربة، تعال له في أي وقت
- سترحل مع الفجر فعلاً؟ يبتسم:
- المفروض
- لا أريد تعطيلك عن عملك، لكنه تعب شديد
- سأنام وأرتاح، وبعدها أذهب لإحضار قطع الغيار، إذا وجدت نفسي متعباً فسأتصل بهم وأتأخر يوماً، إن شاء الله لن تحدث مشكلة.. نصلي، نستلم السمك ونعود، نصعد ويضع مفرشاً:
هذه نسميها هنا (سُفرة) أبتسِم فيقول: ستتعرف على كل شيء بالتدريج، بِسم الله.. بطيء أنا جداً في تنظيف السمك، ينظر إليّ مستفهماً:
- قل لي مالك
- فقط آكل السمك بمزاج
- بألف هنا وشفا، لكنك كنت قلقاً في السوق
- أحسست أننا مثل هذه الأسماك.. يضحك بشدة:
- أوحشتني كلماتك، وما علاقة السمك بنا؟
- نأتي من بلاد المزارع والخصب إلى الصحراء، ينتقون منا من يصلح، أصناف نحن وأشكال، مهن وأعماروجنسيات، يصطادوننا، بعضنا يظل حياً حبيساً داخل (الأحواض) وبعضنا يجمدونه، حتى يأتي الموعد و.....
يضحك ويكمل:
- يشووننا..

- ويأكلوننا، لا يتبقى منا إلا أشواك قاسية نؤذي بعضنا بعضاً وقشور سطحية تافهة.. يضحك ويمد يده بواحدة من الجمبري الشهي:
: - هَمّ يا جمل.. أمد يمناي فيردها
- بل إلى فمك مباشرةً
- تدللني كثيراً
- أراك تبالغ؛ لم يصطدنا أحد، بل أتينا برغبتنا.. فأجبته مؤكِّداً:
- وأكثر، نحن الذين بحثنا عن السفر والعقود، كالفراشات تلتمس نوراً فتحترق باللهيب، لكن الأمر لم يكن بأيدينا تماماً
- كيف؟
- ظروف بلدنا في غاية السوء، الكل يحلم بالسفر
- تعبٌ كلها الحياة، قلت لي منذ سنوات شيئاً كهذا، أتذكر؟
- عن ماذا؟
- القلب والأطراف
- طبعاً أتذكر، قديماً كنّا مركز الدنيا، جغرافياً وروحياً، ولكننا كنا نعطي خيرنا للجميع، القلب يغذي الأطراف
- جاء إخوة يوسف إلى (خزائن الأرض) ليأخذوا الطعام
- وجاءت فترات انكسار فخضعنا للفرس والإغريق والرومان، ثم جاء الإسلام وصار لمصر دور مركزي في أمة واحدة
- لا فرق فيها بين مصري وعراقي ومغربي، حضارة تقود العالم ألف عام!
- ومن دمشق وبغداد والأندلس ظل القلب يغذي الأطراف.
- وبعد ذلك أهلكنا الترف، وأصبحنا فرقاً يحارب بعضنا بعضاً وتلك الأيام نداولها بين الناس (فقلت):
- صحيح، وانتقل المركز إلى حضارات أخرى
- ثم الاستعمار: بريطانيا وفرنسا وغيرهما، لكن الفرق أنهم نهبوا خيراتنا، صرنا الأطراف التي تغذي القلب! كانت بريطانيا تعتبر مصر مزرعة للقطن الممتاز طويل التيلة الذي يغذي مصانعها في لانكشاير!
- ولذلك كانت مصر ثاني دولة في العالم تعرف القطارات!
- ثم ورثتهم أمريكا، وأصبحت مصر في الحقيقة تابعة لها

- ثم اكتفينا بدور المركز بين العرب فقط
- كسوة الكعبة والتكية!
- وظهر النفط
- سبب الطفرة
- كان أبناء علية القوم من العرب يتعلمون في مصر ويقتدون بالمصريين، ما زال إخواننا الشاميون يطلقون على النقود اسم (المصاري)
- طبيعي، مصر الحضارة
- كنا! أنظف مدن، أجمل متنزهات، أعظم مستشفيات، أفضل جامعات، أول برلمان، كُتّاب وأدباء وعلماء، سينما ومسرح وثقافة، زعامة وريادة، لكن جموع الشعب ظلت أُمّية فقيرة مريضة
- ثم
- ثم جاء حكم الضباط، ورثوا دولة غنية، عُملتها أغلى من جنيه الذهب والاسترليني، نهبوها وأضاعوا ثروتها في مغامرات فاشلة، وجموع الشعب أمية فقيرة مريضة تهتف بحياة جلاديها!
- ثم أصبحنا نحن الأطراف!
- حتى بين العرب
- بقيت لنا ميزة، صحيح أصبحنا نسافر إليهم، ولكنهم يحتاجوننا، مدرسين يعلمونهم، ومهندسين وعمال يعمرون بلادهم، وأطباء نعالجهم
- وبعد؟
- نزداد انهياراً، ويزدادون عنا استغناءً
- أصبحوا هم المركز؟
- المركز الحقيقي خارج المنطقة، الكل منبهر بالنموذج الأمريكي، نأكل ماكدونالدز، نشرب بيبسي، نرتدي الجينز، نحمل الموبايلات ونشاهد الفضائيات
- صحيح! والإنترنت، فقلت: كانوا ينهبون خيراتنا، أما الآن فيضيفون تدمير أوطاننا! كانوا يأخذون المواد الخام ويقومون بتصنيعها عندهم
- والآن؟

- وجدوا أن المصانع عندهم مكلفة، والأيدي العاملة كذلك، وهناك قوانين وبرلمانات وضمانات تحمي العمال وتجبر رجال الأعمال على أشياء لا يحبونها: حد أدنى للأجور، حد أقصى لساعات العمل، أجازات أسبوعية وسنوية وتأمينات، نقابات وجماعات ضغط قوية تدافع عن الطبقات الأفقر وتحافظ على البيئة!

- وبعد؟

- كل هذه الأشياء غير موجودة في بلادنا، فانتقلت المصانع إلى الأطراف!

- عابرة للقارات!

- ومعها نمط حياة كامل، صاحب العمل أصبح أجيراً وصاحب المِلك أصبح مستأجِراً، الملابس والغذاء، ولا تنس أثر الإعلام، السلوكيات وطريقة التفكير وحتى اللغة!

- والدين! يريدونه ديناً متأمركاً! فقلت:

- صدقت، دين مهادن أو خاضع لأعدائه! إلى متى ستظل بالجنوب؟

- حتى ينتهي المشروع؛ ستة أشهر، لكن قد يمتد لسنة

- وماذا ستفعل مع عمر وأمه.. يشهق فتنزل دمعة ثخينة:

- أنا مطمئن عليهم في مصر، وعندما أعود إلى الرياض سأعيدهم من جديد

- لا تبكِ أرجوك

- فقط تذكرتهم، يمكن أن أطلب نقلي واستقراري في الرياض، لكن سيخفضون راتبي ويحرمونني من بدل التغذية؛ خمسين ريالاً يومياً، وما زلت أرسل المال لإكمال البيت.. يمسح دموعه ويجمع بقايا الطعام ويقول:

- دعك مني، ماذا ستفعل مع أولئك المتجنسين؟

- ما رأيك أنت؟

- اعرض عليهم الاستمرار معهم ولكن دون التوقيع على عقد جديد، وبعد أن تدخل اختبار التصنيف وتحصل على ترخيص أخصائي تعود لعقدك ومرتبك الأصلي

- فكرة هائلة

نشرب الشاي وندخل لننام، يقول لي: لابد أن توقظني إذا جاء حسين. يأتي حسين، لن أوقظه، سأتركه يرتاح، آخذ حقيبتي.. يبتسم مدير المكتب ويقول:

- أظنك تتذكر ما قال الدكتور رامي؛ عقد جديد أو خروج نهائي

- فاعرِض الأمر عليه

- سافَر، فما رأيك؟

- لله الأمر من قبل ومن بعد.. وقَّعتُ ثم ذهبت مع حسين لاستلام (غرفتي)

١٦ ... واجتزت الاختبار

أخرج من المكتب مختنقاً، الساعة التاسعة، ينتظرني حسين ليوصلني إلى الغرفة، أين أنت يا أكرم؟ وكأنه سمع! فجأةً أراه أمامي! يقول بابتسامة اللائم:

- سامحك الله، لِمَ لَم توقظني؟ يشد حقيبتي فأقاوم ثم أستسلم، نمشى خلف حسين إلى السكن، أرد:

- أردت راحتك بعد عناء السفر

- وماذا حدث؟

- رفضوا الفكرة، وقعت العقد الجديد

- توقعت ذلك، هل قابلت رامي؟

- يقولون أنه مسافر.. نظر حسين إليَّ وابتسم، فرفع الفتى صوته:

- اهدأ وسينصرك الله على كل مؤامراتهم، وستثبت وجودك رغم أنف الخبثاء

- الحمد لله على كل حال.. كنا قد وصلنا إلى البناية، طرق حسين الباب ففتح طه:

- أهلاً وسهلاً تفضلوا.. قال حسين:

- تسلَّم الأمانة يا عم طه

- حمداً لله على السلامة

- الله يسلمك، وهذا أخي أكرم.. دخلنا فقال طه:

- شاي؟

- جزاك الله خيراً.. فدخل وأغلق عليه بابه! اندهشت فضحك حسين وقال:

- هو هكذا منذ مجيئه؛ في حاله دائماً. فقال الفتى:

- أحياناً يكون ذلك أفضل.. قال حسين:

- الشقة كما ترون؛ هذه صالة بها مجلس وهذا حمّام صغير، وهذه طرقة، وعلى اليسار مطبخ، صاحبك أستاذ في الطهي، وهذه غرفتك والداخلية غرفة طه وبعدها حمّام داخلي رئيسي، تفضلوا.. فتح الباب

لأطل على عالمي الصغير، سرير فردي ومكتب صغير ودولاب، قال بزهو:
- جهزتها لك بنفسي؛ كلها جديدة.. فقلت:
- أكرمك الله، أين التليفزيون؟
- تحضره على حسابك.. فقال أكرم:
- أقوم بتجهيز مساكن الشباب في المؤسسة؛ لابد من تليفزيون ودِش، كيف يعيش هكذا؟ فرد حسين:
لكل مؤسسة نظامها، فقلت مهدئاً: لعله خير، فقال حسين: أي أوامر أخرى؟.. فرد أكرم:
- هل أحضرتم أدوات المطبخ؛ قدور، أكواب، أطباق، ملاعق، سكاكين، أم تلك أيضاً على حسابه؟ ابتسم حسين محرجاً وقال:
- معذرةً، كان الوقت ضيقاً، سأحضرها غداً! بعد إذنكم.. ومضى، فقال الفتى:
- هيا ننزل للعشاء، لو لم أقل له أن يحضر أدوات المطبخ لما أحضرها، يختلسها من حقك وهو متأكد أنك لن تذهب للكفيل لتسأل عن هذه الأشياء البسيطة
- فعلاً هي بسيطة، لكن لا أظنها غالية، لماذا (يختلسها)؟
- القليل على القليل كثير، تخيل بكم يجهز لكل متعاقد، شيء يسند مع راتبه.
نعود فنركب سيارته، يسألني:
- ماذا سنأكل؟
- أنت الأعلم بالمطاعم والأصناف
- هنا مطعم لبناني يقدم شاورما رائعة.. نذهب فيلفت نظري:
- لاحظ الأناقة والنظافة، هذا ما يميز إخوتنا اللبنانيين؛ عقليتهم التجارية البارعة، ولذلك ينجحون في كل مكان.. نعود إلى السيارة فيقول:
- نرجع نبيت عندي؟
- أفضل أن أبيت في السكن، أحاول التأقلم مع حياتي الجديدة

- فلنشترِ بعض الطعام نضعه في الثلاجة، وقارورة ماء.. نستكشف المحلات القريبة، نحضر خبزاً وبعض أنواع الجبن والبيض والفاكهة، أجلس بجواره فيفتح الخزانة أمامي ويقول:

- كدت أنسى، تفضل

- ما هذا؟ يدير السيارة ويتحرك

- كما ترى؛ جَوّال، هذا زائد عندي لكن حالته ممتازة

- ولم الكلفة، كنت سأشتري واحداً بمجرد استقراري

- كلفة؟ ربنا يسامحك، والله لولا ضيق الوقت لاشتريت لك جهازاً جديداً، سجلت رقمي وأرقام بعض أصدقائي لو احتجت لشيء، غداً سأذهب لإحضار قطع الغيار وأتصل بك .

- بارك الله فيك.. ننزل فيصر أن يحمل قارورة الماء، نصعد ويسلم ثم يمضي تصحبه دعواتي الصادقة.

لم أنم تلك الليلة، أتقلب في الفراش الجديد الذي لم أعتده، أفكر فيما كان وما سيكون، هل كان صواباً أن أسافر من الأساس؟ أطفئ النور فيتسلل بصيص واهن من النافذة، آه من فراقك يا أمي، أين نصائحك يا أبي؟ ما أقسى هذا الألم! أبحر في أمواج الأفكار حتى يؤذِّن للفجر، أتوضأ وأنزل أبحث عن مسجد قريب، أصلي فيقرأ الإمام (وما بكم من نعمةٍ فمن الله ثم إذا مسّكم الضرُّ فإليه تجأرون) وكأني أسمعها لأول مرة، وفيمَ الشكوى والتفكير ولك ربٌّ يقول للشيء كن فيكون؟ أعود وقد استبشرت خيراً؛ الحمد لله؛ كل شيء بقدره ولن يكون إلا بإذنه، أنظر في (المنبه) كل بضع دقائق، أقوم في الثامنة والنصف، أرتدي ملابسي وأضبط ربطة العنق ثم أسير إلى المستوصف، العمل من التاسعة حتى الثانية عشرة ثم راحة لنعود في الرابعة عصراً وحتى العاشرة، يصطحبني البطراوي إلى المختبر حيث فني التحاليل: خليل، أو كما يسميه معارفه من الهنود (خليل باي) أي: الأخ خليل، يتصل أكرم فيقول إنه أحضر قطع الغيار وسيسافر من فوره، يسألني إن كنت أريد شيئاً فأجيبه: نراك على خير، تتضح الأمور شيئاً فشيئاً، روتين يومي واحد يكاد لا يتغير، يهاتفني الفتى بشكل شبه يومي؛ يسألني:

- طمئنّي ما أخبارك؟
- تمام
- والشغل؟
- خفيف، يقوم الفني الذي أصبحت أناديه مداعباً (خليل باي باي) بسحب العينات وعمل التحاليل؛ أُشرف عليه وأوقع النتائج
- والزملاء؟
- كل واحد في حاله، لا مجال أثناء العمل لترك مكاني أو للدردشة معهم
- هذا أفضل، أكيد رامي لا يحب ذلك وتصله الأخبار عن طريق عصافيره يومياً، نظام عمل معروف، فقلت:
- عصافير!
- ههههههه! وأحياناً ميكروفونات للتجسس وكاميرات للمراقبة، فقط خذ حذرك، هل بينكم وبينه احتكاك مباشر؟
- لا، في المرات القليلة التي يأتي فيها للمستوصف يظل يصيح مخاطباً الزملاء: الدخل قليل، أنتم لا تعملون، لماذا لا تكتبون مغذي (محلول الجلوكوز) لماذا لا تطلبون تحاليل وأشعة؟ هنا ليس مكاناً خيرياً
- أغلب المستوصفات هكذا؛ لا يخرج المريض إلا وقد دفع خمسمائة ريال على الأقل، وماذا يفعل الأطباء؟
- يطأطئون رؤوسهم ويقولون: حاضر يا دكتور.. ثم يذهب فلا يتغير شيء
- غريبة
- اكتشفت أن أغلب المرضى يأتون بتوصية خاصة من رامي وأفراد أسرته ولا يدفعون شيئاً! وكل هذا المهرجان لمجرد التغطية على الحقيقة
- وما الحقيقة؟ لا يريد زيادة الدخل؟
- المستوصف مجرد واجهة اجتماعية ووسيلة لقضاء مصالحه مع الشئون الصحية والمسئولين ليخففوا الرقابة ويغضوا طرفهم عن الغش التجاري في مشاريعه الأهم؛ النظارات؛ رشوة مقنعة! يأتي إلينا كل بضعة أشهر يثبت وجوده ثم يرحل ليتفرغ لأعماله التي يجني من ورائها الملايين
- وزملاء السكن، ألا تخرجون؟ والطعام؟

- طه منعزل، وأغلب الزملاء يضيعون أوقاتهم في مشاهدة الأفلام الإباحية على القمر الأوروبي أو يدخنون الشيشة في المقاهي، وأحياناً أذهب مع عبد الوهاب نأكل من المطاعم القريبة معاً

- مكلف جداً، ألا تطبخ؟

- حاولت وفشلت فشلاً ذريعاً

- احكِ لي

- أمي قالت ضع الدجاجة في الماء المغلي ومعها بصلة

- وما المشكلة؟

- نفذت حرفياً، فجاءت الدجاجة مستوية من الخارج لكن بداخلها كتلة من الثلج، بالضبط كحالي، يضحك بشدة:

- كانت مجمدة ولم تتركها لتفُك! لكن كحالك! كيف؟

- أصبح نظام حياتي مملاً مكرراً كأنني متجمد، بينما يكاد حرّ الرياض يشوي جلدي

- ههههه تشبيهاتك رهيبة، ولم تُعِد الكرَّة؟

- وحرّمت طبيخ، أشتري من المطاعم

- وهل تعرفت على أصدقاء جدد؟

- نعم؛ ديدو؛ الشرقاوي الأصيل المسؤول عن مقهى النِّت القريب، وهناك أيضاً تعرفت على أشرف وشريف؛ شخصيات محترمة جداً ستحبهم حين أُعرِّفك عليهم.

لا تخلو الدنيا من سعادات بسيطة تعين على استكمال الحياة، تمر الأشهر؛ تتوطد علاقتي بأصدقائي الجدد، نتقابل عند ديدو في المساء لأبحر في المحيط الشبكي الذي لا قرار له، ثم نتمشى بعد إغلاق المقهى، أشرف من أسيوط ولكنه ذو أصول مغربية! وشريف من شبرا وله أصول تركية! نلعب تنس الطاولة في نادٍ قريب، نركب سيارة شريف ونذهب نتريض في الحدائق المخصصة للشباب وليس للعائلات، اختلاف اللهجة مصدر للنكات والضحكات، نجد محلاً مكتوباً على لافتته (عصيرات للعوائل)! وليس كما نقول (عصائر للعائلات) ونجد محلاً آخر تعلوه لافتة (للتقبيل) أضحك وأسأل: للتقبيل، كيف؟ ألسنا في الرياض الملتزمة؟

يضحكون ويرد شريف- محامٍ- يعني بيع بالجدك يا دكتور، أضحك وأقول: لم أفهم التقبيل فتزيدني عدم فهم بالجدك؟ شكراً نورت المحكمة، الاتجاهات (سِيدا) أي طوّالي، ويقولون حين يصفون مكاناً: اذهب شرقاً ثم جنوباً ثم غرباً! فهم لا يستخدمون ألفاظنا الغريبة: يمين ويسار وأمام وخلف!

تمضي ستة أشهر، أجتاز الاختبار وأحصل على شهادة التصنيف أخصائي مختبرات، أذهب لأُذكِّر رامي بوعده فيزيد مرتبي خمسمائة ريال! وأعرف من الزملاء أنه لا يستأجر سكناً للمتزوجين ولا يؤثثه، يتصل الفتى لتهنئتي؛ يتهلل صوته فرحاً: كنت متأكداً أنك ستجتاز الاختبار بسهولة، ولي عندك خبر أهم، لن أتنازل عن الحلاوة.

- بشِّر

- هيا لتتزوج!

- ماذا؟

- بنت خالك، أقول في دهشة

- طُلقت؟ فيقول:

- نعم، طلع بخيل جلدة وأساء إليها كثيراً ثم أنقذها الله، هيا هذه فرصتك لتفوز بفتاة أحلامك، لا تقل لي ماجستير ولا سفر، حججك كلها انتهت .

- تمهل، ربما هي محتاجة إلى وقت لتتعافى من تجربتها

- خلّص يا شيخ لا تعصبني.. كنت بين سعادة طاغية وإحساس بوجوب الانتظار مراعاةً لشعورها، قلت له:

- قبل سفري رشحوا لي فتاة جميلة وعلى خلق، وصليت استخارة أكثر من مرة

- وبعدها؟

- تعقد الموضوع قبل أن يبدأ ولكني رأيت رؤيا... فقال يستحثني:

- ها؟

- رأيت أنني أتزوج فتاتي، بنت خالي

- نعم؟

- والله، وكانت وقتها قد عُقد قرانها بالفعل
- أكمل يا ولهان
- كتمت الرؤيا ولم أخبر أحداً قبلك
- طيب هيا توكل على الله قبل أن تطير من يديك.. ضحكت وقلت:
- كل شيء بأوان، ولكن لماذا حماسك الشديد؟
- وماذا ننتظر؟ الحمد لله دخلك جيد ومستقر في عملك ويمكنك تجهيز شقة بسهولة وتستقدمها، ولا تنس إنها بنت عم زوجتي وهما صديقتان بل أختان، وكلنا أقارب، هيا!
- إن شاء الله
- أنا نازل أجازة قريباً، أريد حضور فرحك، أتصل بأمي وأخبرها برغبتي في التقدم لابنة أخيها، تستقبل المكالمة بدهشة وفرحة: ومن أخبرك أنها فسخت؟ فأقول: ومن غيره، حبيبك؛ أكرم.

١٧ ... أول عمرة

يتصل والدي بخالي وتوافق العروس، نتفق على شراء شبكة بسيطة ثم أرسل إلى أبي توكيلاً لعقد القران ثم يكون الاستقدام! تتوالى الاتصالات السعيدة مع فتاتي، ثم يأتي رمضان، وما أدراك ما أول رمضان في الغربة! تفتقد كل شيء؛ لمة العائلة، التراويح والأصدقاء والسهر والسحور في الحسين، القرآن المنبعث من أجهزة الراديو في كل مكان، صوت الشيخ محمد رفعت وتواشيح النقشبندي، الزينة وفوانيس الأطفال، والأهم من كل ذلك: أمي، إفطار أول يوم وحدي؛ اكتفيت بتمرتين وقليل من الماء، أبكي وأبكي، يسألني ديدو بعد التراويح حيث يقرأ الإمام من المصحف: مالك؟ فأتهرب: شخص بجواري أفقدني الخشوع؛ ينظر في الجوال، ثم يعبث به، ثم يعدل الغترة فيضربها في وجهي، ثم يطقطق أصابعه ويعود لينظر في الجوّال، فقال: لا يا دكتور، عيناك حزينتان، أكنت تبكي؟ فقلت: أول رمضان في الغربة! يربت على كتفي ويقسم عليَّ أن نفطر معاً بعد ذلك يومياً، بعدها بأيام نخرج مع أشرف وشريف نتريض قبيل المغرب، نرى جمعاً يقفون أمام مطعم يقلي (السمبوسك) الذي لم أعرفه إلا هناك، بعد قليل يأتي رجل معه حزام جلدي عريض يضرب به إحدى الواقفات وهو يصيح: غطي وجهك يا حرمة.. أتعجب؛ ما هذه الإهانة؟ بل ما هذا التخلف؟ نقترب فنعرف أنه من رجال الهيئة وأنها مصرية جاءت حديثاً مع زوجها- الذي فضَّل أن تقف هي في صف النساء الأقل ازدحاماً- وكأن الإفطار لا يجوز دون سمبوسك! ولم يحرك ساكناً خوفاً من الترحيل!

أهاتف الفتى وقد اقتربنا من منتصف الشهر:

- أريد أن أذهب في نهاية رمضان للعمرة.. يتهلل صوته فرحاً ويقول:
- الله أكبر، أول عمرة هذه شيء مختلف تماماً، ربنا يتقبل
- اشرح لي ماذا أفعل؟
- طبعاً، وهناك كتيبات في القرطاسية
- ههههه، القرطاسية!
- المكتبة..

- عارف، لكن متعجب أنك أنت تطلق عليها هذا الاسم
- من عاشر القوم
- المهم، أكمل يا مولانا
- ستجد في الكتيبات تفاصيل كثيرة، اقرأها ونتكلم
- وهل هناك كتاب معين تنصح به؟
- لا، لكني تذكرت؛ هناك كتيب ممتاز في شقتي، المفتاح معك، ستجده في درج المكتب.

وذهبت وقرأت، ثم اتصلت أسأله عن كيفية الدعاء والإحرام، فقال:
- ركز في المناسك وانس أمر الأدعية المخصوصة في كل شوط
- ألا ييسر ذلك الدعاء هناك؟
- أصدق الدعاء ما كان من القلب دون نقل محدد من الكتب بلا روح
- وبمَ أدعو؟
- بما تشاء
- وماذا تفعل أنت؟
- عندي طريقة تضمن الصواب في عد الأشواط وفي نفس الوقت ألا تنسى الدعاء بأهم ما تريد ولأهم من تريد!
- علمني مما علمك الله
- العفو، فقط أنقل لك ما أفعل وقد تجد أنت طريقة أفضل، أقسِّم الدعاء على أشواط الطواف السبعة: الشوط الأول والثاني أدعو لوالديَّ، الثالث والرابع لإخواني وأخواتي ثم أقاربي الأقرب فالأقرب، الخامس والسادس لنفسي وزوجتي وأولادي والسابع لنصر الإسلام وطلب الرحمة لأمواتنا وأموات المسلمين.
- وبين الصفا والمروة؟
- السعي يستغرق وقتاً أطول فتدعو فيه أكثر، وعندما تلبس الإزاروالرداء اتصل بي لأعلمك طريقة تيسر لك الحركة وتضمن ألا يسقطا
- ههههه تبقى فضيحة
- ربنا يسترنا في الدنيا والآخرة

وبالفعل؛ عندما ذهبت طبقت نصائحه؛ نظام أفادني كثيراً وظللت محتفظاً بملامحه الرئيسية كلما اعتمرت! أقول له قبل السفر بيومين:
- أريد زيارة أختي في أجازة عيد الفطر
- من مكة؟
- نعم
- وكيف، مسافة كبيرة
- لم أجد طيراناً، ما رأيك أنت؟
- خذ رقم صديقي عاطف؛ مقيم في جدة ويعمل في مكة، ويحفظها تماماً، تواصل معه، سيقابلك ويساعدك في الركوب إلى هناك أركب (الحافلة) مع (الحملة) نتحرك في التاسعة مساءً، أتعمد أن يكون مقعدي بجوار أحد الإخوة البنغاليين لأتجنب أي لغو وأتفرغ لقراءة القرآن ومراجعة كتيب المناسك، أغفو قليلاً ثم أفيق ثم أغفو، زحام شديد في الميقات حيث نرتدي زي الإحرام؛ قطعتان! إزار ورداء فقط لا ما تعودت عليه طيلة حياتك من ملابس، بعد قليل يصبح الكل متشابهين بملابسهم البيضاء التي تذكرك بالأكفان بينما يذكرك الزحام بيوم الحشر، ملابسك لا تدل على حالتك أو وجاهتك الاجتماعية، تكشف النساء وجوههن فلا يضربهن أحد! لا فرق هنا بين غني وفقير، لا فرق بين جنسية وأخرى، الكل يلهج بالدعاء والتلبية: لبيك اللهم بعمرة عن نفسي، اللهم إن حبسني حابس فمحلي حيث حبستني، لنصل بعد حوالي أربع عشرة ساعة، حرارة، عطش، إرهاق شديد، لكنك تنسى كل تعبك حين تراها؛ الكعبة، وجدت نفسي أهتف: الله أكبر! ما أعظم فضل الله على من زار بيته، رحمات تتنزل وتشعر بأثرها في التو! الناس يدخرون الأموال طيلة حياتهم من أجل لحظة كهذه! نعمة وأي نعمة، اللهم ارزقنا وأحبابنا حجة بعد حجة وعمرة بعد عمرة وتقبل منا، أكشف كتفي الأيمن (الاضطباع) وأحاول الهرولة (الرمل) في أول ثلاثة أشواط، أتذكر بنود (الجدول) وصية أكرم، الوصول إلى الحجر الأسود مستحيل إلا بضرب إخوانك؛ لا داعي للإيذاء، أُنهي أشواط الطواف مع أذان الظهر، أصلي ثم أهبط إلى زمزم؛ كان وقتها بجوار الكعبة في صحن الطواف نهبط إليه

بدَرَج، أحدهم يهتف لا أعي ما يقول فأستمر في طريقي حتى يأتي بنفسه- شرطي- ويمنعني بيديه: يا شيخ، أهتف بك مراراً: هنا مكان الحريم! أعتذر فيتقبل: واضح إنك مرهق يا حاجّ، أنزل إلى ناحية الرجال، أشرب وأشرب! بجواري أخ هندي ينظر إليّ بدهشة ويقول كلاماً لا أفهمه، واستنتجت بعدها أنه كان ينهاني عن الشرب في نهار رمضان! سقاني الله من فضله، أصلي ركعتين خفيفتين أمام مقام إبراهيم، أذهب للسعي بين الصفا والمروة، أجدني في أغلب الأشواط أدعو لهذه الأمة؛ آه لو تجتمع كل تلك الحشود وتتوحد لمصلحة أوطانها، أي إمكانيات تنقصها وأي قوة تقهرها ولديها كل تلك الثروات والعقول والشباب؟! أدعو الله أن يفك أسر المسجد الأقصى ويطهره من دنس المحتلين، أُنهي العمرة مع أذان العصر، أتصل بعاطف أكثر من مرة، لا شبكة هناك! كيف سأصل إليه؟ أسلم أمري إلى الله وأسأل: كيف يذهب المرء إلى خميس مشيط؟ يشيرون: أفضل شيء تذهب وتركب النقل الجماعي، أقف لأبحث عن سيارة لأجد شاباً طويل القامة يقترب مني: أنت ابن خالة أكرم؟ أندهش فأقول: نعم، أنت عاطف؟ فضحك وقال: نعم أنا، هتفت به: غير معقول! وكيف عرفتني وسط كل هذه الجموع؟ فقال: لم تتصل فوقفت هنا ووجدتك تسأل عن مواصلة لخميس مشيط وأنت تشبه أكرم ولك نفس طريقته في الكلام، وقد أخبرني أنك تريد الذهاب إلى هناك!

من زار الحرم في أواخر رمضان أو موسم الحج يوقن أنك لو اتفقت مع أحدهم أن تلقاه عند مكان مميز بالحرم وحددتم موعداً دقيقاً فمن الصعب أن تقابله من شدة الزحام! أما أن تكون الاتصالات منقطعة والزحام شديد فيصل إليك من لا تعرفه ولم تقابله في حياتك فتلك عجيبة، قلت له: والله لو كتبت عن هذه المقابلة في رواية لقال القراء إنني أبالغ! فضحك وقال: هذه كرامة رمضان والحرم، فقلت: والرجل الطيب الذي عرفني بك؛ أكرم! نبتعد عن الزحام فتتحسن شبكة الاتصال؛ نتصل بالفتى ويطمئن أننا التقينا، يصر عاطف أن أذهب معه إلى جدة لتناول طعام الإفطار، أحاول الاعتذار بضيق الوقت فيقول: لن تجد مواصلات الآن، تعال نفطر ثم نبحث على راحتنا! ذهبت معه؛ أفطرنا ثم

أقلني إلى محطة النقل الجماعي بجدة، أقرب موعد بعد يوم كامل! ماذا سنفعل؟ يحاول عاطف معي أن نعود للسكن ونأتي في اليوم التالي؛ العيد! أعتذر وأسأل عن طريقة أخرى، أجد سيارات ملاكي لكنها تُستخدم كأجرة، أركب مع أحدهم ينادي: أبها والخميس! ينتظر حتى يملأ السيارة، السائق هو الوحيد من أهل البلد، أتصِل بأمين لأخبره: ولا تقل لها؛ نريدها مفاجأة! في السيارة الأمريكية الفارهة أجلس خلف السائق؛ أنام ثم أفيق مرّات فأجده يطير؛ تتخطى سرعته المائة وثمانين! الركاب نائمون، أصيح به: يا شيخ، هدئ السرعة، فيضحك: نريد اللحاق بصلاة العيد، اتركها لله يا حاجّ.. يتوقف مجبراً مع كمائن المرور حين يصيح فجأة: هاتوا الإقامات، ثم يبطئ قليلاً مع دخول الطريق المليء بالأنفاق المحفورة في قلب الجبال! العقبة، لافتات متوالية باللغة العربية والإنجليزية: استعمل الغيار الأقل، هدئ السرعة، طريق خطر جداً.. تواجهك السيارات المقابلة فجأة ولا رصيف بينكم ولا جزيرة! ومع ذلك تقترب سرعته من المائة! أهتف مرات:

- انتبه.. أخبط كتفه فأكتشف أنه كاد ينام فأقول:

- هل نمت يا شيخ؟ فقال:

- إي والله جزاك الله خيراً، إرهاق، خلاص اقتربنا.. أفكر؛ لم هذا الجنون؟ هل هذا التافه مؤهل للقيادة؟ أيكون بتهوره السبب في هلاكنا جميعاً؟ أصيح:

- هدي السرعة الله يهديك، يقول:

- السرعة هوايتي

- أن تصل بأمان أهم من أن تصل بسرعة

- كله على الله

- نأخذ بالأسباب ونؤمن بالقدر، أما ما تفعله فهو تهور وليس توكلاً على الله، يرد:

- والله يا شيخ أنا قيادتي هادئة، أخي يقفِّل المؤشر! أقول:

- هذا جنون! ألم تسمع الفتوى التي تقول إنك إذا لا قدر الله ارتكبت

حادثاً بسبب السرعة الزائدة، فستتحمل وزر القتلى والمصابين وكأنك قتلتهم عمداً.. يضحك باستهتار ويقول:

- عندي تأمين!

- تأمين؛ لا يغطي السرعة الجنونية، وماذا عن أرواح الناس؟ وهل سيغني عنك التأمين يوم القيامة؟

أخيراً نصل أبها فينزل ثلاثة ويظل اثنان، ينتظر خارج السيارة يغني في لا مبالاة فأسأله:

- وماذا ننتظر الآن؟

- نحمِّل للخميس

- يا عم نريد الوصول لنستريح

- انتظر قليلاً، لن تطير الدنيا.. يبتسم جاري الباكستاني ويقول وهو يشير بأصابعه كأنه يعد نقوداً: القروش.

نصل بعد الشروق فأجد أمين في انتظاري، بعد الترحيب الحار نركب سيارته لنذهب إلى الشقة، ما أشد فرحتها وفرحتي، ما أسعدني بها، أصبحت الفتاة الصغيرة زوجةً وربة بيت تُجهِّز وليمة لستة رجال بمهارة فائقة، وجهها يذكرني بوجه أمي وطعامها يذكرني بطهي أمي، واحة عشت في ظلالها يومين بعيداً عن صحراء العمل، يتصل أمين ببعض أصدقائه لنحجز طائرة للعودة إلى الرياض، نتحاور حول عمله وأسأله: يضحك: - هل فعلاً لا يعرف سر تركيبة مشروب الكوكاكولا إلا أربعة أفراد في العالم؟

- يقال، ويقال أنه ممنوع أن يجتمع اثنان منهم في قارة واحدة؛ أساطير

- وهل فعلاً يتبرعون بجزء من أرباحهم لدولة الصهاينة؟

- الأكيد أنها المشروب الرسمي لمجلس الوزراء

- ولذلك، هناك دعوة قوية لمقاطعة منتجاتكم

- الموضوع معقد متعدد الجوانب

- كيف؟

- مثلاً هنا يرسلون لنا (المركزات) ومصانعنا تعبئ، وأغلب الربح يذهب للشريك الوطني ونستفيد منه نحن كعاملين، والمقاطعة ذاتها ضعيفة الأثر، وأسألك أنا، هل هناك بدائل حقيقية في الأسواق لمنتجات الشركات العالمية الضخمة التي تتعاطف مع الصهاينة؟

- أكيد

- لا، تقريباً تتحكم بضع شركات عابرة للقارات في كل السوق العالمية؛ أصبح رؤساء الدول الكبرى مجرد مندوبي مبيعات لتسويق منتجات تلك الشركات.

١٨ ... الوحش

يكمل أمين:

- لا أرى جدوى من المقاطعة، والكثير من المنتجات لا بدائل جيدة لها

- أعطني أمثلة وسأعطيك بدائل

- هل هي على نفس الجودة؟

– أي جودة؟ الكولا والبيتزا والجينز؟ كانت المشروبات كعصير الليمون والفاكهة الطازجة والتمر هندي والمأكولات نظيفة وصحية، وحتى الملابس؛ كانت واسعة صحية من الألياف الطبيعية

- ذاك زمان آخر

- ما أقصده أننا ينبغي أن نبحث عن بدائل، وحتى إذا لم نجدها فيمكننا الاستغناء عن الكماليات نصرةً لقضايا الحق ونكايةً في عدو يريد إذلالنا

- تؤذن في مالطة، أثر المقاطعة ضعيف جداً

- نعمل ما علينا

- أغلب المصانع تعمل في دول مختلفة، ويستفيد من ورائها ملايين من العاملين البسطاء لا علاقة لهم بالسياسة، لا يدعمون إسرائيل ولا يكرهون المسلمين أو فلسطين

- أعطني أمثلة

- السيارات مثلاً؛ الشركات العالمية يُصنِّعون (الدريكسيون) في بلد والصَّدَّام في ثانٍ والشاسيه في ثالث والمحرك في رابع والإطارات في خامس ثم التجميع في آخر وهكذا، ونفس الكلام ينطبق على أجهزة الكومبيوتر وغيرها، لم تعد كلمة صُنع في بلد كذا تعني الكثير؛ ألماني، ياباني، أمريكي... كلها الآن مالتي ناشيونال، بزنس يا مولانا! الضرر من المقاطعة- لو حدث- سيؤثر على كثير من الأبرياء لا ذنب لهم، وضحك وأكمل: ثم أختك المسكينة هذه؛ من أين ستأكل إذا نجحت المقاطعة؟

يتصل أكرم يطمئن على أخبارنا، أعطي الهاتف لأمين فيدور بينهما حوار ضاحك، يقول أكرم:

- وماذا أفطرتم؟

- الفتة طبعاً، بالخل والثوم والهُبَر

- لكن هذا عيد الكَحك
- والفتة أيضاً يا صديقي، الفتة عندنا هي إفطار العيدين
- لا تضحك عليَّ، أين نصيبي من الكحك؟
- الكحك والبسكويت كله موجود وحقك محفوظ، تعال فقط
- والله شغال كل أيام العيد؛ دعواتكم.. كانت العلاقة بينهما رائعة، تآلفا بسرعة وزارهم عدة مرات، يعطيني أمين التليفون: يريدك.. فيقول الفتى:
- سأنتقل إلى الرياض قريباً
- رائع، لكن هل سيؤثر على دخلك؟
- قليلاً
- وستنزل إجازتك؟
- لن أستطيع، سأحضر أهلي.

ومضى عيد من أجمل أيام العمر، لا تسل عن سعادة أمي حين اتصلنا بها وفوجِئَت أنني مع أختي وزوجها، تنقضي الأيام الجميلة سريعاً، يهدونني جهاز تلفاز: خذه معك إلى الرياض، فقلت: لا داعي، سيعطلني عن محاولاتي لحفظ القرآن، فأصروا: بل سيسليك ويمكنك إغلاقه؛ له زر! لكن الأمر لم يكن بتلك البساطة، أعود وتتغير الحياة؛ كانت تلك مرحلة (ما بعد الجزيرة) ببرامجها التي فتحت أعيننا على عالم آخر؛ مختلف تماماً عن عقود عشناها تحت تأثير إعلام الرأي الواحد الموالي- أو التابع- لأنظمة القهر، وجدنا أخيراً شيئاً من النقاش: الرأي والرأي الآخر، وظهر نجوم جدد: منصور وفودة وخديجة وأسعد!

يعود أكرم ليستقر في الرياض وتأتي زوجه وولده، تصبح الغربة أيسر كثيراً بوجود أحبائك، إحساس بالأمان؛ يكفي أن الفتى قريب مني إذا احتجته وجدته بجواري، أحلم باليوم الذي يجمعني بحبيبتي ونصبح جميعاً عائلة كبيرة! تمضي أسابيع على وتيرة متقاربة؛ ننهي الفترة الصباحية مع صلاة الظهر، نصلي في مسجد قريب ثم نذهب إلى المطعم اليمني لتناول الغداء، نعود إلى السكن للنوم، أما بعد الفترة المسائية فأذهب للعشاء في أحد المطاعم، كرهت ماكدونالدز من أول مرة؛ دعاية ضخمة وطعم سيئ! وينطبق الأمر على كنتاكي- وإن كان أفضل- وبيتزا

هَت، أعود أغلب الليالي إلى مقهى الإنترنت أُبحر في محيطه حتى ينهي ديدو عمله، نتمشى وقد ينضم إلينا شريف الذي يتقدم في عمله بشكل رائع حتى يصبح المستشار القانوني لمجموعة من أشهر الشركات، وأشرف المتمرد القلق الذي لا يستقر في عمل ويبحث عن فرصة للهجرة، وهكذا حتى نهاية عمل الخميس، أشتري الموز- الذي يحبه الفتى رغم أنه يصيبه بالحساسية- وأذهب إليهم، نتعشى من يد زوجته الماهرة ونحكي، نشاهد المسرحية الضاحكة، بعد قليل وبفعل إرهاقه الشديد يتثاءب ثم يدخل لينام، أسهر وحدي حتى الفجر، أشاهد إعادة (بلا حدود) يستيقظ فننزل معاً لصلاة الفجر، ننام ونصحو نتجهز للجمعة، نصلي ونحضر السمك والجمبري من أبو محمد، في إحدى تلك الجُمعات أجد عزومة، لا أسماك هناك بل أصناف من اللحوم والدجاج والمحاشي! ويأتي أبو محمد ورضا الفرّان الذي يعمل في المخبز القريب ويصنع الخبز المصري الأسمر بالرَّدة، أُخفي ضيقي بوجودهم يتغدون معنا! الفتى متواضع يتعامل بحب مع الجميع، أما أنا فأسأل نفسي: وكيف يأكل الدكتور مع الفرّان؟! يتحدثون ولا أتدخل، أفهم أن أبو محمد جاء بتأشيرة عمرة منذ عشرين عاماً ولم ير أهله من وقتها، وأقام أكرم تلك المأدُبة لتوديعه فسيعود إلى مصر خلال أيام! واستمر الفتى على عادته؛ يستضيف البسطاء كل بضعة أسابيع، وماذا يستفيد؟ الدعاء المخلص منهم، وما أدراك ما دعوات المساكين في الغربة!

يخبرني طه أنه سينزل أجازة ليتزوج ويفاجئني بصور خطوبته؛ العروس غير محجبة! كيف؟ إنسان في غاية الالتزام؛ لا يترك صلاة في المسجد؛ تضبط ساعتك على مواعيده، لا يتكلم إلا بحساب، كدت أسأله، لكني فضلت الصمت، هو منعزل ولسنا أصدقاء بالمعنى المفهوم؛ قُل زملاء أو جيران، ربما كشفت عروسه شعرها تلك الليلة كعادة بعض الأسر، ثم ومالي أنا؟

أيام ويأتي طبيب جديد يأخذ غرفته! اسمه (الوحش) لم أعرف فضل طه إلا بعد قدومه! لا تعرف له جنسية ولا ديانة فهو لا يصلي معنا! حتى المحاسب وإدارة المستوصف لا يعرفون عنه شيئاً- أو يدَّعون ذلك!

شخصية غامضة، أحياناً يتحدث باللهجة المصرية وأحياناً باللهجة الشامية، من هو ومن أين جاء!؟
يكاد عامي الأول ينقضي، أذهب لأتفاوض مع الإدارة، يتهرب رامي، أطلب موعداً فيردون: مشغول؛ أُكتب ما تريد وسيرد عليك.. طلباتي معروفة: تنفيذ عقدي الذي جئت به، تعيدون مرتبي إلى أصله وتسلموني السكن العائلي المؤثث المنصوص عليه لأنني سأستقدم زوجتي.. وكان الرد: لا زيادة في الراتب، يمكنك استقدام أسرتك، أما السكن وتأثيثه فعلى حسابك الخاص.. غُصة، إحساس مرير بالظلم، وهل طلبت غير حقي؟ أثبتُّ وجودي وحصلت على ترخيصي وأديت عملي، لماذا يظنونها مهارة أن تحرم إنساناً من حقوقه؟ لماذا يظنون أنني سأذعن؟ لماذا تُتعِب من يعمل معك بإخلاص بينما يمكنك أن تريحه؟ لماذا تُغضبه فيدعو عليك بينما يمكنك أن تسعده فيدعو لك؟ دعاء أسير مغترب لا يملك من أمر نفسه شيئاً!
خلال أسبوع انقلبت الشقة التي كانت مضرب المثل في الهدوء والنظافة فصارت مزبلة! يأخذ الوحش طعامي من الثلاجة، وحتى الماء أشتريه وأحمل (القارورة) التي تزن حوالي عشرين كيلو جراماً أو أجعل أحد العمال يحملها ويصعد بها نظير أجرة إضافية ثم أعبئ الزجاجات ويأتي في أي وقت ليسرقها من الثلاجة بل ويخبئها في غرفته! يدخن بشراهة ويرمي بالبقايا في الصالة التي أحضروا له فيها جهاز تلفاز ضخم، أحكي لزملائي فيتأففون من تصرفاته الغريبة: كان الله في عونك! ينهي أكرم عمله ليلةً فيأتي للمستوصف ليصطحبني نتعشى معاً في حديقة؛ نصعد إلى السكن لأغير ملابسي وينتظرني في الصالة، أسمع أصواتاً عالية؛ سرعان ما تتحول إلى مشاجرة، أخرج لأفهم ما يحدث، يسرع الوحش إلى غرفته ويقول أكرم: احذر منه، يجمع القذارة مع الشراسة! نذهب ونظل نتحاور ليفاجئني بقوله المتحمس: هل تذكر مسلسل جذور؟ فضحكت وقلت: كونتا كينتي! فقال: بحث خالك طويلاً عن أصل عائلته (المكاوي) فقلت: أعرف، ولكن هل توصل لشيء؟ فقال: كان المكاوي الكبير تاجر تمور في مكة وسكنت عائلته جدة مدة من الزمن، ثم هاجر مع أسرته وقت القحط والجفاف إلى مصر حيث النيل والخصب، وحفيده صار والد

أمهاتنا؛ جدنا المكاوي، ابتسمتُ: كانت هذه البلاد أمة واحدة قبل أن يأتي الاستعمار ليمزقها، فقال: أفكر في أمر آخر، نحن أحق بالتجنيس من كفيلك؟ تعجبت: ماذا تقصد؟ فقال: جدي لوالدي أيضاً أتى من الحجاز، فقلت: ولكن جدي فلاح مصري أصيل، ضحك وقال: أريد أن أثبت أصلي بالوثائق أو بالتحاليل، فقلت مندهشاً: أي تحاليل؟ قال: سمعت عن تحليل حديث يثبت نسب كل إنسان، فقلت: نعم، الدي إن إيه؛ لكنه يثبت نسبة الابن إلى أبيه وأمه لا جنسيته، فقال: وسمعت عن فحص آخر يثبت أصل الجنسية كذلك! ضحكت وقلت: وماذا تستفيد من ذلك؟ فقال بسخرية في كلمات متلاحقة: نحصل على الجنسية، نصبح نحن الكفلاء، نستقدم أقاربنا ونشغلهم في مشاريعنا.. قلت: هاجر أم إسماعيل عليه السلام مصرية وإسماعيل أبو العرب؛ فالعرب نصف مصريين! فقال ضاحكاً: صحيح، لكن ألا توجد طريقة لإثبات أننا نستحق الجنسية؟ فقلت: ليس عن طريق التحاليل، فقال: لا أريد جنسية أخرى، أحب مصر بجنون، لكن الأمور تزداد سوءاً يوماً بعد يوم.. فقلت: أعرف أنك تمزح، لكن الأمر جدير بالتفكير؛ كنا أمة واحدة، وبين عشية وضحاها قطعوا أوصالها؛ المصريون في سيناء لهم أقارب في غزة، فقال: رفح مصرية وفلسطينية! فقلت: والمصريون في الجنوب أقرب إلى إخوتنا السودانيين، فقال: كالبشارية! وقلت: وفي مطروح وسيوة لهم أواصر قوية مع ليبيا، فهتف: كأولاد علي، قلت: وعلى عكس جدك فستجد في ينبع وجدة كثيراً من العائلات من أصل مصري! فقال: صحيح؛ في الحقيقة كلنا إخوة؛ ليست شعارات وإنما واقع حقيقي.

ظللنا في الحديقة إلى منتصف الليل، يعرض عليَّ المبيت عنده فأعتذر لأنه يذهب إلى عمله مع الفجر، يوصلني وألحّ عليه أن يخبرني بما حدث فيبتسم: كان يشاهد فيلماً قذراً! اصبر والله الحافظ.. أصعد إلى الشقة فأجد الوحش يتمشى في السكن عارياً كما ولدته أمه! يسرع مرتبكاً إلى غرفته وألمح بالداخل ظلاً! أطرق الباب: افتح، من عندك؟ فلا يرد، أتقلب في أرقي طوال الليل، في اليوم التالي يضحك البطراوي من شكواي فأقول:

- زاد الأمر عن حده، فإما أنا أو ذاك ال(وحش)
- خبرتك قليلة في الحياة، لن تصلح الكون يا شيخنا.. فقلت في عصبية:
- لن أدخل في جدال، أنا أو هو
- لابد أن تتقبل الآخرين
- لست مجبراً على تقبل القمامة، أقول لك كان عارياً وعنده أحد في غرفته
- وأين كنت؟
- كنت مع أكرم
- اهدأ فقط، هل المشكلة أن يبقى معك في السكن؟
- بل لن أعمل معه في مكان واحد، وليكن ما يكون
- سأعرض الأمر عليهم، هو صديق لابن عم رامي
- صديق ابن عمه! ومالي أنا؟ ربما هو من كان ينتظره في الغرفة... في اليوم التالي يدخل الوحش الشقة ضاحكاً ويواجهني بوقاحة: إما أن تسكت أو ترحل
قلت في نفسي: فلأرحل، أحكي لأكرم فيقول: ..
- هل رامي هو من قال ذلك؟
- بل الوحش
- الكلب
- لن أتحمل هذا الوضع
- اصبر
- ولماذا؟
- يا مولانا أخيراً حصلنا على عقد
- بل سأرحل
- اصبر
- والله ما أقدر، الزبالة فاقت الحدود
تسوء حالتي النفسية فتحدث مشاكل في مكالماتي مع خطيبتي، يتم عقد القران بالتوكيل الذي أرسلته إلى أبي، يمر الوقت ثقيلاً ولا يتغير شيء، أصرخ في وجه البطراوي بعصبية وفجأةً أسقطُ مغشياً عليَّ، أفيق في

غرفة بمستشفى لأعرف: غيبوبة ارتفاع في السكر! يزورني البطراوي فأطالب بالرحيل، يهدئني فأُصِرّ فيقوم: اهتم بصحتك وربنا يعمل ما فيه الخير.. يأتي أكرم:

- تعال نفكر قليلاً، هل ما تفعله صواب؟ لماذا الإصرار على الرحيل؟
- لن أستمر في هذا المكان
- وهل ستعود لنفس الدوامة؛ مرتب وزارة الصحة والجري وراء المستوصفات، تزوجتَ وسرعان ما ستصبح أباً
- سأبحث عن عقد جديد
- وهل الحصول على عقد عمل سهل هكذا؟
- حتى الآن تتصل مكاتب السفريات بالبيت يبحثون عني وبراتب أعلى ومميزات أكبر
- وهل سيقبل كفيلك؟
- الله المستعان.

١٩... رحيل

لا يمكن السيطرة على مستوى السكر إلا بجرعات عالية من الإنسولين!
أرقد في المستشفى واهناً، يحضر الفتى طعامي من بيته يومياً ويظل معي حتى قرب منتصف الليل، يأتي أصدقائي لزيارتي؛ يحملون الورود وأصنافاً من الحلوى والعصائر، يقول شريف:
- هيا يا مولانا قم وطمنّا عليك.. أبتسم فيقول ديدو:
- اتركه يستريح، وسيعود أفضل بإذن الله.. فيقول أشرف:
- بارك لي، أخيراً حصلت على الجرين كارد، سأسافر إلى أمريكا.. أقول:
- مبروك، تحققت أمنيتك
- كنت أريد الحصول على جنسية محترمة، العرب متخلفون، لا حرية ولا أخلاق.. نظرت إلى أكرم فقال:
- تكلمنا قديماً عن الهجرة إلى استراليا، لكننا خفنا من نشأة أولادنا في بلاد غريبة عن ديننا وعاداتنا.. فقال أشرف:
- وهل تضمن أن يتمتعوا بالأخلاق الفاضلة حين ينشؤون في بلادنا؟ رشوة وفساد وقهر.. فقلت:
- ستذهب إلى هناك وتخبرنا، وربما لحقنا بك.. يضحك:
- ولا أعرفكم، سأصير أمريكياً
ويأتي زملائي، نتحاور فيقول عبد الوهاب:
- وما الذي أغضبك لهذه الدرجة؟ أعصابك وصحتك أهم؛ يعمل معك في نفس المكان، أخلاقه سيئة؟ فليكن، صباح الخير يا جاري، أنت في حالك وأنا في حالي
- لا أستطيع، لا أتخيل أن أعيش أو أعمل في مكان واحد وأتعايش مع تلك القاذورات
- ولكنها موجودة على كل حال
- فلأبتعد أنا

- لن تجد مكاناً خالياً من القاذورات، أنت تبالغ، سأطلب من البطراوي أن يكلمهم وينقلوا الوحش من السكن، وأظن ذلك كافياً كترضية لك، وتعود إلى العمل حتى يأذن الله؛ تجهز سكناً وتحضر عروسك
- كلا، أنا أو هو
- صدقني؛ لم يقصد مضايقتك، ظن أنك ستبيت عند أكرم فأخذ راحته في السكن، تربى ونشأ في مجتمع آخر وبطريقة مختلفة، ماذا تفعل لو سافرت إلى أوروبا مثلاً بكل ما فيها من زنا وخمور وشذوذ وخنازير؟ الدنيا تغيرت
- هذا أمر مختلف، وأين نشأ بسلامته؟
- في اللاذقية
- دعك منه، ما أخبار المستوصف؟
- تعرف عاصم مندوب شركة الأدوية؟
- ماله؟
- خطب روز
- طبيبة الأسنان الفليبينية؟
- نعم هي
- غريبة
- بل كما قلت لك: الدنيا تغيرت، ذابت الحواجز، تخيل أنه سافر وخطبها من أهلها في أجازتها السنوية؟
- سافر الفلبين؟ ربنا يبارك لهم، فقط أتعجب من اختلاف اللغة والعادات والدين
أصبحنا في عالم جديد، عولمة يا غالي.. كانت أول مرة أسمع الكلمة، تعجبت وقال أكرم : -
- عولمة؟
- دنيا جديدة، العالم أصبح قرية صغيرة؛ الكل يتعايش مع الجميع.. فقلت:
- قنوات فضائية وموبايلات وإنترنت
- واتفاقية الجات والتجارة الحرة، كله على كله ومشي حالك

تستقر حالتي قليلاً، أخرج من المستشفى، يصر الفتى أن نذهب إلى شقته:
- وستظل معنا إلى أن تتعافى تماماً.. أحاول معه:
- بل نقضي غداً الجمعة معاً، وتعيدني إلى السكن مساءً
- وكيف ستعود وذاك الوحش هناك؟
- لابد من المواجهة
- مواجهة؟ الأمر أبسط...
- لابد أن أذهب، كيف سأبقى مع زوجتك وتذهب أنت إلى عملك؟
- ههههههه، ماذا بك يا مولانا، أثق بك وبزوجتي
- الحمو الموت
- ألا يعجبك هذا الأسد؟ ألا يملأ عينك؟ وأشار إلى ابنه عمر الذي لم يكمل عامه الثاني
- بل فيه الخير والبركة، لكن سامحني لا أستطيع
- أنت صحبة آمنة
- معذرةً، لا أجد ضرورة لذلك، سكني موجود وسأكون في غاية الإحراج
- إحراج! إنها أختك، خلاص، سأرسلها إلى زوجة سعيد في الشقة السفلى؛ تقضي معها الوقت حتى أعود من عملي
- وسعيد؟
- يعود بعدي بساعات، لا تقلق
- ولمَ كل ذلك؟
- ما زال السُّكر غير مستقر، لو تركتك تذهب إلى السكن فمن سيرعاك؟ لو كان الوحش هناك فربما يستفزك وتصاب بإغماءة جديدة، ولو تركك وحيداً فربما تعرضت لغيبوبة، فكيف سأطمئن عليك؟
- ومن سيطمئن عليّ إذا كانت زوجتك في شقة سعيد وأنت في عملك؟ لا تقلق، سأتصل بك إذا حدث شيء
- ستتصل بي وأنت في الغيبوبة؟
- دعني على راحتي، لا أريد تعبك، لن يحدث مكروه بإذن الله
- تعبي؟! لا تقل ذلك

- ربنا ييسر وتنتهي كل هذه المعاناة وأرحل
- انتظر قليلاً ربما يصل البطراوي إلى حل
- أنتظر! وهل أستطيع شيئاً آخر؟
- لماذا كل هذا اليأس في نبرات صوتك؟ ستتحسن الأحوال بإذن الله
- يا رب
يتركني أفكر فيه؛ يكره أن تكشف زوجه وجهها، ومع ذلك يرجوني أن أقيم عنده خشيةً على صحتي، ما أروعك يا فتى.
أروح في نوم عميق فيوقظني:
- أما زلت متعباً أم ستنزل معي نصلي الجمعة؟
- سأذهب معك.. في طريق عودتنا أتصل بالبطراوي فلا يرد، يتصل به أكرم فلا يرد، أقول:
- يتهرب مني، فلنكلمه من هاتف لا يعرفه
- من الكابينة.. يتصل أكرم فيرد:
- من معي؟
- أنا أكرم
- أهلاً، ما أخبار قريبك؟
- ينتظر ردك، هل وصلت معهم لشيء
- أنا مجرد موظف عندهم، وأخوك مُصِرّ ولا يريد الوصول إلى حل
- اعرض الأمر عليهم
- أي أمر؟
- الخروج النهائي
- الرجل متعاقد ويتقاضى راتبه بانتظام، فكيف يترك عمله لأسباب تافهة؟ فقال أكرم: يكفي أنه لم يعد يريد الاستمرار!
- سأحاول، أي أوامر أخرى؟
- لا نعطيك أوامر يا دكتور، ونعتذر لإزعاجك، لكنهم أتعبوه لدرجة المرض كما رأيت بنفسك
- هو الذي يتعب نفسه، لن يجد مكاناً خالياً من العيوب والمشاكل، حاول أنت معه، نحن مستعدون أن يرحل الوحش من السكن وننسى ما أثاره

أخوك من مشكلات، الموضوع أثر على سمعة أصحاب المكان ودخلنا في عناد، هم غاضبون جداً وهو لن يلوي ذراعهم!

- حاولت معه، لن يرضى بأقل من الرحيل، سأنتظر ردك

- اسمع؛ سألتهم فقالوا: إذا أصر على الرحيل فليتنازل عن حقوقه، أنا شخصياً لا أريد ذلك لمصلحته.. ابتسمتُ وأومأت له بالموافقة، فرد عليه أكرم:

- توكل على الله

- هل أنت متأكد؟

- لا نتوقع منهم خيراً، نهبوا حقوقه من أول يوم

- سأخبرهم وأبلغك بردهم

- شكراً

استبشرت خيراً ولكن الفتى نظر إليّ عابساً وأعاد عليّ سؤاله من جديد:

- هل أنت مقتنع أن ما تفعله صواب؟

- جداً، صليت استخارة عدة مرات، وصدري منشرح للرحيل! فقال:

- ربنا يوفقك

نعود إلى البيت فنتغدى وأنام، يوقظني لألحق بصلاة المغرب، ويقول في سعادة:

- كلمت الشغل وأخذت أجازة وسأبقى معك هنا

- أجازة؟ بالخصم؟

- بل من أجازتي السنوية، عندي رصيد كبير

- ولماذا تأخذ من رصيدك؟

- لأكون بجوارك، وأم عمر مبسوطة وتشكرك جداً لأني سأبقى في البيت أياماً.. أبتسمُ وأقول بطريقة مسرحية:

- أنا السبب، أنا السبب.. في اليوم التالي يتصل البطراوي به:

- وافقوا، وأكرر، لن يأخذ مكافأة، وآخر يوم عمل محسوب هو قبل أن يدخل المستشفى

- لا إله إلا الله، أجازة مرضية والصحيح أن يحصل عليها مدفوعة الراتب

- والله هذا كلامهم، وطبعاً نزوله على حسابه

- أيضاً؟! حرام
- هو الذي اختار
- اختار أن يرحل، لا أن يُسرق
- صدقني يستطيعون أن يفعلوا معه أسوأ من ذلك بكثير، حاولت معهم وهذا أفضل ما استطعت، وأهم حاجة صحته
- ومتى سيتم التنفيذ؟
- يحضر إلى المستوصف غداً وسأذهب معه إلى الإدارة.. لم نجد إلا المحاسب الذي قال إن أوامر رامي أن نبلغه بموعد الحجز وسيخرجون التأشيرة ويسلموني جواز سفري في المطار، نخرج فيقول البطراوي:
- كما قلت لكم، لن يدفعوا تذكرة العودة، أقترح أن تعود برّياً، لا داعي للسفر بالطائرة.. فقلت:
- بل بالطائرة إن شاء الله.. ابتسم الفتى وقال:
- عندك حق.. فمط البطراوي شفتيه متعجباً وقال:
يعني مصاريف زيادة! براحتكم –
نحجز تذكرة بعد يومين، نتصل بالمحاسب ليبلغ المُعقِّب.
نذهب إلى السكن، يأتي ديدو وشريف وأشرف ليعدوا معي حقائبي، يخبرهم أكرم بخصومات حقوقي فيقول شريف:
لو شكوتهم في مكتب العمل لأخذت حقك.. فابتسمت وقلت:
- متى؟
- تأخذ الأمور وقتاً، لكن.... فقلت:
- وتحترق أعصابي شهوراً دون عمل وبلا راتب، خسارة قريبة أفضل من مكسب بعيد... نذهب إلى مكتب المحاسب لأوقع أوراقاً كثيرة تثبت أنني حصلت على كامل حقوقي ولا يحق لي المطالبة بها فيما بعد ورفض أن يسلمني شهادة الخبرة، فقال شريف:
ولكنها من حقه، فابتسم:
- سياسة المؤسسة لا تسمح بذلك
نصل إلى المطار وأودعهم فيقول أشرف:
- دعواتك أن نلتقي من جديد.. فقلت:
- يا رب.. نظرت إلى الفتى فوجدته يبكي فبكيت، شدَّ على يديَّ واحتضنني:
- لا تتأخر، سلامي للجميع.

٢٠ ... فبركة!

كان سفري مفاجئاً؛ عرف أهلي قبله بيومين فقط، قصصت عليهم تفاصيل ما جرى وبعد فترة راحة قصيرة اتصلت ببعض مكاتب السفريات، بكل هذه السرعة! ربما لأثبت لنفسي قبل الناس أنني لم أتأثر بتجربتي الأولى، وربما لطبيعة اندفاعي، ثم ذهبت حيث فتاتي والزفاف؛ حفل جميل بنادٍ على نيل المنصورة الساحر، قاعتان منفصلتان وموسيقى هادئة، تمضي ليالي العسل الأولى هنيئةً، نعود إلى القاهرة؛ نقيم مع والديّ حتى التعاقد الجديد، لم أجد عقوداً في دولة أخرى، حدث كل شيء بسرعة، وأرسل إليَّ الفتى رسالة مليئة بالتفاؤل بدأها بالآيات (ألا إن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.. الذين آمنوا وكانوا يتقون.. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) إلى الدمام، بعد أقل من شهر من الزواج! والاتفاق أن أستقدم عائلتي بعد استخراج الإقامة، عقد بشروط أفضل وراتب أعلى، شقة رائعة بأثاث جديد، أتعرف بزملاء جدد، لكن قلبي منقبض، يأتي أكرم بعد أسبوعين من المعاناة، أسأله:

- ولم أتعبت نفسك؟

- الدمام قريبة؛ أربع ساعات بالسيارة، والله منعتني ظروف قهرية من الحضور قبل أسبوع

- إذن تبيت معي الليلة ونقضي غداً الجمعة معاً

- صوتك أقلقني، ماذا بك يا عريس؟ أراك في حالٍ عجيبة؛ إرهاق واضح ودمامل منتشرة في وجهك، ماذا حدث؟

- مشاكل

- هكذا من البداية؟ احكِ لي

- السكر عال باستمرار، ابتعاد مبكر عن عروسي، عشر ساعات عمل على فترتين

- والعمل؟

- المستوصف جديد والحالات قليلة، لكني مرهق باستمرار، استشاري القلب فلسطيني؛ لا أدري لماذا يتعمد استفزازي
- أهو ماهر في عمله؟
- معه دكتوراه من ألمانيا لكن مستواه متواضع
- وكفيلك مقتنع به
- جداً، وكذلك المرضى
- ربما شهادته مضروبة، لهم طريقة عجيبة يقنعون بها الناس هنا، هل تناقشت معه في مسألة علمية؟
- واقتنع زملائي الأطباء برأيي، لكن الإدارة انتصرت لوجهة نظره
- اهتم بصحتك وربك يسترها
- الله المستعان، دعواتك.. تمر أيام وتحدث مشكلة جديدة، يطلب الأخ الفلسطيني عمل تحاليل لمريض ولكن كيماويات الفحص غير متوفرة عندي، يستغل الفرصة ليهيج الأمور فيصيح أمام صاحب العمل:
- كيف لا توجد المحاليل عندك وهذا المرض منتشر في المنطقة جداً، ماذا ستفعل الآن والمريض يحتاج للتحليل فوراً؟
- المرض نادر لم أر إلا حالات معدودة منه سواءً في مصر أو حتى في الرياض.. يتدخل الكفيل:
- ولكن أنيميا الخلايا المنجليّة منتشرة هنا يا دكتور.. يصيح الرجل من جديد:
- وماذا سنفعل؟ أقنعت الرجل بضرورة عمل التحليل لابنه الآن، تضيع علينا مريضاً ونحن في بداية العمل في أشد الحاجة إلى كل حالة؟
ثم نظر إلى صاحب العمل وقال:
- أنا مضطر أن أرسله إلى مكان آخر.. فقلت
- انتظر فقط للغد، سأتصل بشركة الكيماويات وأطلب لوازم التحليل.. فقال الكفيل:
- المرة القادمة يا دكتور، كان عليك أن تتعرف على الأمراض الشائعة في المنطقة التي تتعاقد للعمل فيها قبل مجيئك! للأسف كان على حق، وكنت مخطئاً، فترة عجيبة من حياتي، أتخبط بين تصرفات خاطئة وعصبية

زائدة وردود متشنجة، الكفيل يمتلك مستوصفاً آخر قديماً ذا سمعة طيبة، يطلب مني الجلوس مع طبيب التحاليل المصري هناك لأتعرف على ما يحتاجه العمل كي لا يتكرر ما حدث، في إحدى الليالي يأتي الكفيل ليسحبوا منه عينة، يقول لي الزميل:

- عنده مشكلة مزمنة، دمه ثقيل، الهيموجلوبين عنده زيادة
- (بولي سايثيميا)؟
- بالضبط.. تحضر الممرضة العينة، يُقلِّبها فيقول:
- لا إله إلا الله، تجلّطت عينته
- لا يمكن قياس الهيموجلوبين بها الآن
- ماذا تفعل لو كنت مكاني؟ فقلت ببساطة:
- نطلب منه عينة جديدة... لطم وجهه:
- بوخزة إبرة جديدة؟
- لا حل آخر
- أنت لا تعرفه، الوخز يؤلمه بشدة، وهو عصبي جداً، ربما سيطرد الممرضة ويستخرج لها تأشيرة خروج نهائي بسبب تلك الغلطة التافهة.. قلت متعجباً:
- لهذه الدرجة؟
- وأكثر، ربما طردني أنا أيضاً
- إذن، ماذا ستفعل؟
- ولا حاجة، سأفبرك النتيجة، أعرف كيف تكون نتيجته في أغلب الحالات.. وقعت كلماته عليّ كالصاعقة، لم أكن أتخيل أن طبيباً يمكنه أن يفكر بهذه الطريقة فضلاً عن أن يقوم بذلك؛ يفبرك!
- حرام
- والحلال أن تروح هذه الممرضة المسكينة في داهية؟
- وإذا اكتشف الأمر؟
- وكيف سيكتشف؟ فعلت ذلك معه مراراً ولم يحدث شيء! إلا إذا كنت أنت ستبلغه
- يا دكتور هداك الله، اطلب منه عينة جديدة

وبالطبع لم يطلب شيئاً وقام بتأليف النتيجة! وبعد عدة أيام جاء الكفيل وطلب إجراء التحليل نفسه عندي، أجريت الفحص وسلمته النتيجة ونسيت الأمر، وبعد مشاكل ومعارك يومية مع صديقي الفلسطيني جاء المالك ليستدعيني إلى مكتبه فيقول:

- اذهب إلى المحاسبين لينهوا إجراءات خروجك النهائي.. أخذتني المفاجأة فقلت:

- هكذا دون إبداء أسباب

- الأسباب كثيرة، ولكن النتيجة واحدة، الرحيل

- فامنحني نقل كفالة

- نقل الكفالة عندي حرام.. هتفت:

- وليس ظلمك لي حراماً؟

- لا ترفع صوتك، لم أظلم أحداً، أنت (راعي مشاكل) نتيجة التحليل التي أجريتَها اختلفت عن نتيجة المعمل القديم، وعندما سألت الدكتور هناك قال إنك ربما أجريت الفحص بطريقة خاطئة، أو فبركت النتيجة! هتفتُ بعصبية:

- أنا؟ بل هو الذي فبرك نتيجتك الأولى

- وهل أصدقك وأكذب الرجل الذي عمل معي خمسة عشر عاماً! وماذا عن مشاكلك التي لا تنتهي مع زملائك؟

- طبيب القلب ليس كل زملائي، وحضرتك ممكن تعيد التحليل في مختبر ثالث محايد وستعرف من الذي يفبرك النتائج!

- كفى، لا أريد إيذاءك، انتهى الأمر، قمت مذهولاً .. ماذا فعلت، بل ماذا سأفعل.. هاتفت الفتى بصوت مختنق فقال:

- إنهاء تعاقد؟

- نعم

- توقعت ذلك، حالتك غير طبيعية منذ وصولك، لا أدري ما أقول

- الحمد لله على كل حال

- طلبت نقل كفالة؟

- قالوا حرام

- لا حول ولا قوة إلا بالله، وماذا ستفعل؟
- سأرحل! وأبحث عن عقد جديد
- لا تتعجل أرجوك، تحتاج إلى راحة بعد تلك الفترة العصيبة
- أصبحتُ زوجاً وعندي التزامات، ولا يمكن أن أعتمد على مرتب الحكومة في مصر
- وصعب أن تفتتح معملك الخاص
- في مصر؛ إما أن تعمل بطريقة تخالف ضميرك وإما أن تفتتح مشروعاً ضخماً بملايين غير موجودة
- أعانك الله ولكن تمهل
- دعواتك
- سأرسل لك نقوداً
- شكراً، لو احتجت شيئاً سأطلب منك
- أكيد؟
- وهل يمكن أن أطلب من غيرك؟ يتصل بي في اليوم التالي ليخبرني أن زميله (أبو معاوية) موجود في الدمام وقد أرسل معه ألف وخمسمائة ريال وأقسم أنه لن يستردها إلا بعد أن تتحسن الأوضاع!
مهما فعلتُ لن أستطيع أن أرد لك بعضاً من أفضالك يا فتى، والأهم من العطاء المادي- الذي ربما يعادل مرتبك شهراً كاملاً- هو كل ذلك الحب والاهتمام.
بقيت في السكن عدة أيام أجريت فيها اتصالات بزملائي للبحث عن مكان جديد، ثم كان الرحيل بعد خمسة وأربعين يوماً من المعاناة، خصموا كل التكاليف من راتبي فعدت أجر أذيالاً ثقيلة لا من الخيبة فقط ولكن من الخسارة! يستقبلني والدي في المطار بنظرة انكسار عجيبة! أكانت نظرة لوم لتصرفاتي الطائشة وأنني لم أحافظ على لقمة عيشي؟ أم نظرة إشفاق على صحتي ومعاناتي؟ أم نظرة قلق عليَّ وعلى مستقبلي وزوجتي في ظل تلك الأحداث المتوالية العجيبة؟ أم كان هناك أمرٌ آخر؟
تمر أيام ثقيلة بين القاهرة والمنصورة، أتلقى اتصالاً من صديقي الحبيب (حازم) الذي يعمل طبيب عظام بالمملكة وبعد السلامات يقول:

- هل تبحث عن عقد جديد؟
- نعم، لكن مكان موثوق به
- أعمل في مركز طبي بالمنطقة الشرقية، ويحتاجون إلى طبيب تحاليل، رشحتك لهم وسيكون المدير الطبي في مصر الأسبوع القادم ليجري المقابلات
- نفس المكان الذي تعمل به؟
- نعم
- أروع صحبة لكن ذكرياتي مع الدمام لا تسر
- لا، هنا في (القطيف) الأمر مختلف
- الله المستعان، جزاك الله خيراً
وتعاقدتُ، لا يعترض أبي ولا يشجع ولكن ما زالت نظراته تؤرقني، أمّا أكرم فأظهر في اتصالاته تفاؤلاً كبيراً، وسافرت بعد أقل من شهرين؛ تهبط الطائرة في مطار الدمام، ضابط الجوازات ينظر إليَّ متعجباً ويقول بلهجة غاضبة:
- ما اسم كفيلك؟
- كما ترى بالجواز؛ علي الصَّفّار.. فقال:
- ولم تجد إلا هؤلاء لتتعاقد معهم؟ لم أفهم فقلت متعجباً
- وما المشكلة؟ فلم يردّ وأنهى الإجراءات بعصبية ثم قال:
- نصيحة، ابحث لك عن مكان آخر يا دكتور
بداية مقلقة، ما مشكلة الاسم؟ ماذا تحمل لي الأقدار في (تاروت) ساحرة الجمال التي تطل على شاطئ الخليج العربي، أو الفارسي! يستقبلني حازم بالترحاب ليفاجئني بالخبر...

٢١... القطيف

عرفت السر وراء ما حدث في المطار؛ القطيف ذات أغلبية شيعية، نسبتهم في البلدة التي بها المستوصف مائة بالمائة، تحتاج أن تركب سيارة لمدة ربع ساعة لتصل إلى أقرب مسجد للسنة لصلاة الجمعة، سألت حازم: وهل سيحدث ذلك فرقاً؟ فقال: نعم؛ يحدث فرقاً إيجابياً، الناس هنا بسطاء، عندما يريدون إنهاء معاملة في مصلحة حكومية يذهب الدكتور (البرعي) مدير المستوصف المصري معهم كواسطة! سترى بنفسك وتلاحظ الفروق بين تعاملهم وبين ما حدث معك في العقود السابقة، الفتى لا يحب الشيعة بل يعتقد أن من طقوس عبادتهم أن يقتلوا أهل السُّنَّة! في نهاية كل مكالمة يدعو لي: ربنا ينجيك! يزعجني الأمر في البداية لكن مع الوقت أكتشفُ أنهم ناس من الناس؛ منهم الطيبون والأشرار، أهاتف زوجتي بشكل يومي؛ تبلغني بخبر حملها فأطير فرحاً ويتصل الفتى لتهنئتي:

- مبروك يا أبو حلموس
- الله يبارك فيك
- ماذا ستسميه
- الأمر في بدايته، وكل شيء بأوان
- احك لي عن تفاصيل حياتك
- ما زلت في أيام الاستكشاف الأولى
- فما انطباعك؟
- عالم جديد مليء بالغرائب
- أعطني أمثلة
- الأذان الطويل- بعد إضافات مثل (أشهد أن علياً ولي الله) بعد (أشهد أن محمداً رسول الله) و(حي على خير العمل) بعد (حي على الفلاح)
- سمعت أنهم يجمعون الصلوات
- ويقصرونها كالمسافرين؛ الظهر مع العصر، ثم المغرب مع العشاء
- وغير ذلك؟
- وضوؤهم العجيب؛ لا يغسلون أرجلهم وإنما يمسحون على ظاهرها

دون جوارب، فقال:
- ويُحلّون زواج المتعة؟
- ولكنهم ينكرون أنهم يمارسونه
عصر الأربعاء العاشر من يناير ٢٠٠١، هاتفت والدتي فقالت:
- والدك يشكو من كحة مستمرة منذ أمس ويرفض الذهاب للطبيب.. كلمته:
- ألف سلامة عليك يا حاج، لماذا ترفض مراجعة طبيب؟
- أنا بخير؛ لا تشغل بالك
- كيف؟ ربنا يرزقك الصحة وطول العمر
- هناك شقة لقطة أريد حجزها لك، أبلغت أخاك بكل التفاصيل
- معذرةً يا والدي، أرجوك اذهب إلى المستشفى.. فقال:
- حاضر.. تمضي ساعتان ويطلبني حازم: منتظرك في مكتب الدكتور البُرعي، ذهبت إليهما فإذا بهما ينظران في توتر واضح، وكان لابد من إبلاغي بالنبأ المهول: اتصل الأستاذ أمين زوج أختك وأبلغنا أن والدك توفي.. هتفت غير مصدق:
- أبي! لا إله إلا الله، كان معي على الهاتف منذ قليل، إنا لله وإنا إليه راجعون.
لا ألم في الغربة أقسى من هذا، أنهار بالبكاء، تفقد أقرب حبيب فلا تستطيع أن تكون بجواره؛ لا تسمع وصيته الأخيرة ولا تُقبل جبينه ولا يديه! لا تكون بجوار أمك وإخوتك في تلك اللحظات العصيبة، أرتعش فيحتضنني حازم:
- وماذا ستفعل؟ أحاول ضبط أعصابي فأقول:
- سأسافر، لابد أن أتلقى عزاءه.. فقال حازم:
- تريث قليلاً، لك بمصر أخَوان وأختان
- لا مجال لهذا الكلام.. يأتي أبو رامز كفيلي، يربت على كتفي ويقول:
- البقاء لله، أنا طوع إشارتك، ماذا أستطيع أن أقدم لك؟
- تأشيرة خروج وعودة.. فقال:

- سأرسل شقيقي الآن إلى جوازات المطار؛ يعملون أربعاً وعشرين ساعة، كلنا تحت أمرك.. ننتظر حتى يعود الرجل قرب العاشرة مساءً فيقول:
- آسف جداً، حاولت معهم، لكن لا يمكن استخراج تأشيرة خروج وعودة لطبيب إلا بموافقة الشؤون الصحية، ومكتبهم مغلق الآن والخميس والجمعة أجازة ولن يفتحوا قبل السبت!
هتفت نافد الصبر: أليس عندهم طوارئ؟ فقال: لا للأسف فقال: سقطت على الكرسي لا أدري ما أفعل؛ إحساس فظيع بالعجز، وهل هناك أفظع من ذلك؟! يموت والدي وأنا ابنه الأكبر فلا أستطيع أن أُغسِّله أو أُكفِّنه أو أدفنه أو أتلقى العزاء! ألم يكفِ تقصيري في حقه طوال حياته لأضيف الآن هذا التقصير عند مماته؟ تتوالى التعازي من الزملاء وأجيب في ضيق على أسئلتهم: هل كان مريضاً؟
- السُعال ليلةً واحدة
- شد حيلك
- على الله.. يتصل أكرم لتعزيتي ويعرف أنني لن أستطيع السفر:
- أنا قادم
- لا تتعب نفسك، سأسافر بمجرد استخراج التأشيرة
- ادع له وقم بعمل عمرة
- سأفعل إن شاء الله؛ بعد عودتي، لابد أن أكون بجوار أمي، الآن فقط تيقنت من صدق كلمات جدتك، من خرج من داره نقص مقداره.. فقال: هوِّن عليك، الأمور تجري بمقادير
وفي الصباح وجدته بجواري نبكي معاً ونستعيد ذكرياتنا عن والدي رحمه الله، ثم يقول:
- وبالمرة تأخذ فترة راحة من البقاء وسط هؤلاء الكفار! فوجئت بكلماته فقلت:
- ولكنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهناك فتوى للأزهر منذ خمسين عاماً تقول إنهم مسلمون.. فقال:
- فتوى سياسية، يسبّون السيدة عائشة وكبار الصحابة.. فقلت:
- لم أسمع منهم ذلك، وفي كل دين وفكر يوجد متطرفون، وسباب المؤمن

فسوق.. فقال:
- فلنؤجل الكلام
يعود إلى الرياض مساء الجمعة وأسافر إلى مصر السبت بعد إنهاء الإجراءات، بعد أن انتهى كل شيء، الآن أعرف معنى نظرة أبي التي لن أنساها ما حييت؛ أكان يشعر باقتراب أجله؟ أم أراد أن يهتف بي: ابقَ بجواري يا ولدي، فربما لا أراك مرةً أُخرى! وماذا تساوي أموال الدنيا في لحظة كتلك؟ أذهب إلى قرية أبي لأزور قبره ويأتي أقاربي لتعزيتي؛ أواسي أمي وإخوتي وأقرأ ما تيسر من القرآن وأبكي، يصيب زوجتي نزيف مفاجئ فنسرع إلى المستشفى: إجهاض
أعود بعد خمسة عشر يوماً، وتمضي الحياة، لكنها تتحول تحولاً عجيباً؛ يهاتفني الفتى يطمئن على أمي وإخوتي:
- الحمد لله أنك نزلت؛ خففت عنهم كثيراً، صف لي شعورك الآن
- الحمد لله على كل حال، إحساس عجيب؛ هل رأيت إنساناً بلا ظَهر؟
- نعم؛ بالفعل كان أكبر سند! ورثتَ منه طيبة القلب وورث أخوك الأوسط خفة الظل أما الأصغر فورث موهبة التمثيل!
أستقدم زوجتي، يطلبني الفتى فأحكي له ما أكتشفه تدريجياً عن القوم؛ عاداتهم الأقرب إلى متطرفي الصوفية وحبهم للمصريين لأنهم يحبون آل البيت، ولأن بمصر مساجد مثل جامع الحسين والسيدة زينب؛ بعضهم يسافر إلى مصر ويزور تلك المساجد كل عام! بدعهم الأقرب إلى الشِّرك، يحملون صفات الأقليات في كل مكان؛ صدق وأمانة والتزام بالكلمة والمواعيد وكلام معسول لا يمكنك أبداً أن تعرف إن كان صادقاً من القلب أم هو ستار يخفي خلف (التّقية) ظلمات من الحقد والكراهية! تكافل بين بعضهم البعض وقدرات تجارية وادخارية واضحة وإخلاص في العمل، جرأة تتنامى مع الثقة في وعود خارجية بالتأييد؛ إيران وأمريكا! انتشار في المناطق العمرانية الجديدة وشراء لأراضٍ وعقارات لم يكن ممكناً أن يفكروا في شرائها من قبل! زواج الأقارب منتشر جداً ومعه تنتشر أمراض وراثية نادرة ومنها أنيميا الخلايا المنجلية- التي سببت مشكلتي الأولى في عقد الدمام- وأنيميا الفول، شعور عميق واضح

بالاضطهاد وبأنهم ضحايا ومعه شعور بالتعالي وأنهم أفضل من مضطهديهم، الجو في الشتاء رائع، أما في الصيف فحرارة شديدة ورطوبة خانقة، يُصلّون فُرادى- حتى في المساجد- لأن للإمامة عندهم شروطاً لا تنطبق على أغلب الناس، يسجدون على قطعة دائرية (شقفة) من طين التراب الحسيني المقدس بكربلاء! لا تتوقف مناقشاتي معهم، أكتشف تلك الصور التي يعلقونها في الميداليات وتزين بعض الحوائط والبيوت والسيارات، هذا أكثر ما ضايقني: رسوم يدّعون أنها للحسن والحسين! وجدتها قريبة الشبه من صور السيد المسيح، يحبون سماع القرآن بصوت القراء المصريين وخاصةً الشيخ عبد الباسط! يسمعون أغاني ترفع آل البيت الكرام رضوان الله عليهم إلى درجات أعلى من الأنبياء! يأتي الفتى لزيارتي ومعه ديدو وشريف، فيلاحظون أن النساء تتمشى في الشوارع بحُرية، ويلاحظون أمراً آخر عندما نذهب إلى السوق فيقول شريف متعجباً:

- المنتجات الإيرانية منتشرة جداً

- إيران هي المنافس الوحيد للصين هنا

- غريبة.. فقلت:

- لا ينتج العرب شيئاً، فلماذا لا يتقدم من ينتج ليبيع بضاعته لهم؟!

معارضهم منتشرة طوال العام: السجاجيد والمفروشات والأدوات المنزلية والمكتبية والأحذية وماكينات الحلاقة وغيرها! يلاحظ الفتى كثرة العربات الخشبية التي تشبه (الكارّو) في مصر وتجرها الحمير، فيقول:

- وما لهذه الحمير؟

- مالها؟

- أضخم حجماً وأكسل حركة من الحمير المصرية! حتى هذا الجحش الصغير يبدو أكبر سناً، شكله عجوز، فقلت صادقاً وضاحكاً:

- حمار إيراني! يسأل ديدو:

- وما أصناف الطعام التي تشتهر بها المنطقة؟ فقلت:

- الأسماك والروبيان (الجمبري) يسأل أكرم:

- أين ابنة خالي؟

- تعال سلِّم عليها.. ندخل فيجدها تنظف كمية كبيرة من الجمبري، فيقول:
- لا حول ولا قوة إلا بالله، كل هذا؟ سأنظف معك، فتقول:
- لا تتعب نفسك، الأمر بسيط.. ينظر إليَّ لائماً:
- لم كل هذا التعب وهي عروس جديدة؟ فلنأكل أي شيء.. فقالت:
- لا تعب، المرة القادمة تحضر أم عمر معك لما ترجع من مصر إن شاء الله، بعد أن تضع مولودكما الجديد.

تتواصل أسئلتهم وإجاباتي؛ أسماؤهم قريبة من الأسماء المصرية؛ فهنا تجد محمد رمضان وسعيد درويش ورامز علي وتكثر أسماء حسن وحسين وعلي وغدير وعائلات مثل حيدر وكاظم والسجاد والصفار والخباز وإخوان.

سألني:
- ما زلت تعتقد أنهم مسلمون؟ فقلت:
- تأكدت من صحة كلامك؛ بالفعل يسبون الصحابة وخاصةً أبا بكر وعمر وعائشة رضي الله عنهم! أما الكفر فهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله!

في رمضان نجتمع مع الزملاء بعد نهاية عملنا المسائي في الثانية بعد منتصف الليل لنصلي التراويح في سكن (حازم) الحافظ المتقن، يسألني:
- سمعت أنك تقرأ في كتبهم
- نعم أحضرَت إحدى الفنيات كتاباً لمؤلف سوداني، أحاول أن أفهم شبهاتهم للرد عليها
- الأفضل ألا تتحدث معهم حول أي اختلافات.. يهاتفني زميلي (الفقي) أخصائي التخدير من مصر:
- أمامي عقد لمستشفى في جدة
- المستشفيات الكبيرة مرهقة
- من حيث؟
- عدد الساعات وضغوط العمل
- المرتب مغر
- إذن؛ توكل على الله، جدة قريبة من مكة؛ تعمل عمرة وقتما تحب..

فقال: ولكن يأتي أهلك ومعارفك للعمرة فيزورونك ويعني ذلك المزيد من الإنفاق! تحمل زوجتي من جديد..

يسألني ذات مرة:

- سمعت أنهم متميزون في رياضات بعينها مثل كرة اليد

- نعم، (نادي النور) يحصل رغم إمكانياته المتواضعة على بطولات قارية

- لاحظت أنهم فقراء

- لكن المحظوظين منهم يعملون في شركة (أرامكو) للنفط؛ وصارت لهم صداقات متينة مع كثير من الأمريكيين

- وماذا يحدث يوم عاشوراء؟

- ممنوع أن تستعمل آلة التنبيه أثناء تحركك بالسيارة ولابد أن تتحرك ببطء شديد، الكل يبكون ويظهرون الحزن

- هل يلطمون الخدود ويضربون بسلاسل الحديد على الجباه والصدور حتى تسيل دماؤهم كما يفعل شيعة العراق ونراهم على الشاشات؟

- نعم ولكن في أماكن مغلقة تسمى (الحسينيات)

- ولديهم مثلنا طبق مخصوص (عاشوراء)؟

- بل يأكلون ويُهدون لبعضهم (الطبخة السوداء) إظهاراً للحزن؛ وتكون بالفعل سوداء قاتمة حيث تمتلئ بكميات رهيبة من الفلفل الأسود والبهارات!

- والعمل

- مستقر، معي فنية هندية هندوسية، ولكنها دائمة السب لزميلتنا طبيبة الجلدية الهندية مثلها لكنها تنتمي لطائفة أخرى؛ تعبد القمر!

- نعم؟

- شاندرا

- ومعكم جنسيات أخرى؟

- فلبينيات كثير؛ ممرضات، وهناك طبيبة أسنان كنت أريد أن أبدأ لزوجتي جلسات عندها ولكن بنت خالك رفضت قرفاً من رائحة فمها!

- لهذه الدرجة؟

- بمجرد اقترابك من إحداهن تشعر برغبة في القيء

- لماذا؟
- ربما لأنهم يأكلون لحم الكلاب، وهذا كما قيل لي سبب ندرة الكلاب في الشوارع
- ما هذا العالم العجيب؟
- والخمر موجودة بسهولة ومتاحة للجميع
- خمر!
- يصنعها الفلبينيون في البيوت ويبيعونها لمن أراد بشكل شبه علني
- عجيب!
- فوجئت بهم يهنئون زميلتهم الممرضة (ماري) التي فازت في القرعة حيث يجمعون النقود من بعضهم كاليانصيب
- وكم المبلغ؟
- تخيل؛ ثمانين ألفاً! عددهم كبير
- وكل ذلك طبعاً خارج إطار القوانين

تضع زوجته مولودها الثاني (خالد) في يوليو، يمر شهران وأجد الجميع يتجمعون مشدوهين حول الشاشة الضخمة في استراحة المستوصف: يشاهدون نقل وكالات الأنباء لحدث غير مسبوق!

٢٢ ... سبتمبر

مساء الثلاثاء الحادي عشر من سبتمبر، يحمل أبو رامز جهاز التحكم ويقلِّب بين الجزيرة و(سي إن إن)

يجيدون الإنجليزية لقرب (ارامكو) واختلاطهم بالأجانب، ينظرون منبهرين! ما الذي يحدث؟ أحاول استجلاء الأمر فتجيبني أصوات مختلطة: طائرات تصطدم بأبراج مركز التجارة العالمية في نيو يورك، وبالبنتاجون، هجوم مدبر وليس حادثاً: حرب على الولايات المتحدة الأمريكية! تتبين التفاصيل تدريجياً؛ الرئيس الأمريكي يتوجه إلى مكان غير معلوم- وقد كان وقت الهجمات في زيارة لمدرسة أطفال- حدثت الهجمات في أوقات متقاربة؛ حول التاسعة صباحاً أي الرابعة عصراً بتوقيت مكة المكرمة، المطارات الأمريكية تعلن الطوارئ وشركات الطيران تلغي آلاف الرحلات، تعلن أغلب دول العالم إدانتها للهجمات (الإرهابية) ووقوفها بجوار الحكومة الأمريكية، أعود إلى المختبر متعجباً أفكر في الأمر من زوايا عديدة؛ من فعلها وكيف ولماذا؟ أعود إلى السكن لأجد زوجتي في حيرتها وقلقها، أدير التلفاز وأتصل بأكرم لكن الشبكة ضعيفة جداً، أتابع ردود الأفعال؛ خديجة ومنتهى يستضيفان المحللين واحداً تلو الآخر، بعد سويعات قليلة يعلن المحققون أن هناك علاقةً ما بين مرتكبي الهجمات وبين بن لادن! أحاول مرات حتى يرد الفتى، أقول:

- هل شاهدت ما حدث؟ جاءني صوته متثائباً
- أهلاً حبيبي، أمريكا؟ يستحقون
- سمعت اتهامهم لبن لادن؟
- غريبة، لحقوا؟
- تعجبت مثلك، لو عندهم شكوك مسبقة لما سمحوا باختطاف الطائرات من الأساس، ولو الأمر مفاجئ أو غير متوقع فهذا الاتهام مبكر جداً
- صحيح، كم الساعة الآن؟ نظرت وأجبت
- الواحدة، شكلك نائم، معذرةً سأكلمك فيما بعد
- نمت فعلاً، عندي شُغل الفجر

- آسف، حاولت الاتصال بك عدة مرات لكن الخطوط مشغولة والشبكة ضعيفة

- لا تتأسف، الأمر مهم فعلاً؛ غداً نتكلم!

رغم أن لديّ عملاً في الصباح لم أستطع النوم، تستفز الأحداث الكبرى ذهني، أتابع الفضائيات وكل التفاصيل، وأكثر ما تنبهت إليه كان هذا الاتهام المبكر جداً، بدا سابق التجهيز! تتوالى الأخبار، ولا أكف عن التفكير، بعد شهر تسافر زوجتي إلى مصر لاقتراب موعد ولادتها.

أهاتف الفتى:

- لا أصدق أن الفاعل هم مجموعة عطا، ربما خطفوا الطائرات لكن التنفيذ بتلك الدقة أكبر من إمكانياتهم.. فقال معترضاً:

- بل بتوفيق الله ليذلوا أمريكا الظالمة

- الأمر مدبر

تضع زوجتي طفلنا الأول في نوفمبر ٢٠٠١، أسافر في أول أجازة أتمتع بها في كل عقودي! نقضي شهراً يمر سريعاً، بالكاد أنهي إجراءات تجديد الأجازة وأتفقد أحوال أمي وإخوتي، نعود إلى القطيف ويكلمني الفتى:

- حمداً لله على السلامة

- الله يسلمك حبيبي

- أخبار مصر

الحمد لله، الكل بخير، يسلمون عليكم؛ خاصةً أمي وأمك؛ لك معي بطة، تعال كُلها! -

تمضي بضعة أسابيع ثم أتصل به:

- ماذا تفعل الآن؟

- أتابع برنامجاً على الجزيرة حول أحداث سبتمبر

- عظيم، كنت أتصل بك لتتابعه، سأكلمك بعد نهايته... ينتهي البرنامج الذي ناقش تقريراً أمريكياً يشكك في الرواية الرسمية للأحداث وأهاتفه:

- أما زلت مقتنعاً أن القاعدة وراءها؟

- متحير جداً، شاهدنا ما جرى على الهواء لحظة بلحظة

- مثير أن تتابع ما يجري مباشرةً في أي مكان، ولكن هل هو أمر جيد؟

- قبل سنوات قليلة كنا نحاول الحصول على الأخبار الصادقة لما يجري في أوطاننا من مونت كارلو
- طبعاً جيد أن تصل (الأخبار) إلى الجميع في نفس اللحظة، لكن هل تصل (الحقيقة) بالفعل للناس، أم ما يريد الإعلام-ومن ورائه أجهزة جبارة- أن يصل؟
- ما رأيك؟
- رغم ما يبدو فالأمور تحت السيطرة
- كيف؟ نحن في زمن العولمة
- بالضبط، ولذا يعطونك ما يريدون من أخبار ومعها مئات التحليلات والتنظيرات
- محيط هادر من الكلام والأفكار
- إمّا أن تبحر بمهارة، أو تغرق في ظلمات بعضها فوق بعض
- تخيل أن هناك فيلماً طرح فكرة إسقاط البرجين قبل الهجمات وتوقع أن ذلك سيتم بتخطيط من أجهزة المخابرات لتوريط المسلمين بتهمة الإرهاب
- وشاهدت لقطات من الفيلم
- الأمر أخطر من الفيلم؛ شاهدت في البرنامج أنه قبل الهجمات بسنة كان رامسفيلد وتشيني يعملان مشروعاً لتطوير الأسلحة الأمريكية وجاء فيه أن التغيير سيكون بطيئاً إذا لم تحدث كارثة بآلاف القتلى
- وأهدتهم الهجمات ثلاثة آلاف قتيل وضعفهم من الجرحى
- وقبل الحادث بشهرين استأجر رجل أعمال يهودي برجي التجارة ٩٩ سنة مع بوليصة تأمين بثلاثة ونصف مليار دولار
- سيلفر شتاين؛ هذا وحده حكاية!
- وحصل على ضعف المبلغ لأن ما حدث كان هجمتين لا هجمة واحدة
- ههههه مصادفة! أو تاجر شاطر
- جداً، والشاطر في اللغة هو اللص قاطع الطريق، ويقول الخبراء أن الطائرة التي ضربت البنتاجون يستحيل أن تقوم بذلك بتلك السرعة في الجو

- ومحافظ سان فرانسسكو جاءه اتصال من مكتب كوندوليزا رايس ينصحه بعدم الطيران إلى نيو يورك يوم الهجمات
- كوندوليزا! مصيبة من مصائب الدهر
- ولم يظهر أي جزء من أجزاء الطائرة التي صدمت البنتاجون
- قالوا تبخرت
- مستحيل طبعاً
- والبرج الثالث- رقم ٧- الذي انهار أيضاً قصة أخرى واضحة التلفيق
- هذا أيضاً ملك سيلفر شتاين
- وشهادات كثيرة حول تفجيرات في البرجين وأسفلهما قبل الهجمات!
- هل سمعت ما قال بوش الابن؟
- حرب ضد الإرهاب!
- لكنه لم يقل ما هو الإرهاب
- ولن يعطي تعريفاً محدداً، هو الإرهابي الحقيقي، لكنه يريد أن يستغل الفرصة ليضرب من يريد
- نعم؛ محور الشر
- ولكنه قال أيضاً: من ليس معنا فهو ضدنا.. صمتنا قليلاً ثم قال:
- وما أخبارك وزوجتك وولي العهد؟
- الحمد لله كلنا بخير، زوجتي تشكو فقط من الفئران
- عندها حق؛ كائنات مزعجة، إذا ضربتها بالحذاء تهرب مفزوعة، وإذا سهوت عنها قليلاً دمرت كل شيء
- صحيح، الفأر الجيد هو الفأر الميت
- كان سكن الشركة مليئاً بالفئران وعندما جربنا المصائد اللاصقة جاءت بنتيجة ممتازة، فقلت: بحثت عنها ولم أجدها، فرد:
- بسيطة؛ سأرسل بعضها إلى أبو معاوية في الدمام ويوصلها إليك
- جزاك الله كل خير
بعد أيام يتصل بي أمين زوج شقيقتي وبعد السلام يقول:
- عندي زيارة عمل إلى الدمام والخُبر بعد أسبوعين، وسنمر عليكم
- هائل، المسافة بيننا وبين الدمام حوالي ثلاثين كيلو

- نراكم على خير
- تنورونا.. بعد أيام يأتيني اتصال فأرد:
- أهلا أبو معاوية، أكرم أرسل المصيدة؟
- نعم، وأنتظرك في الدمام لاستلامها
- قال إنك ستحضرها، هل هناك مشكلة؟
- لم أكن أعرف أنك تقيم في القطيف
- وما المشكلة؟
- لا أستطيع أن أتواجد في مكان واحد مع هؤلاء الكفار الذين يسبون الصحابة، أخاف تصيبني اللعنة
- لهذه الدرجة؟ سآتي إليك لكن ليس قبل يوم الجمعة، لكن ألا تبالغ قليلاً؟ فقال:
- سأحكي لك حين أراك
في الجمعة التالية أذهب إليه فنكمل الحوار؛ قال:
- سميت ابني (معاوية) إغاظةً لجيراني منهم! صدمني الكلام فقلت:
- غريب، وهل يغير المسلمون السُّنّة أسماء أبنائهم من حسن وحسين وعلي ويسمونهم معاوية ليغيظوا الشيعة؟
- عاشرتهم سنين يا دكتور
- ولماذا إذن رفضت زيارتي في القطيف؟
- بصراحة خفت منهم
- ولم؟
- هم عائلات وأقارب، يعرفون بعضهم جيداً ويتناقلون الأخبار بكفاءة
- وما المشكلة؟
- وصلت الأمور إلى الضرب، وبعد معاركي معهم أصبحوا يدبرون لي الأذى ولولا ستر ربنا لما كنت معك الآن
- معقولة؟ الناس حولي طيبون والخلاف لا يصل إلى هذه الدرجة، أشعر أن الأمر مصطنع، قبل سنوات لم نكن نسمع عن أي خلافات بين السنة والشيعة
- يبدون أمامك مساكين خائفين ما دمت أقوى منهم، أما من خلف

ظهرك فدائماً يدبرون لك كارثة! ينتظرون فرصة ليفسدوا حياتك
- لم كل هذه المبالغات؟
- هم في غاية الخطورة، ابحث عن مكان آخر تأمن فيه على نفسك وأهلك
هززت رأسي غير مقتنع، أخذت منه المصيدة فقال:
مصيدة ممتازة ستوقف الجرذان عند حدها، لكن خذ حذرك فهم مدمرون مفسدون!
أعود لأمارس حياتي بشكل طبيعي فلم يزدني كلامه إلا اقتناعاً بوجوب التعايش مع الآخرين مع المناقشة الحرة الصريحة حول أي خلاف، أستعير بعض كتبهم ثم أناقشهم فيها، أتصل بأكرم لأشكره:
- حبيبي جزاك الله خيراً
- حاجة بسيطة، طمنّي هل تكلمت مع أبو معاوية
- نعم
- استمع لنصيحته، فهو أعرف بالقوم
- أنت لا تحبهم من البداية
- وهل تحبهم أنت؟
- أكره أفعالهم وسبابهم لصحابة رسول الله، ولكني أتفهم أن يكونوا مختلفين عنّا بالنظر إلى نشأتهم وتربيتهم أما في التعامل اليومي (لكم دينكم ولي دين)
- خذ حذرك على أي حال
لم ألتفت كثيراً إلى أقواله وقلت في نفسي إن كراهيته لهم تدفعه إلى رفض فكرتي في التعايش والتقارب، أعيش وسطهم في مجتمعهم؛ وأصبحت زوجتي صديقة لبعضهن، في العمل وفي السوق والشارع نتعامل معهم؛ ولا يخلو الأمر من بعض الطرافة، فقد كنت أسمعهم يقلبون الجيم إلى ياء بلهجتهم العامية ويقلبون (الكاف) في آخر الكلمات إلى (شين) فأردت أن أمازح أحدهم: خميس الذي يعمل معنا سائقاً بالمركز ودخل علينا المختبر ذات يوم فقال:
- صباح الخير يا دكتور

- صباح الفل، أخبارَش أحوالَش؟ (أقصد أخبارك أحوالك) فضحكت قريبته الفنية التي تقف بجواري، وقال خميس:
- أنا بخير والحمد لله، لكن يا دكتور ألا تعرف أن تلك الشين تدل على أنك تخاطب أنثى وليس ذكراً؟ ابتسمت في حرج وقلت:
- لا والله لم أكن أعرف، وما قصدت إلا المزاح معك.. فقال في جدية:
- حين تخاطب رجلاً فقل أخبارَك أحوالَك، أما الحُرمة فقل لها (أخبارِش أحوالِش) كما تشاء
في الخميس التالي جاء أمين وأختي وقضوا معنا يوماً رائعاً، ثم قضينا معهم اليوم التالي مع بعض أصدقائهم في الخُبر حيث يعمل صديقه في فرع شركة كوكا كولا العالمية في دُبي فيقضي هناك أربعة أيام من الأسبوع بينما تُقيم عائلته في الخُبر حيث أقام عدة سنوات قبل نقله وارتبط أهله بالمكان والمدرسة (الإنترناشيونال) والأصدقاء!
جلسنا جميعاً نأكل في المطعم الصيني حيث يحضرون حساءً أخضر في قِدر صغير ويضعونه فوق موقد صغير ليظل ساخناً، لم أستسغ الطعم فركزت على المشويات، وعدنا إلى البيت في جو مرح
وفي اليوم التالي استدعاني أبو رامز إلى مكتبه فذهبت، فقال لي:
- تفضّل يا دكتور... وسلمني ورقة؛ قرأتها فإذا هي قرار بالاستغناء عن خدماتي! ثم قال لي:
وقّع بالعلم واذهب إلى أبو على المحاسب للحصول على مستحقاتك!

٢٣... أكرم البنغالي!

أعود إلى زوجتي التي تسألني مباشرةً: مالك؟ أحاول أن أخفي ما يعتمل في نفسي؛ ذلك الإحساس بالدهشة الممتزج بعدم التصديق والممرور بالعجز، لماذا؟ من بين كل الزملاء لا أنتقد تصرفاتهم العجيبة؛ أعتبرها اختلافات طبيعية بين البشر؛ وأعتبرهم أصدقائي؛ ولعبت بي الأوهام فتصورت من الممكن إحداث نوع من التقارب، وما أبرئ نفسي؛ حذرني الناصحون، أجبت زوجتي: لا شيء؛ إرهاق، تناولت طعام الغداء وألقيت بنفسي على الفراش؛ لم أستطع النوم.. لماذا؟ أعود إلى العمل في الفترة المسائية وأطلب لقاء أبو رامز فيستقبلني بطريقة جافة على غير عادته، سألته:

- أخبرني ما الذي حدث؟ لماذا إنهاء التعاقد بهذه الصورة المفاجئة؟

- تعلمت من الأمريكان في أرامكو أنه إذا انتهت علاقة العمل فلا تبحث عن الأسباب

- لكن أريد أن أفهم

- راتبك عال جداً فوق إمكانياتي يا دكتور، استقدمت طبيبة سورية وهي على وشك الوصول

- وهل تسمح لي بنقل كفالة؟

- نعم، ولكن إلى منطقة أخرى، حفاظاً على أسرار وسمعة المكان، ابحث خارج المنطقة الشرقية

- ومتى أترك العمل؟

- من الغد لو تحب

- لهذه الدرجة؟

- ولماذا أعطلك وقد انتهى الأمر؟ أنا رجل عملي، لك مهلة شهر: تنقل الكفالة أو تعود إلى مصر

- ومستحقاتي

- المحاسب سيعطيك بياناً بها، ولكن لن نستطيع دفعها قبل ثلاثة أشهر

- ولماذا تركتني أسافر في الأجازة، عُدتُ من أسابيع قليلة

- وهل أحرمك من الأجازة والاطمئنان على أهلك؟

- أنفقتُ أكثر من عشرين ألف ريال، لو أخبرتني لما سافرت ولبحثتُ عن عمل
- دُنيا، لن تحصل على عدل مطلق إلا في الآخرة! ثم قلّب كفيه ومط شفتيه وكأنه يقول: كفى، لكنني قلت:
- إذن تعلم أنك تظلمني؟ حين دخل علينا فجأة (أبو عبد الله) شقيق زوجته، ضحك في لا مبالاة وقال:
- طوّلت هذه الجلسة، كفى يا أبو رامز، انتهينا يا دكتور.. فقلت:
- قل لي أنت يا أبو عبد الله هل قصرت في عملي، هل أخلاقي سيئة؟ فضحك وقال:
- لا سمح الله يا دكتور، لكنك تثير مشاكل- اعذرني- طائفية، كان أبو رامز ينظر إلى شاشة الحاسوب أمامه، فقلت:
- مشاكل طائفية! فما هي؟ فقال أبو رامز:
- لا طائفية ولا غيرها، قلت لك؛ راتب الطبيبة السورية نصف راتبك، ترى حال المركز، أنت وزملاؤك لم تقبضوا رواتبكم منذ أشهر ولن أستطيع الاستمرار هكذا .
خرجت وأنا أتمتم:
- لله الأمر من قبل ومن بعد.. يلقاني الدكتور البرعي وهو يهز رأسه متعجباً:
- لا أفهم ما السبب، سأحاول معه.. فقلت:
- لا جدوى، انتهى الأمروتعاقد مع طبيبة سورية
- لكنك مستمر معنا حتى تحضر؟
- قال لي: ابحث عن مكان آخر
لم يصدق فاتصل بأبو رامز ليتأكد منه أنه لا يريدني وسيسمح لي بالبحث عن عمل في أي مكان بدايةً من الآن، يأتي حازم ويقول: هوِّن عليك، أمر غريب ولا أجد له تفسيراً، فقلت:
- كنتَ على حق، فقال:
- لا تؤنب نفسك، أنت لم ترتكب جريمة.. فابتسمت:
- لا يتعلم المرء مجاناً!

- وماذا تعلمتَ هنا؟
- فضيلة الصمت
اتصلت بأكرم فقال:
- لا حول ولا قوة إلا بالله، وما السبب؟
- لم يقل لي أحد
؟ - ولم تستنج شيئاً
- عندما أراك سأحكي لك
- في انتظارك، نبحث لك هنا عن مكان جديد، ورُبَّ ضارة نافعة، تأتون لتعيشوا معنا ونحقق حلمنا القديم؛ العزوة
- إن شاء الله
- تعالوا في أقرب فرصة، وإن شاء الله خير، أحسن من الكفار الذين تعيشون وسطهم
- نراكم على خير
أذهب إلى المحاسب فأجد خصومات؛ أسأله فيقول: هذا المبلغ ثمن تذاكر الطائرة وتأشيرة الخروج والعودة والأيام التي قضيتها بمصر وقت وفاة الوالد!
أستسلم لتساؤلات زوجتي:
- وجهك متغير جداً
- أبو رامز أبلغني بإنهاء عقدي.. على عكس توقعاتي؛ ربتت على كتفي بهدوء وقالت:
- ولا يهمك، لكن ما الأسباب؟
- تعاقد مع طبيبة سورية براتب أقل
- يا سلام
- هكذا قال
- ولكن كثيراً من زملائك هنا رواتبهم أعلى منك، فهل سينهي تعاقداتهم؟
- لا أظن، هذه مجرد حجة، كان يخطط للأمر منذ زمن؛ سافر إلى سوريا وتعاقد معها قبل أجازتي، وهي على وشك الوصول، أخذت تهدئني وقالت:
- ولماذا إذن فعل ذلك؟

- يقولون أنني أثير مشاكل طائفية.. قالت مندهشةً:
- أنت! كل زملائك يسبّون الشيعة وأنت وحدك تتفهم تصرفاتهم
- زملائي يفعلون ذلك في الغرف المغلقة، أما أنا فأناقشهم علانيةً، وربما خافوا أن يتأثر أحدهم بكلامي، فابتسمت وقالت:
- عجيب، تتكلم معهم بكل صراحة وهم يرتبون للغدر بك، هم الخاسرون يا حبيبي! كان موقفها رائعاً، جهزت العشاء ثم قالت:
- وماذا سنفعل؟
- نبحث عن مكان جديد، سيسمحون بنقل كفالة
- لا والله فيهم الخير، هل ستتصل بزملائك؟
- وسأكلم أمين وسنسافر إلى الرياض وسأوصي كل معارفي
- ومتى نسافر؟
- بأسرع ما يمكن، كلمت أكرم وهو ينتظرنا، سأرى إمكانية السفر بوسيلة غير السيارات؛ السائقون هنا مجانين سرعة، أخاف عليكِ وعلى الولد
- لا تقل لي بالطائرة، كفى ما دفعناه في آخر عُمرة، نحن الآن في أشد الحاجة لكل ريال، فقلت:
- طبعاً؛ لم نقبض منذ ثلاثة أشهر ولن يدفعوا مستحقاتي قبل ثلاثة أخرى
- فبِع ذهبي
- اصبري قليلاً، ما زال معي بعض المدخرات.. أتصل بالفتى فيقول:
- ما رأيك في القطار؟
- سمعت عنه، سأرى، ولو أنني لا أحبه، فضحك: لا زلت تذكر حادثتي؛ القطار هنا مختلف! ذهبت في اليوم التالي إلى محطة القطار بالدمام، لابد من حجز مسبق لأنه لا يُسمح بوقوف الركاب! حجزت للسفر في اليوم التالي، يتصل بي وكأنه يراقبني بقلبه، أقول:
- غداً إن شاء الله؛ بالقطار
- عظيم، ستجدوننا في انتظاركم، متى يتحرك القطار؟
- الرابعة عصراً، سنستقل ليموزين
- بل سننتظركم، المسافة تستغرق حوالي خمس ساعات، وستبقون معنا

حتى نجد لك مكاناً محترماً
- حجزنا للعودة بعد ثلاثة أيام
- لماذا؟ طيب، تعالوا وسنتفاهم
- نراكم على خير
الهم وحده منعني من الاستمتاع بالرحلة! قبل الركوب تضع أمتعتك على سير يشبه الموجود في المطارات للتفتيش، نظافة واهتمام، الكل جلوس في راحة، الباعة يتحركون في هدوء وهم يرتدون زياً موحداً نظيفاً، يبيعون الماء والبسكويت والمرطبات بسعر السوق، دورات مياه نظيفة ولا أحد يضايقك أو يجلس فوق رأسك، مقارنة فرضتها الظروف؛ تسأل زوجتي: هل هو فارق الإمكانيات أم ثقافة الشعوب! فقلت: تذكرت بدايات مترو الأنفاق؛ كان نظيفاً منتظم المواعيد والكل حريص على عدم ارتكاب أي مخالفة، فقالت: لكن عندنا شبكة ضخمة وأعداد هائلة يستخدمونها يومياً مع الفقر والنهب وعدم وجود صيانة، فصدقت على كلامها: هذا الخط (الدمام-الرياض) هو الوحيد في المملكة- وقتها- ووصلنا.
ترحاب وكرم لا يوصف، يقترح أن أذهب معه صباح اليوم التالي إلى مقر عمله، أتعجب فيقنعني بمنطقه:
- لن تستطيع البحث وحدك، وأنا أعرف الكثير من المستوصفات، وتحركاتك بالليموزين ستكون مكلفة جداً، تعال معي وسآخذ إذناً لنعود بسرعة
أذهب معه لأجد مكاناً أقرب إلى الصحراء، وبعد مسيرة تحت ظل الشمس الحارقة يجلسني في غرفة صغيرة مكيفة ويقول:
- انتظرني دقائق
يدخل عليّ شخص أحمر الوجه بُنّي الشعر كث الشارب واللحية، يقول بإنجليزية سريعة كأفلام هوليود:
- من أنت وماذا تفعل هنا؟ فقلت:
- أنا قريب أكرم.. فقال:
- المصري أم البنغالي؟ فقلت:
- المصري

يضحك بشكل عصبي ويقول:
: لا فارق! كلكم إرهابيون ولكننا سنرد الصفعة.. فوقفت وقلت مندهشاً
- أي صفعة؟
- ما فعلتم من ثلاثة أشهر في نيويورك
- ومالي أنا؟
- مالك!؟ كلكم سعداء، كلكم بن لادن، لماذا تكرهوننا؟ وجاء أكرم ليفض الاشتباك فقال يعرفني بالرجل:
- مستر ديفيد، مديرنا الأمريكي، وهذا أخي.. وقبل أن يكمل عبارته هتف ديفيد:
- أنت تكذب يا مُسلم، قال لي أنه قريبك وليس أخاك.. ابتسم الفتى: هو ابن خالتي وأخي.. فرد:
وهنا مكان عمل لا زيارات عائلية.. وخرج من الغرفة يهذي، أسأل أكرم: -
- ماذا به؟
- كما ترى؛ متأثر بهجمات سبتمبر
- ولماذا يعمل هنا إذا كان يكره العرب والمسلمين هكذا؟
- صحيح؛ يكرهنا ولكنه هنا يحصل على راتب ومميزات لا يتقاضى نصفها في أمريكا
- معقولة؟
- وزوجته ممرضة في المستشفى الحكومي، ويعيشان كالملوك في مجمّع وهمي حيث كل شيء مباح، خمروحمامات سباحة وملاعب وكل ما لا تتخيله!
- سبحان الله
- وهناك ما لا نعرفه؛ ينقلون كل شيء عن حياة الناس هنا
- فهمتك، عيون أو جواسيس
- ديفيد يدس أنفه في كل شيء، على فكرة تحججتُ بك وحصلت على يومين أجازة لأتفرغ للبحث معك
- لا إله إلا الله، من رصيد أجازتك السنوية مرة أخرى

- وجودنا معاً أفضل من أي أجازة سنوية، هيا بنا، في طريق العودة أسأله: من أكرم البنغالي هذا؟ يتمنع أولاً لا يريد الرد ثم يخبرني:
- عامل كهرباء هندوسي جاء منذ سنتين، تعرفت عليه وعزمته وأخذته إلى جمعية للدعوة أعطوه بعض الكتيبات والشرائط وتفسيراً للقرآن بلغته
- ثم
- الحمد لله أشهر إسلامه منذ أسابيع وسمَّى نفسه (أكرم)
- ما شاء الله، طبعاً لما رآه من أخلاقك وكرمك
- الفضل لله وحده
- ربنا يجعله في ميزان حسناتك.. فيبتسم:
- وماذا فعلت؛ هذا من فضل ربي، فقلت: ما أجمل أن يفتح الله على يديك قلوب عباده! تأملت وجهه المشرق وقلت في نفسي: هذا أَولى ما يجب أن نفعل مقاومةً لتغريب كل شيء؛ لا سوط ولا قنابل! بل دعوة صادقة في سبيل الله، وقدوة مخلصة في زمن العولمة!
نبحث في المستوصفات والمستشفيات طوال اليوم، ثم يرفِّه عنا في رحلة بسيطة إلى إحدى الحدائق ليلاً، نأخذ الشاي- الذي أصبحت أتناوله بملعقة سكر واحدة- والشطائر، يحاول إضفاء جو من البهجة وما علم أنني في قمة التفاؤل بعد قصة البنغالي! لكن الوقت يمر بلا نتيجة! فارق كبير بين أن تكون في بلدك ويأتي صاحب العمل فيغريك بالراتب والمزايا وأنت مرتاح في مكتب السفريات تقارن بين العقود وتشترط وتختار ما تشاء، وبين أن تطلب أنت عملاً وتعرض خبراتك وشهاداتك، أكاد أقرر العودة بدلاً من تلك المَذلة، لكنني أتذكر الأوضاع في مصر وأنظر بإشفاق إلى زوجتي وصغيري؛ فلنصبر قليلاً، بعد بحث مضنٍ ومعاونة صادقة من ديدو وشريف لم نتوصل إلى شيء؛ مستشفى خاص واحد قالوا إنهم يحتاجونني ولكنهم عرضوا راتباً متدنياً وعدوا بأنه سيزيد تدريجياً، يقول الفتى:
- وما العيب؟ مستشفى مزدحم وواضح أن الدخل كبير، فرددت:
- لن أتعاقد براتب أقل مما أحصل عليه في القطيف، وأنت تعلم أفضل

مني أن كل الوعود بزيادة الراتب تتبخر بمجرد بدء العمل.. نعود فأخبر زوجتي فتقول:

- وماذا تنوي؟

- سنعود إلى القطيف وأتابع اتصالاتي وبحثي.. فقالت:

- وإذا لم نجد عقداً مناسباً؟ فهتف الفتى:

- ستجدون، وسيعوضكم الله خيراً تتعجبون منه.. فقلت:

- يا رب

عرض عليَّ مالاً فأبيتُ لكنه أصرَّ فقبلته شاكراً، عدنا إلى القطيف وواصلت اتصالي بكل من أعرف، نكاد نيأس من الوصول إلى تعاقد مناسب، أدعو ربي وأردد (أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) وقبل أن ينقضي الشهر بيومين دق جرس الهاتف.

٢٤ ... أبو معاوية!

قال أمين:

- وجدتَ مكاناً؟
- لا
- وجدنا لك مكاناً
- بالله؟
- تعرف مصطفى؟
- جارك؟
- نعم؛ هو مدير بشركة أدوية، كنت قد كلمته ووجد مركزاً يحتاج إلى طبيب تحاليل.
- عظيم، بارك الله فيكما
- هو مركز مشهور وقديم هنا، يقول أن أصحاب المكان طيبون، ربنا ييسر وتستقر الأمور.
- رائع، هل تكلم معهم في التفاصيل؟
- عرضوا الراتب نفسه ولكن بالهجري
- أفضل
- سأرسل لك رقم المدير الطبي؛ اتصل به واسأله عما تشاء
- تسلم حبيبي
- هيا تعالوا
- إن شاء الله

أذهب فرحاً إلى أبو رامز فيقابلني بوجه عابس، أكان يظن أنني لن أجد مكاناً وسأعود إليه باكياً؟ وماذا يريد مني وقد حضرت الطبيبة وبدأت عملها وراتبها بالفعل يقترب من نصف راتبي؟ لكني متأكد أن هناك سبباً آخر لإنهاء تعاقدي، عندنا الآن عمل وأوراق لابد من إنهائها، أتصل بالفتى لأستفيد من خبراته السابقة في نقل الكفالة فيجيب بفرحة:

- مبروك، قلتُ لن يضيعكم الله أبداً
- الحمد لله

- صدقني؛ ربنا أراحك من القطيف
- كنت تعمل في الجنوب، ما رأيك في الناس هناك؟
- طيبون حقاً؛ مثل أهل الجنوب في كل مكان.. يضحك ويكمل: أما أهل الشمال فأشرار!.
- كيف؟
- أهل الجنوب هنا كالصعايدة في مصر؛ طيبون لكن دمهم حامي
- الله المستعان
بعد إجراءات ورقية وإدارية مطولة يتم نقل الكفالة، ونسافر إلى خميس مشيط، خصموا رسوم نقل الكفالة (٢٠٠٠ ريال) من أول راتب رغم أنهم لم يتفقوا على ذلك، أبديت استيائي ولكن أكرم نصحني:
لا داعي لإثارة مشاكل من البداية وكفى ما كان في عقودك السابقة.. يسألني عن المستوصف فأقول:
مكان قديم سمعته ممتازة وأطباؤه أكفاء، والمالك عائلة عريقة تمتلك عدة مستوصفات في الجنوب
- ولديهم طبيب تحاليل؟
- نعم؛ يكبرني بخمسة عشر عاماً وتقيم أسرته في مصر، يريدون أن يفتتحوا مركزاً جديداً في بلدة تُسمى (بارق) ويرسلوه هناك
تتعدد رحلاتنا مع أختي وزوجها، الجو ساحر في الصيف لارتفاع الخميس عن سطح البحر، ظُهراً تمتلئ السماء بالسُحُب ثم تمطر! مما يجعلها مصيفاً سياحياً، لا تحتاج لأجهزة التكييف- عكس أغلب مناطق المملكة- أما في أبها القريبة فمناطق خضراء رائعة الجمال مثل (السودة) حيث السحاب يمر بجوارك وتمتلئ المنطقة بالقرود المرحة، وهناك (تليفريك) ممتع.
تمر الأسابيع الأولى مبشرة؛ أعمل كل يوم ثماني ساعات متواصلة ثم يتسلم الطبيب الآخر المناوبة ليعمل ثماني ساعات أخرى، ونغير المناوبة بداية كل أسبوع.
يطمع أن يستمر في الخميس فيذهب كل ليلة- كما عرفت فيما بعد- لإقناع الإدارة؛ فهو كبير في السن ولا يصح أن (يتبهدل) وأنا شاب صغير

وطفلي لم يبلغ سن المدرسة بينما كنت غائباً عن تلك الحوارات منشغلاً بعملي فقط.
أما الفتى فما زال مطحوناً في دوامة العمل، لكن أموره مستقرة، تستمر اتصالاتنا وينصحني بشراء سيارة، أؤجل الأمر قليلاً، بعد ثلاثة أشهر يتصل بي حازم؛ يريدون تحويل بقية مستحقاتي، أعطيه رقم حسابي، وبعد عدة أيام يتصل بي أكرم بصوت يجمع بين البكاء والغضب:
- كيف حالك يا شيخ؟
- الحمد لله، مال صوتك؟
- معذرةً، خبر مزعج
- اللهم اجعله خيراً
- أبو معاوية.. قُتِل
- لا إله إلا الله، ماذا حدث؟
- اكتشفوا جثته وجثة زوجته وطفله أول أمس؛ مذبوحين! هتفت:
- مذبوحين؟! ما هذا الكابوس المخيف؟ ولماذا؟ لا أصدق
- إنا لله وإنا إليه راجعون
- وهل عرفوا مَن ذلك السفاح، وما السبب؟
- ما زال التحقيق في بدايته، لم أُرِد إبلاغك، لكن في مثل تلك القضايا يتم استدعاء كل من له علاقة بالمجني عليهم؛ قد تتصل بك الشرطة، وقد يستدعونك .
- لا علاقة لي بأي شيء
- أعرف طبعاً، لكن فضلت إبلاغك تحسباً للظروف فكن مستعداً
- جيد أنك أبلغتني كي لا أفاجَأ، ربنا يغفر له ويرحمه
- كان إنساناً طيباً، لم يرحموا زوجته ولا طفله
تمر الأحداث متلاحقة، يستدعون الفتى إلى الدمام للتحقيق حيث وجدوا عدة مكالمات بينه وبين القتيل؛ من السهل عليه بيان السبب: يعملون في نفس الشركة وفي نفس القسم وتحت رئاسة نفس المدير (مستر ديفيد) الذي يسافر أيضاً ليطمئن على سير التحقيقات! ثم يتصلون بي:

- لابد من حضورك بعد غد مع كفيلك للتحقيق
- لماذا؟
- عندما تأتون ستعرفون كل شيء
- ولكن...
أُغلق الخط، حاولت عبثاً أن أصل إلى الكفيل- سعيد- وهو شاب لا يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره لا نكاد نراه لأنه دائم السفر إلى أوروبا وأمريكا؛ وهو ابن شقيق صاحب الشركة المسئول الحقيقي الذي نتعامل معه كل ليلة، دخلت إلى عمه وأخبرته فقال:
- ولماذا يريدونك للتحقيق؟
- جريمة قتل؛ المجني عليه من معارفي
- وما علاقتك بالجريمة؟
- لا علاقة لي بأي جريمة، ربما وجدوا رقمي مسجلاً على هاتفه، نظر إليّ متشككاً وقال:
- سنرى يا دكتور، سأرسل معك مندوباً بتوكيل رسمي
- قالوا لابد من حضور الكفيل
- لكني مشغول وكذلك سعيد
- وماذا أفعل؟
- لا شيء، سأرسله معك بتوصية لبعض معارفي هناك
- الله المستعان.. فابتسم وقال وكأنه يمازحني:
- جئتنا ومعك المشاكل
فقلت مدافعاً:
- والله أبداً، هذا أمر خارج عن إرادتي
- لا تقلق، الله كريم
عاملوني والمندوب بغاية الاحترام، قال لي ضابط التحقيق بعد الضيافة بالقهوة العربية والتمر:
- ما علاقتك ب (أبو معاوية)؟
- صديق تعرفت به عن طريق قريبي (أكرم) زميله في العمل
- ومتى وأين كانت آخر مرة رأيته فيها؟

- منذ حوالي أربعة أشهر، في الدمام
- عجيب! جئت من الخميس لتقابله في الدمام؟
- كنت أعمل وقتها في القطيف، وأتيت لأزوره ولأتسلم هدية أرسلها أكرم معه من الرياض
- وكيف ذهبت إلى الجنوب؟
- نقل كفالة... التفت عني وسأل المندوب فأكد صدقي حول نقل الكفالة، وسألني:
- هل لاحظت شيئاً غير معتاد أثناء حديثك مع المرحوم؟ لاحظ تغير ملامحي فقال: قل كل الحقيقة، أي معلومة ولو بسيطة ستساعد في الكشف عن الجناة
- تحدث عن خلافات وعراك دار بينه وبين بعض جيرانه
- ومن هم؟ هل تعرف أسماءهم؟
- لا، ولكنهم كانوا.. كانوا.. كانوا من الشيعة
- وما الذي يجعلك تتردد هكذا؟ أولاد... وشتمهم، وقال: أتريد دفع التهمة عنهم؟ فقلت:
- لا أريد أن أظلم أحداً، عشت وسطهم سنة كاملة لم أر منهم شراً، وحذرني أبو معاوية رحمه الله منهم.
- ما أطيبك يا دكتور، هذه معلومات في غاية الأهمية، وأكَّدَت شكوكنا حولهم، فقال المندوب مؤكداً:
- يسكتون حين تدعسهم بحذائك، وينتظرون لحظة غفلة لينهشوك، أتعرف أن بعض زملائي رفض أن يلتحق بوظيفته الحكومية في مناطقهم خوفاً من غدرهم؟
- لا إله إلا الله
- لا يخدعنك مظهرهم المسكين، عموماً نشكرك وسنتصل بك لاحقاً إذا احتاج الأمر.
خرجنا وأنا ما زلت لا أصدق، وعرفت من أكرم بعدها أن ديفيد حاول أن يسيء إلى سمعة أبو معاوية ويتهمه بأنه كان إرهابياً يدعو إلى قتل الأجانب والكفار! أكان يحاول أن يدفع التهمة عن أولئك السفاحين أو أن يُحفظ

التحقيق أو يُقيد ضد مجهول؟! طلب استدعاء السفير الأمريكي ليحضر معه التحقيق! ماذا يفعل؟ ما مصلحته؟ استمر التحقيق وبعد أسابيع تم القبض على المتهمين ثم أنهى ديفيد تعاقده ورحل إلى بلاده.

شهران من الكوابيس المستمرة إذا غفوت وهو أمر نادر، أتعارك مع الجميع؛ زملائي في العمل، الفتى، أمين، أختي، زوجتي، بل وضربت ولدي الذي لم يبلغ عامين بعصبية شديدة، أثور فأفقد أعصابي لأتفه سبب أو دون سبب، ثم أثوب إلى رشدي فأعتذر، أقاربي يتحملونني، لكن الإدارة وزملاء العمل يضيقون بتصرفاتي، ثم كان قرارهم بإبُعادي: إلى بارق!

٢٥ ... النمور البيضاء!

ذهبت كل محاولاتي لإثنائهم عن ذهابي إلى بارق أدراج الرياح، وكيف أقنعهم بما لست مقتنعاً به من الأساس؟ حالة من اليأس؛ بارق؟ خميس؟ أي مكان.. ما الفارق؟ النهاية واحدة، وما الذي سأستفيده من الدخول في صراع للعمل في مكان أظن أنه أفضل؟ الله وحده يعلم أين الخير! بل ربما الذهاب إلى مكان جديد أفضل من المكان الذي تشاجرت فيه مع كل الموجودين، بارق أقرب إلى مكة والطريق إلى هناك ليس منحوتاً في قلب الجبال مثل طريق الخميس، استسلمت للأمر الواقع وتجهزت للذهاب، لكن هاجساً مخيفاً يجتاحني بعد كل ما مر بي من أحداث، أترك زوجتي وطفلي عند أمين وشقيقتي حتى أجد سكناً في المكان الجديد وننتقل إليه، يعدني سعيد بشهرين (بدل سكن) كنوع من التشجيع على الانتقال إلى المكان الجديد حيث السكن أرخص كثيراً!

يهاتفني الفتى وكلانا واهن الصوت:

- أنا متأكد أن ديفيد ضالع في الأمر بشكل مباشر أو غير مباشر

- وهل لديك دليل؟

- بل شكوك قوية

- مثلاً؟

- حاول أن يغير سير التحقيق، ثم رحل مباشرةً بعد القبض على القتلة.. فقلت:

- ربما صدفة

- كان يكره أبو معاوية

- لكن هذا ليس دليلاً.. فقال:

- يشك زميل لنا أنه رآه يتحدث قبل الجريمة بأسابيع مع واحد من المقبوض عليهم! فهتفت:

- وهل أبلغ الشرطة؟

- خاف من ديفيد ومنصبه واتصالاته، للأمريكان سطوتهم! وأبلغني أنا بعد أن رحل الكلب

- انظر، بعد تفكير وربط للأحداث توصلت إلى نتيجة
- وما هي؟ فقلت:
- الأمر أكبر من تفكيرنا وإمكانياتنا المحدودة، لا داعي لكل هذه الضغوط على أعصابي وأعصابك، خلال شهرين خسرت في علاقاتي وعملي الكثير
- وأنا أيضاً، أكاد أُجنّ، لكن أريد أن أصل إلى الحقيقة
- ربما ستكشف الأيام عمّا جرى.. فقال:
- أنا متأكد من تورطه، هو من حرّضهم.. فقلت:
- أظن الأمور أكثر تعقيداً، ديفيد يكره الطرفين: القاتل والمقتول.. فهتف:
- صحيح؛ منذ قدومه إلى الشركة كان يجمع معلومات عن جنسية وطائفة كل موظف؛ ويبدي كراهيته واحتقاره للجميع يوم زرتك - شاهدت بنفسي
- لا يحب إلا نفسه ولا يبحث إلا عن مصالحه.. فأكملت:
- لذا، كان يهيج كل طرف ضد أخيه
- كان يريد أن يقتل أي طرف منهما الطرف الآخر
- بالضبط، قبل سنوات قليلة لم نكن نسمع عن الخلافات بين السنة والشيعة
- صحيح
- أظن ديفيد وأمثاله هم من أثاروا تلك النعرات هذه الأيام
- كما أراد الإنجليز إثارة مشكلات بين المسلمين والمسيحيين في مصر أيام ثورة ١٩١٩
- هو ذاك
- تظن الأمر أكبر من الشركة؟
- نعم
- لحظة، فلنراجع الأحداث، هناك جريمة قتل
- وحاول ديفيد أن يوجه التحقيقات بعيداً عن القتلة
- لماذا؟
- ليس حباً فيهم ولكن لتستمر المأساة، ثأر يقود إلى ثأر، ودم يطلب دماً، دائرة شيطانية جهنمية لا تنتهي؛ فهناك آلاف (أبو معاوية) تم شحنهم

عمداً ليكرهوا الشيعة ويرفضوا التعايش معهم، وآلاف من الشيعة تم شحنهم لكراهية السُّنّة.. فقال:
- وما مصلحته؟ قلت:
- وماذا يكسب المحتل من إثارة النعرات الطائفية؟ فقال:
- فرِّق تسُد
قلت:
- صحيح، وربما يريد أن تنهار الشركة، وربما له مصلحة مادية؛ أنت تعمل هناك وربما تعرف بعض الخفايا.. فقال:
- سأراجع المسألة؛ أكيد له مصلحة! لكن ألا ترى أنه لم يحصل عليها.. فقلت:
- فشل وتم القبض على القتلة، هذا ما نظنه، لكنهم سيرسلون لنا ألف (ديفيد) آخر عسى أن ينجحوا في مهمتهم يوماً، قل لي: من أخبرك بأن ديفيد حاول إبعاد التهمة عن الجناة؟ فقال: بعض الزملاء؛ فيم تفكر؟ فقلت: سل زملاءك من الجانب الآخر، فاستنكر: الشيعة الروافض؟! فقلت: ولو بطريق غير مباشر، أجاب: لا أفهمك، قلت: أتوقع أن يقولوا إنه على عكس ما تقول؛ كان يحاول لف حبل المشنقة حول رقاب أبرياء! وسأل وتبين أنهم يقولون إن ديفيد هو من حوّل مسار التحقيق ضد ذويهم! وبعد أشهر تم الإفراج عن المتهمين ثم حُفظت القضية!
يُفتتح مستوصف بارق وأذهب لأرى الأوضاع، بلدة صغيرة؛ عشرات من البيوت متناثرة فوق الجبال القاسية على جانبي الطريق السريع (أبها - مكة) الجو حار جداً في الصيف بارد جداً في الشتاء، المستوصف هو أفخم مبنى في البلدة، يوم وصولي صعدت إلى المختبر في الطابق الأعلى، سمعت جلبة فهرولت لأجد العامل البنغالي قد قتل ثعباناً تسلل من الجبل! الأمر الذي تكرر ثلاث مرات في أول أسبوع ثم صار وجود الثعابين مشهداً معتاداً، أغلب الناس هنا طيبون مسالمون؛ كثير منهم يلفون رؤوسهم بأغصان نبات طيب الرائحة يشبه النعناع ويدقون وشماً على أعناقهم وأيديهم، يفتخرون بأن بلدتهم عريقة جداً! سميت (بارق) لأن سماءها كثيرة البرق في الشتاء، يقولون أن صحابياً جليلاً لرسول الله جاء

منها؛ عروة بن الجعد البارقي؛ أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم درهماً وقال له اشترِ لي به شاة، فاشترى شاتين بالدرهم ثم باع إحداهما بدرهم وعاد إلى النبي بشاةٍ ودرهم! وكأنه جاء بشاةٍ مجانية! فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم بأن يبارك الله له في صفقة يمينه! فلو اشترى تراباً بارك الله له فيه! يقولون إنهم ماهرون في التجارة ببركة دعوة النبي لجدهم! أتفكر؛ لماذا نحن لسنا بمهارة الصحابة وذكائهم! لماذا لا يدرِّسون لنا في المدارس قصص الناجحين والأغنياء والأذكياء من أجدادنا عسى أن نقتدي بهم! الصحابة في أذهاننا فقراء مستضعفون مساكين، لكن ذلك جزء من الحقيقة، لو عاش ديفيد في عصرهم؛ أكان أمثاله يتلاعبون بهم كما يتلاعبون بنا الآن؟ أعود لألوم نفسي على المبالغة في جلد الذات، لكننا على كل حال أقل منهم مهارةً وفطنة! أقضي بعض الأيام أتعرف على المكان وظروفه ويقترب شهر رمضان، لابد من إحضار أسرتي، أبحث عن سكنٍ أياماً فلا أجد شيئاً مناسباً، في كل البيوت عصا طويلة ينتهي طرفها بمثلث صغير يمكنك التحكم به من أعلاها بحيث تغلق ذلك المثلث أو توسعه وتفتحه؛ يستخدمونها لاصطياد الحيات والثعابين!

ينتهز الفتى فرصة أول مأمورية له في الجنوب ويفاجئني بزيارة سريعة، أقول مشفقاً:

- وإلى متى ستظل تتعب نفسك من أجلي؟

- والله أكون متعباً وأنا بعيد عنك، أعانك الله، هل وصلت إلى سكن مناسب؟

- ما زلت أبحث

- هيا معي.. يتجول معي بسيارته في أرجاء بارق حتى خرجنا إلى بلدة مجاورة تسمى (المجاردة)

- المسافة ليست بعيدة، لو أعجبتك شقة يمكنك أن تصل إلى المستوصف خلال عشرين دقيقة

- لابد من سيارة

- ربنا ييسر لك الأمر، ولكن هل لهذا الاسم (المجاردة) أصل؟

- يزعمون أنها كانت قديماً مليئة بقطاع الطرق
- الله أكبر، يجردون الناس من...
- من كل شيء! المزاعم هنا كثيرة، أقسم لي أحدهم أنه من نسل بني إسرائيل الأقدمين وأن مملكة داوود وسليمان كانت هنا لا في القدس؛ وأراني درعاً قديمة عليها نقش نجمة داوود السداسية! أدار الفتى أصابع يده بجوار رأسه يشير إلى علامة: مجنون! فقلت: لكل قومٍ أساطيرهم!
أسأله: هل توصلت لشيء يخص ديفيد؟
- ليس بعد، تبدو بالفعل مؤامرة قذرة! كان يتلاعب بالجميع
لم نصل إلى سكن مناسب؛ لكنه قضى معي يوماً رد إليَّ روحي التي أعرفها بعض الشيء. في بارق رأيت العقارب لأول مرة في حياتي وجهاً لوجه! وشاهدت حيوان (النمس) ورأيت (القنفذ)! وفي الليالي المقمرة يمكنك أن ترى الذئاب على قمم الجبال وتسمع عواءها! تنقطع الكهرباء أغلب الأيام لساعات، حيرة تعصرني: كيف سأحضر عائلتي؟ أثناء بحثي ألاحظ أن الأبواب والأثاث كالمناضد والكراسي والمكاتب والسرير؛ جميعها مصنوعة من الحديد! أسأل متعجباً: لماذا لا تصنعون الأثاث من الخشب؟ فيصدمني الرد: تنتشر الأرَضَة في المنطقة (النمل الأبيض) ويسمونها (الريبا) دابة الأرض المذكورة في القرآن عند موت سليمان عليه السلام في سورة سبأ (فلما قضينا عليه الموتَ ما دلهم على موته إلا دابةُ الأرض تأكل مِنسأته فلما خرّ تبينت الجِنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) وهي تأكل كل أنواع الخشب ولم يجدوا لها علاجاً!!
أضطر إلى استئجار شقة مفروشة مواجهة للمستوصف أنظف نسبياً من أي سكن في البلدة، حيث تتجول تماسيح صغيرة (سحالي مخيفة!) على زجاج النوافذ أحضر زوجتي وطفلي مع أول يوم من رمضان، العمل بسيط، فترة صباحية من التاسعة حتى الثانية عشرة؛ ثم فترة مسائية بعد العِشاء مباشرةً وحتى الواحدة بعد منتصف الليل، ونعود لنصلي التراويح جماعة مع بعض الزملاء، يرفض سعيد أن يدفع إيجار الشقة: لم أقل لك احجز شقة مفروشة غالية! أدفع التكلفة وأحاول مع عمه: لا يوجد سكن مناسب وأنا من البداية أتيت للعمل في الخميس وليس بارق،

أنتم من نقلتموني دون رغبتي، ومكتوب في العقد أن من حقي سكن عائلي مؤثث، يُقنع سعيد بعد جهد أن يدفعوا نصف التكاليف بشرط أن أحضر لهم إيصالاً من المالك! الرجل الضاحك دوماً، ومع الأيام صرنا أصدقاء وعرفني بإمام المسجد عذب الصوت بالقرآن والذي يعمل مدير مدرسة براتب يفوق ثلاثة أضعاف راتبي، بعد لقاءين فوجئت به يطلب مني مالاً: وسأرده لك بمجرد أن أتقاضى راتبي، فقلت: متأسف، ليس عندي ما يفيض عن حاجتي، يحاول معي في المرة التالية فيجد نفس الرد، وكان اللقاء الأخير بيننا، وفيم ينفق كل هذا المبلغ الضخم؟ ولائم وعزومات حيث يتباهى بالذبائح التي يلقي بأكثر من نصفها في القمامة، رحلات سفاري بالسيارات رباعية الدفع في الجبال حيث يصطاد الحيوانات البرية كالسنّور والضباع والثعالب ويحنّطها ليتفاخر بتعليقها على حوائط بيته، يروي أن جده كان يصطاد النمور البيضاء المنقطة بالسواد قبل عشرات السنين، يقسم أنه في إحدى رحلاته شاهد نمراً من النوع نفسه يفترس قرداً فوق الجبل! وبقية أوجه الإنفاق معروفة:

رحلات سياحية إلى الخارج ليرى وأهله الدنيا ويزدادوا ثقافةً!

ولابد طبعاً أن يحصل أولاده على أحدث أنواع (الموبايلات) وأفخر الثياب والأحذية.

أحكي لأكرم فيقول: ثقافة ترف شائعة، النعمة لا تدوم إلا بالشكر! وتلك الأيام نداولها بين الناس؛ النمر الآن يفترس القرود، بينما قديماً كان جده يصطاد النمور!

نقضي العيد مع أمين وأختي، يتفننان في إسعادنا؛ أياماً رائعة بعد فترة عصيبة، ثم نعود لنبحث في بارق من جديد، في النهاية أصل إلى سكن فسيح معقول، بعد محاولات عديدة يتكرم سعيد بالرد، يسألني عن مواصفات الشقة ويطلب رقم هاتف مالكها، أتعجب ثم أعرف من المالك أنه طلب منه أن يقسم الشقة الواسعة بجدار إلى شقتين بحيث تسع أسرتي وأسرة زميل آخر، أتصل به فيتهرب مرات ثم يرد في النهاية ببرود:

- ماذا تريد؟ والله أنا تعبت معك.. يستفزني فأتعصب:

- أنت الذي تعبت؟! وعدتني براتب شهرين بدل سكن، سلمني النقود ولا علاقة لك بالإيجار
- ههههههه لا علاقة لي! ما شاء الله
- طبعاً لا علاقة لك، هذا اتفاقنا، ألا يكفيك أنك نقلتني على غير رغبتي، ورفضت أن تدفع كامل إيجار الشقة المفروشة
- اسمع، سأتفاهم مع المالك وأدفع له الإيجار ولا علاقة لك أنت.. تحول الحوار بعدها إلى طلقات عصبية متبادلة:
بعد كل هذا العناء - لن أقبل أن تقسم الشقة التي اخترتها
- لا يحق لك الرفض ولا القبول، أنت تعمل عندي
- من تظن نفسك؟
- مالك المستوصف
- ولكنك لا تملكني
- والله أمرك غريب، أفتتح مكاناً جديداً لا يدر دخلاً وتريد مني أن أصرف عليك وعلى عائلتك، والله أصحابي يتعجبون حين يعرفون أنني أتحمل تكاليف طبيب مختبر في هذا المكان الذي يكفيه فني ولن يحقق مكاسب قبل سنة
- أصحابك؟! يا لك من مغرور، كنت أعمل في المكان الذي يدر عليك دخلاً محترماً ولم أطلب نقلي، لن أقبل بما تقول ولو على جثتي، أنا مستقيل
- لا تريد الاستمرار معنا؟
- طبعاً لن أستمر معك، العقد بيني وبينك عقد عمل بين طرفين وليس عقد عبودية
- خلاص، تعال غداً، سأبلغ المحاسب ليسلمك القروش
- أحسن
وذهبت، وقابلت عمه فقال بهدوء:
- لكن لم يكن من اللائق أن تصفه بالغرور
- استفزني!
- أستطيع أن أقنعه ببقائك لو قدمت اعتذراً
- لن أعتذر ولو انطبقت السماء على الأرض، الله هو الرزّاق

- وماذا تريد؟
- الرحيل
- يمكننا أن نرتب لك نقل كفالة
- شكراً، أريد خروجاً نهائياً إلى مصر
- كما تشاء.

ورحلتُ، وظلت كلمات أكرم القديمة ترن في أذنيّ: هل ما تفعله صواب؟
لكن ذاكرتي تحتفظ بجدَّين؛ الصحابي الماهر بالتجارة، والرجل القوي الذي كان يصيد النمور... البيضاء!

٢٦ ... فاطمة!

نهايات ٢٠٠٢، أبحث عن عمل: لا تنقطع اتصالات الفتى للاطمئنان:
- وجدت عملاً؟
- ما زلت أبحث، ربما أعود للحكومة
- ولم لا تسافر من جديد؛ فرصتك للعودة متاحة
- نعم، ما زالت اتصالات مكاتب السفريات تتوالى، لكن سئمت الغربة
- لماذا؟ تجربتك كانت قاسية لكن تفاءل بالخير؛ قد تجد مكاناً أفضل
- لم أقرر نهائياً، ما زلت في فترة استعادة التوازن، شركة العقارات أرسلت خطاباً لسداد دفعة الاستلام المبدئي للشقة التي حجزتها وقت وفاة الحاج
- وهل ستتسلم الآن؟
- لا، أسدد فقط
- بمعنى؟
- العقد المكتوب يلزمني بالدفع خلال هذا الشهر، وبعد ذلك نتفاهم، لا أظنهم سيسلمون الشقق قبل سنتين
- هل هناك عمل فعلي أم أنهم متوقفون؟
- هناك عمل لكنه بطيء
- وماذا ستفعل؟
- بعض الحاجزين يريدون أن نتجمع ونلجأ للنيابة، ما رأيك أنت؟
- ما دام هناك عمل فعلي فأنصحك بالصبر، نبني بيتنا في طلخا وأسعار مواد البناء والحديد تتزايد كل يوم
- تلتمس لهم الأعذار؟
- هذه نتيجة طبيعية للأحوال غير المستقرة
- تقصد نتيجة الجشع من أصحاب المليارات، سأصبر من أجلك فقط، اللجوء للقضاء سيعقد الأمور ويطيل الأمد
- تمام، القضاء في بلادنا لا يحل مشكلة! لكن ما علاقة هذا ببقائك أو عودتك؟
- ما زلت في دوامة، عدت فوجدت نفسي غريباً في بلدي، كنت جزءاً من

الحياة فصرت خارج الحياة، تخيل: أمي وإخوتي؛ لا أحد يحتاجني أو يضع رأيي أو وجودي في حساباته! أصبحت مجرد ضيف

- هكذا الغربة: تحولك إلى شِبه إنسان! لا مكان لك في وطنك ولا استقرار خارجه.. فأضفت إلى كلامه:

- وهذا فوق ما جرى معي تحديداً

- نعم، خذ وقتك، لماذا لا تفكر في دولة أخرى؟

- مثل؟

- الكويت، البحرين، قطر، الإمارات

- أحاول، دعواتك، ما أخبارك أنت؟

- أبشرك بأخبار جميلة؛ هل تذكُر المهندس جاد؟

- المصري؛ شريك كفيلك البلشان؟

- نعم هو، أخذ رخصة مستثمر، أعجب بعملي ويريد أن أنقل كفالتي إلى شركته التي تعمل في عدة دول

- رائع، فرصة للسفر ورؤية الدنيا، وماذا تفعل الآن؟

- أمضي في الإجراءات والله المستعان

- وفقك الله

كنت بين اختيارين؛ أبقى في مصر فأعود لمعاناة الحياة اليومية الخانقة والمرتب المضحك المبكي المجنون! أم أعود للغربة حيث الحياة مريحة أكثر ولكنك تفتقد دفء العائلة والجيران والأصدقاء؛ الشوارع والمساجد والنيل والبحر والقاهرة والمنصورة؛ تفتقد الحياة ذاتها!

أجازة سريعة؛ يطمئن الفتى على عائلته الكبيرة ويزورنا، نتمشى في الشوارع نتحاور؛ نصل إلى نهاية منشية التحرير ونعبر شارع عين شمس ثم شريط المترو عبر كوبري المشاة ونسير إلى اليمين فيقول وتدهشني المفارقة: في العالم كله الغرب أرقى من الشرق إلا في هذه المنطقة.. فانتبهت: عين شمس الشرقية بصفة عامة أوسع طرقاً وأرقى مستوى من الغربية! فقال: أما مناطق الشمال في العالم بصفة عامة فأرقى من الجنوب، ضحكتُ فقال: إلا كوريا؛ الجنوبية أرقى من الشمالية، فقلت: أصبحت أنت الفيلسوف! يعود وأستمر في البحث.

ستة أشهر كانت كفيلة بالقضاء على أغلب مدخراتي ولا بد الآن من اتخاذ قرار، تتسارع دقات الطبول تمهيداً لحرب أمريكية وشيكة على العراق رغم تقارير بليكس والبرادعي بعدم وجود أسلحة دمار شامل، أقرأ إعلاناً في الصحف؛ شركة سفريات شهيرة تطلب مقابلة أطباء للعمل بالإمارات؛ أتصل وأحجز موعداً؛ الخميس ٢٠ مارس ٢٠٠٣، أذهب فأجد جموعاً محتشدة بعشوائية وممتدة خارج المكتب! وما فائدة الانتظار وسط كل هذا الزحام؟ سأمضي، ألتقي زميلاً فيخبرني أن تخصصي ليس بهذه الدرجة من الازدحام ويمكنني أن أملأ الاستمارة الآن وأنتظر قليلاً؛ يا فرج الله! تقدمت يحاول الزملاء والزميلات إيقافي بالدفع والضرب! وأنا أهتف: تحاليل يا اخواننا تحاليل! لا تخلو الردود من السخرية: تحاليلي يا امَّه! اتركوه فعلى رأسه ريشة! أصل أخيراً لتقابلني بعض الفتيات الحسناوات.. جداً! أملأ الاستمارة؛ أعيدها ومعها شهاداتي وخبراتي؛ انتظر يا دكتور وسننادي الأسماء، بمعجزة يخلو كرسي فأسارع بالجلوس؛ معارك حقيقية؛ أفتح مصحفي وأعيش معه بعيداً، يؤذن للعصر؛ أبحث عن مسجد قريب؛ أصلي ثم أعود فأجد الكرسي قد ضاع، يؤذِّن للمغرب؛ أذهب للصلاة وأعود لأجد إحداهن تصرخ باسمي:

- أين كنت يا دكتور؟

- كنت أصلي، فهتفَت وكأنني ارتكبت جريمة:

- وهل هذا وقته؟ أهتف باسمك من ربع ساعة، تفضل.. أجد شاباً أسمر يرتدي (الثوب) الأبيض الخليجي وينظر إلى أوراقي، وبجواره رجل خمسيني رمادي الشعر أزرق العينين يجلس خلف شاشة حاسوب، ابتسم الخليجي وقال بلكنة أمريكية:

- أنا وكيل مجموعة تدير مراكز طبية كبرى في الخليج ونحتاج إلى أطباء في كل التخصصات، وهذا السيد أندرسون؛ دنماركي؛ مدير الموارد البشرية

- تشرفنا

- شهاداتك وخبراتك تؤهلك للعمل معنا ولديك ترخيص لمزاولة المهنة من المملكة، هذا يسهل مهمتنا كثيراً، لكن تتبقى بعض الأمور

- وما هي؟
- سنحتاج إلى بعض الأوراق؛ شهادة الامتياز، شهادة التخرج التفصيلية بالدرجات، شهادة حسن سير وسلوك من النقابة، ونحتاج إلى نسخ مترجمة من مكتب معتمد لجميع الشهادات باللغة الإنجليزية
- بسيطة
- عظيم، أنا متفائل بالتعاقد معك
- هل يمكنني قراءة العقد؟
- العقد والراتب ومميزاته تختلف بحسب التخصص والخبرات، سنجهزه وتطلع عليه غداً، لكن تبقى نقطة أخيرة، وجمتُ فأكمل:
- أغلب الأطباء عندنا وأغلب العاملين حاملون لشهادات غربية وبعضهم كما ترى أجانب، عملتَ في الخليج سابقاً لكن لابد من الحصول على ترخيص إماراتي لمزاولة المهنة قبل ممارسة العمل.. تبادلا نظرات لم أرتح لها ثم قال: ستحضُر إلى دُبيّ وتقابل لجنة استشاريين في تخصصك؛ يجرون تقييماً أثق أنك ستجتازه بسهولة؛ تظهر النتيجة بعد أسبوعين تعود خلالهما إلى مصر، التأشيرة والتذاكر والإقامة ورسوم الاختبار على نفقتك، فإذا نجحتَ تعود إلى دبي وتستلم عملك ونعيد إليك كل ما أنفقت، وإذا لم توفق نكون لم نخسر شيئاً ونتمنى لك الخير في أي مكان..
أخذت نفساً عميقاً ثم وضعت رجلي اليمنى فوق اليسرى وقلت بتثاقل:
- معذرةً، لم أسمع جيداً، أعد عليّ ما قلت.. فأعاد، فقلت:
- لن تنالوا شرف أن أعمل معكم، من فضلك أعطني أوراقي ضحك وقال:
- لا يُسمح باستردادها يا دكتور، هذه شروط الإعلان.. أقول في نفسي:
مغرور تافه؛ الغضب بداخلي يكفي أن أسحقه ومن بجواره، ما الذي جاء بكم؟ فليذهب كما قال وليحضر أطباء من أوروبا أو أمريكا؛ وسيُقبِّل الأرض تحت أقدامهم ليحضروا تلك المقابلة المزعومة إذا حضروها!

وسيدفع كل التكاليف صاغراً، وسيمنحهم أضعاف راتبي، كلا؛ لن أقبل هذه المهانة أبداً.

رفعت صوتي عامداً:

- ولكني سآخذها على أي حال، لن تفيدكم بشيء، أعطني أوراقي قبل أن أرتكب جريمة.. امتقع لونه ثم ناولني الأوراق وقال:

- فكر ثانية، هذه فرصة العمر

- الأرزاق على الله

هتف الدنماركي بإنجليزية متكسرة:

- انتظِر دقيقة.. وعاد إلى الكومبيوتر ثم تبادلا همسات وإشارات، عاد الشاب المغرور وقال:

- ولا يهمك، سنتحمل إقامتك مدة الاختبار.. فابتسمت وقلت:

- وكل التكاليف.. فقال:

- لا.. فتركتهما، وخرجت

الساعة تجاوزت الثامنة؛ أسير تلفحني رياح الخماسين الخانقة، أكانت ثورة من أجل كرامتي أم عصبية غرور هوجاء؟ أستوقف سيارة أجرة وأعود، أتناول الطعام وأحكي لأمي المنتظِرة بلهفة عن المقابلة العظيمة، تشاهد زوجتي فيلماً قديماً؛ الزوجة الثانية، أجلس فاقداً للإحساس بأي شيء وبكل شيء، الليلة يا عمدة، حبكت، السُلطة الفاسدة؛ العمدة وزوجته لكن لا وريث، أتباعه من المنتفعين والخائفين كشيخ الغفر وجنوده المسلحين، حلفاؤه كمأمور المركز الذي يراعي مصالحه مقابل ولائم الفطير والبط؛ البسطاء المساكين كأبو العلا وزوجته الجميلة فاطمة، يطمع العمدة في فاطمة الولود الخصبة كمصر؛ فيجبر أبو العلا على تركها ويجبرها على الزواج منه قبل أن تنقضي عدتها بمساعدة الشيخ الأفّاق: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم يا ابني!- تتمنع بكل الطرق وتتفنن في جعله- وهو البخيل العابد للمال- ينفق كثيراً

ولا ينال منها شيئاً، ثم تكون ذروة الأحداث: فاطمة حُبلى! ممّن؟ مِن زوجي، لم يحدث! لم أمسّك، وهل أنت زوجي؟ ينتشر خبر حملها فيحاول الجميع أن يحصلوا منه على مزايا أو يستردوا حقوقهم المنهوبة، تسحقه المفارقة فيصاب بالشلل! تقوم فاطمة برد الحقوق إلى أهلها وتعترف لأخيه بحقيقة الأمر وتعود إلى زوجها (دنيا وفيها كل شي وكل من جاها مشي وكل ظالم انخسف وكل مظلوم اتنصف) لعب عصير الليمون برأسي! هذا الفيلم كما هو تلخيص لحالنا مع حكامنا فإنه تلخيص متفائل لحالنا مع ما يسمى بالقوة العظمى- أمريكا!

غرفة صغيرة؛ يهيمنون على كل شيء ويتجسسون على كل فرد! الورق ورقنا والدفاتر دفاترنا، ونحن ضعفاء مهزومون! فهل تستطيع فاطمة المسكينة أن تتمنع عن بطشهم؟ ينتهي الفيلم وأنتظر حتى ينتصف الليل لأهاتف الفتى، يغلق الخط ليتصل، لا يليق أن يتحمل المكالمة وقد طلبته لتهنئته بيوم مولده؛ أُغلقُ وأتصل مرة أخرى، يأتيني صوته المبحوح مغالباً النوم:

- حبيبي، أخبارك؟

- الحمد لله، كل سنة وأنت طيب، تحتفل إن شاء الله بمائة وثلاث وثلاثين سنة سعيدة

- يا الله، بارك الله فيك، وأنت طيب وبخير وسعادة

- طبعاً أنا أول من يهنئك

- لا، سبقتك أم عمر

- سلامي لها وللفتيان

- تسلم، ماذا فعلت في مقابلة الإمارات؟

- لا شيء، قل لي أولاً هل أم عمر عملت لك التورتة المتينة؟

- غداً إن شاء الله، قل لي بجد ماذا حدث في المقابلة؟

- لم نتفق، لم يعجبني كلامهم

- وماذا ستفعل؟

- لم أفكر بعد، رجعت وأكلت وشاهدت صاحبك صلاح منصور ثم كلمتك

- الزوجة الثانية؟

- صحيح

- ولم تشاهد الجزيرة، الحرب بدأت... انتبهت فجأة

- لا إله إلا الله

- أمريكا جاءت لحتفها، ستنتصر العراق

- لا أظن، جاؤوا ليدمروا المنطقة ويستولوا على نفطها وخيراتها

- وسيدمرهم جيش العراق بإذن الله، شاهد (الصّحّاف) وزير الإعلام العراقي يتكلم بكل قوة

- يا ليت الكلام يفيد.. أنهيت المكالمة؛ شاهدت الجزيرة سريعاً وذهبت لأنام مرتعداً من مستقبل مخيف: يا رب نجِّ فاطمة!!

٢٧ . . .دمار شامل!

وكيف يمكن أن تنجو؟ يبدو العالم قبيحاً جداً.. فاسداً جداً.. قذراً جداً، هل الغزو خطة معدة سلفاً؟

لا يتوقف الهاتف عن الرنين من مكاتب التوظيف، ترجوني أمي أن أتوقف عن البحث في عقود الخليج خلال تلك الفترة المليئة بالترقب والخوف، أقول:

- قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، فتقول:

- ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة... لا أعرف ما ينبغي عمله؛ أسافر من جديد في ظل هذه الأوضاع المتفجرة؟ أم أبقى في مصر حيث المعاناة اليومية والمرتب الذي لا يكفينا خبزاً.

- يا ابني خليك معنا وبارك الله فيما رزق، أقول صادقاً:

- كل مدخراتي طارت.. تنظر إليّ حانيةً وتقول:

- ولو يا حبيبي، عِش كما نعيش جميعاً وربنا سيرزقك في أي مكان

- ونِعم بالله، حاضر يا أمي، من أجلك فقط

يهاتفني، نتحاور فأقول:

- يخططون ولا نخطط

- وينفذون ولا نتحرك

- بالأمس رأيت جندياً من الأوغاد يفتش عجوزاً عراقية مسكينة تفتيشاً مهيناً وأمامها زميل له يهددها ببندقيته وقد ارتسم على وجهها رعب الدنيا

- الكلاب، ومات المعتصم!

- نحن الذين فرّطنا في حقوقنا حتى حكمنا أمثال صدام بالحديد والنار

- معك أنه ديكتاتور لكنه رمز للعزة العربية

- العزة! هو فقط نموذج مختلف من الطغاة، العزة أن يكون الإنسان إنساناً في وطنه

- تيه نتخبط فيه حتى أصبح من الصعب أن نفهم ما يجري يقيناً

- تركنا أولئك الطغاة يتحكمون في شعوبنا وظللنا نتنازل مرة تلو مرة، كانت المعادلة: اخرس لتأكل

- ثم صارت: اخرس لتعيش، ثم طبِّل لتعيش!
- وكلاء عن أعدائنا، يسرقوننا ويقدمون بعض ما سرقوا قرباناً لسادتهم الكبار؛ أمريكا والغرب، الفرق ربما أن صدام رفض أن يسلمهم ثروات العراق طائعاً
- لذا أقول إنه احتفظ ببعض العزة والكرامة
- وما الفرق؟ لو أقام حكماً عادلاً لما استطاعت جيوش الدنيا أن تقهره فتحتل أراضينا وتسرق ثرواتنا
- ألا تبالغ؟ العراقيون يحبون صدام، وأمريكا وحلفاؤها يلفقون تهماً يعرف الجميع كذبها كي ينهبونا
- لن أجادلك، لكنه كان ديكتاتوراً دموياً أسكت أي صوت للمعارضة وقتل الآلاف، إذا قتلت أبناء شعبك فسيأتي العدو ليقتلك ويقتل شعبك
- ألا ترى كذبهم؟ قالوا قبل الحرب: لدينا أدلة قاطعة أن العراق تمتلك أسلحة دمار شامل
- نعرف أنهم يكذبون، ويعرفون أننا نعرف! ومع ذلك لا يكفون عن الكذب ولا نستطيع أن نردهم؛ بلطجة!
- وهل أسلحة الدمار الشامل محرمة على الجميع أم على أمتنا فقط؟
- نعم
- ومحرم عليهم استعمالها إلا ضدنا
- تلك هي الخلاصة
- وهل اكتشفوها؟ فقلت:
- بل أرسلوا المفتشين من الأمم المتحدة فقال كبيرهم (هانز بليكس) أنها غير موجودة
- وقال البرادعي أن المفتشين يحتاجون وقتاً أطول ليتأكدوا
- لكن السادة قالوا: وهل نصبر؟ فقال ساخراً:
- يخفيها العراقيون في أماكن سرية وسنكتشفها وندمرها
- وعندما اكتشفوا وجود صواريخ (صمود) مداها مائة وخمسين كيلومتراً- وهذا مرفوض فالمالك عربي- أعلن صدام استعداده لتدميرها
- لم يرضِهم ذلك

- هدفهم لم يكن تدميرها
- نعم، كان لابد من حصار يقتل الأطفال
- ولابد من حرب تأكل الأخضر واليابس
- ولابد من احتلال صريح
- صحيح؛ احتلال انتهى من الدنيا كلها إلا أمتنا المسكينة
- فلسطين والعراق
- للأسف.. ثم قال:
- وماذا ستفعل أنت؟
- سأعود إلى عملي الحكومي وأبحث عن مستوصف مسائي وأدور في الطاحونة
- ربنا يصلح لك الأحوال

وتتبين الحقائق: كان لابد من "حرب صليبية" كما قال بوش بلسانه! والهدف: تدمير كامل لجيش العراق واستيلاء كامل على ثروات العراق، أعلن صدّام قبل الحرب استعداده للتعاون مع المفتشين الدوليين فخرج بوش ليقول إن الحرب وشيكة جداً! وأعلنت بريطانيا ستة شروط لتجنب الحرب؛ أحدها أن يعترف صدّام بامتلاك أسلحة دمار شامل، وكيف يعترف وهي غير موجودة؟!

تعترض فرنسا وألمانيا وروسيا على الحرب- ربما كنوع من تقسيم الأدوار! كما يصطادون الأفيال؛ يضعون في طريقها حفرة كبيرة ويغطونها بالطين، تسقط الأفيال فيقوم فريق يرتدي اللون الأحمر بضربها وتعذيبها وفريق آخر يرتدي اللون الأزرق يقدم لها الطعام، تنقضي عدة أيام فيسحبها الفريق الأزرق دون مقاومة لترويضها في السيرك أو حبسها في حديقة الحيوان! تعلن أمريكا وبريطانيا: سنقاتل حتى لو رفضتم، سنقاتل حتى دون موافقة الأمم المتحدة، والحقيقة كانت قتلاً لا قتالاً! يثور سؤال ساذج: أين العرب؟ يتظاهر شباب الجامعات؛ يهتفون: واحد اثنين الجيش العربي فين! اِبحث وفتِّش فلن تجد أحداً واصرخ واهتف فلن يجيبك أحد، الأولى أن يهتفوا: أين الجيش المصري؟ فالمصريون رُبع

العرب! إذا نهضت مصر قوي العرب، وإذا انهارت سقط العرب! ومصر ضعيفة منهوبة تعيش على المعونات!
وبدأ الغزو، في اليوم التالي تُظهر الأرقام حقيقة لا تحتاج تعليقاً: تطلق العراق تسعة صواريخ؛ فتقوم طائرات الأمريكان حامية حقوق الإنسان وراعية الشعوب المستضعفة بألف طلعة جوية وتطلق ألف صاروخ على النساء والأطفال! وبعد أسبوع يعود بليكس ليعلن أن الغزاة لم يقدموا دليلاً واحداً على وجود أسلحة الدمار المزعومة! أما شعوبنا فتشاهد الأحداث كأنها مسلسل تسلية عبر الشاشات وتتندر بأقوال صدام الطريفة مثل (النشامى والأشاوس) يمدح جنوده، وكلمات الصَّحّاف مثل (العُلوج) يسُب بها القوات الغازية.
أعود إلى العمل؛ أتعرف بزملائي الجدد في مركز صحي متهالك بمدينة السلام، أقف متحرجاً ليقولوا ببساطة:
- عليك أن تحضر كرسياً لنفسك.. أتعجب فيقولون:
- كلنا كذلك
تسألني موظفة المرتبات بعد أن تفحصت يديَّ:
- أنت متزوج يا دكتور؟
- وعندي ولد والحمد لله
- ولماذا لا ترتدي (دبلة)؟ ضحكتُ وقلت:
- تخنقني، ولكن لماذا تسألين، أعندك عروس لي؟
- لا، ولكن لابد أن تحضر قسيمة الزواج وشهادة ميلاد المحروس
- لماذا؟
- من أجل العلاوة.. ابتسمت وأنا أقول في نفسي: لن تزيد عن خمسين جنيهاً لن تفعل شيئاً أمام وحش الغلاء، فقلت:
- كم يعني؟ وهل تستحق العناء والانتظار والجري على المكاتب؟ فقالت بجدية:
- جنيهان للزواج وجنيهان للطفل الأول.. ضحكتُ حتى سقطت دموعي فقالت زميلتي طبيبة الأطفال:

- ولا نقبضهما كاملين، يخصمون عشرة بالمائة ضريبة؛ فنزيد مائة وثمانين قرشاً كاملة!

يمر أسبوع ثان؛ يعلن وزير خارجية العراق مقتل أكثر من ألف عراقي أغلبهم من المدنيين؛ وفي مفارقة مبكية يعلنون أن القتلى من الأوغاد لا يتجاوزون سبعين قتيلاً أغلبهم قُتلوا بنيران صديقة! وفي نفس اليوم تعلن أمريكا أنها ستحرم فرنسا وألمانيا وروسيا من عقود إعادة إعمار العراق زيادةً في تأكيد الواقع المرير؛ أصبحت أوطاننا نهباً مباحاً، تعبر المدمرات الأمريكية والفرقاطات البريطانية "قناة السويس" لتتجه إلى "الخليج العربي" لتضرب العراق، ويرفض البرلمان التركي استخدام أراضيها لضرب شمال العراق! حقاً: أمجاد يا عرب أشتري الكرسي وأشترك مع الزملاء لإحضار (مروحة) بالجهود الذاتية!

راتبي الأساسي مائة وخمسة وأربعون جنيهاً، يصل بعد الحوافز إلى ثلاثة أضعاف هذا المبلغ، العمل مرهق بعيد؛ ثلاث مواصلات لا تصلح بعضها لنقل الحيوانات، كان لابد من شراء سيارة تحفظ بعض آدميتي، اضطررت لبيع الشقة التي حجزتها قبلاً! يبدو أننا في زمن الاستئجار لا التملك! أعود من العمل منهكاً ولا يمكن الذهاب إلى عمل إضافي لم أتمكن أن أبحث عنه من الأساس!

يعلن بليكس أن الحرب كان مخططاً لها من فترة طويلة وأن أسلحة الدمار الشامل كانت مجرد حجة فارغة بلا دليل، يوجه بوش وبلير رسالة مشتركة للعراقيين- تشبه رسائل بونابرت عندما احتل مصر- (العراق الجديد لن تحكمه بريطانيا ولا أمريكا، بل الشعب العراقي، أموال النفط ستكون أموالكم وستُستخدم لتوفير رخائكم) فتطلق أمريكا القنابل العنقودية المحرمة لقتل المدنيين العزل!

سقطت بغداد في إبريل، يعلن الأمريكيون أن العراقيين مبتهجون لسقوط الطاغية، بينما العراقيون يتظاهرون رافعين لافتات عبقرية (بوش=صدام=شارون) ويعترف الأمريكيون بفشلهم في العثور على أسلحة الدمار الشامل، ويقول بوش: صدام دمرها قبل الحرب (وقد لا يتم العثور عليها!) ثم يقول وزير خارجية بريطانيا (جاك سترو) أنه لا يوجد

أي دليل على امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل وكأنه يخرج لسانه ليغيظنا! وفي ١٣ ديسمبر يتم القبض على صدّام في تكريت في عملية (الفجر الأحمر)
أدور بأمي المريضة على المستشفيات؛ تكاليف الكشف والعلاج تتجاوز مبلغ معاشها الشهري وتتجاوز راتبي وتتجاوز ثمن ذهب زوجتي، لدى أمي علبة قديمة تحتفظ فيها ببعض حُليها وذكريات عمرها السعيد مع أبي رحمه الله، تفتحها: خذ يا حبيبي؛ بعها
فقلت: لا يا أمي؛ سأتصرف.. أختنق بالعبرات، أطلب سلفة من الفتى فيرسل المال بكرمه المعهود؛ أضعه في علبتها وتتحسن الأمور قليلاً، لا حل إلا بيع السيارة والعودة إلى عناء الميكروباصات!
أذهب للاشتراك في مشروع نقابة الأطباء للعلاج فقد انقرض الجيل الذي يعالج زملاءه وذويهم بالمجان، لا أستطيع دفع الاشتراك؛ مئات الجنيهات! قلت لهم: أريد الاشتراك لأمي فقط، فرفضوا: لابد من اشتراك لك ولأسرتك أولاً! أعود خائباً، تمضي أسابيع، لا يطلب أخي الأصغر الذي يعيش معها أن أحضر أدويتها المعتادة، هل كانت السلفة كافية لسداد ثمنها؟ أنتظر شهراً آخر فلا يطلب شيئاً، هل هبطت عليهم ثروة من السماء؟
يهاتفني أكرم:
- هناك فرصة عمل لي في العراق
- أتمزح؟
- لا؛ انتهت الحرب؛ بدأت أعمال الإعمار وشركتنا أخذت مقاولة من الباطن لتركيب أبراج المحمول؛ وبمرتب وهمي
- الله الغني؛ ما زال الأمر خطيراً؛ اصبر حتى تتبين الأمور.. يجيبني بنفس كلماتي لأمي فأرد بنفس كلماتها، يضحك ويقول:
- اطمئن، عمر الشقي بقي... يخبرني أنه رفض العرض- المغري بحق-! ولكنه أراد أن يعرف رأيي.
أفتح العلبة فأجدها خاوية، أسأل أخي فيقول: ربك اسمه الرزاق، أُلِح عليه فيتهرب، أسأل أمي لأتلقى مفاجأةً مذهلة: أختك ترسل لنا مبلغاً

شهرياً من المملكة، لا أتمالك نفسي؛ أصرخ في وجه أخي فاقداً أعصابي: أختي لا تعمل، يعني هذا مال أمين، أتعي ما يحدث يا أستاذ يا ابن الأصول؟ أصبحنا نعيش على المعونات من الخليج؟ ما هذه المهانة؟ تقول أمي: هون عليك يا حبيبي؛ أمين أخٌ لك، تصيبني الكلمات في مقتل: يا أمي لا ألومه طبعاً، ربنا يجزيه كل خير؛ لكني لا أقبل هذا الوضع، تبكي وترد: اعتبرها ديناً ترده حين تتحسن الأحوال، أصرخ في وجه أخي من جديد: ولماذا لم تخبرني؟ فقال: ظروفك واضحة؛ من لا يرى من الغربال أعمى، عدت ألوم نفسي: كيف وصلنا دون أن أشعر إلى تلك الدركات؟ وبعد نحيب الألم كان قراري...!

ستأخذ سيارتي!... ٢٨

وهل كان يمكنني البقاء؟ يهاتفني الفتى:
- المهندس جاد في مصر وأريد أن تلتقيا
- أهلاً وسهلاً، يشرّف في أي وقت
- أريد أن تذهب أنت إليه؛ معذرةً فهو مشغول جداً
- ولماذا؟
- يجمع بعض أقارب والدي تبرعات ليقيموا مشروعاً خيرياً؛ مسجد ومشغل فتيات ومجموعات تقوية، والمهندس جاد يريد التبرع لكن وقته ضيق، بعد إذنك تذهب إليه في مكتبه بكوبري القبة
- ثم
- يسلمك المال وتسلمه لأخي الأكبر؛ سيمر عليك في طريقه من غارب للمنصورة
- ربنا يتقبل منه ومنك
- ومنك أيضاً
- أخبار عملك؟
- أتجول في أرجاء المملكة! ما أخبارك أنت؟
- راحت السكرة، يبدو أن لا عيش لنا في بلدنا
- ستسافر من جديد؟
- أكيد
- إلى أين؟
- إلى أي مكان أحصل فيه على ما يحفظ ماء وجهي، لا أستطيع شراء أدوية أمي
- لا حول ولا قوة إلا بالله، يمكنني المساعدة
- الأمر تخطى حدود المعقول
أذهب، شاب يكبرنا ببضع سنوات؛ يقول ببشاشة:
- أهلاً يا دكتور شرفتنا

- أهلاً بك
- ابن خالتك هذا يحبك بشدة؛ لا يكف عن الحديث عنك، ماذا تشرب؟
- ربنا يكرمه ويحفظك، لا شيء، أشكرك.. يطلب لنا الشاي فأخبره أنني أشربه بدون سكر، يقول:
- بالمناسبة؛ هو مقنع جداً
- مقنع؟
- أقنعني أن أتبرع للمشروع الخيري في بلدهم؛ كفر...
- كفر شريف
- بصراحة لم أر في حياتي مثله
- عندك حق.. يرد على هاتفه ثم يقول:
- لا تتخيل ما حدث عندما انتقل للعمل معنا بالرياض
- ماذا حدث؟
- كثير جداً، مثلاً: قبل مجيئه كانت السرقة من العهدة متكررة فلا يمر شهر إلا ونخسر آلاف الريالات، أما الآن فأترك له مفاتيح المخازن وأسافر بكل اطمئنان
- أهم ميزاته الأمانة
- ومع ذلك يتمتع بحب الجميع
- وما العجيب في ذلك؟ روحه مرحة ويحب الضحك والفكاهة.. ابتسم لأنني لم أتنبه إلى المفارقة وقال:
- لكنه يدقق في كل صغيرة وكبيرة ولا يترك هللة إلا ويحصلها لمصلحة الشركة، والأكثر؛ أجرى تعديلاً على إحدى الآلات وقّربه الآلاف، ابتسمت وهو يتلقى اتصالاً هاتفياً ثانياً، وقلت:
- عظيم.. أنهى المكالمة وبدا أنه فهم معنى ابتسامتي فقال:
- وأنا أقدره وأحترمه جداً والله وسأمنحه علاوة مع أول تجديد للعقد
- جزاك الله خيراً
- معذرةً، لدي موعد هام، سأوصلك إلى أقرب مكان تريده.. ناولني مظروفاً مليئاً بالنقود، وقال: تفضل.

- لا داعي لتعبك، سأركب تاكسي.. أذهب مليئاً بالفخر والسعادة؛ لم أستطع الانتظار فاتصلت بأكرم في الطريق:
- ما شاء الله، يحبك ويذكرك بكل خير
- وأنا والله أحبه، لكن أريد الاطمئنان على أخبارك
- الحمد لله
- هل وجدت فرصة؟
- ما زالت اتصالات المكاتب تتوالى
- تعال إلى الرياض
- سأحاول لكن أتمنى التعاقد في مكة أو المدينة، أحتاج مكاناً أرتاح به نفسياً بعد كل تلك التجارب.
يأتيني التعاقد؛ مستوصف خاص بمكة المكرمة، راتب يقل بحوالي ألف ريال عن بقية الأماكن، تنازلت عن الفارق راضياً من أجل جوار الحرم، خلال أسابيع أنهيت الإجراءات ثم غادرت من جديد؛ إلى البلد الحرام. أصل أواخر يناير ٢٠٠٤، تنقضي أيامي الأولى سعيدة؛ يستأجرون غرفة في فندق قريب من الحرم أقيم بها ثلاثة أيام متفرغاً للعبادة قبل أن أذهب لأتسلم العمل؛ أتصل بصديقي (الفقي) الذي يعمل بجدة ونتفق على لقاء قريب، يهاتفني الفتى:
- شيء يدعو إلى التفاؤل
- منتظرك في أول عمرة
- قريباً إن شاء الله
أتسلم غرفة (عُزّاب) يرافقني فيها الدكتور عادل أخصائي الأشعة والذي يكبرني بخمسة وعشرين عاماً، عمل في الكويت لمدة ربع قرن تخللتها عودة سريعة إلى مصر وقت الغزو العراقي، كبر الأولاد والتحقوا بالجامعات فعاد إلى مصر وبنى بيته بفيصل لكن مصروفات الأبناء زادت ويريدون الزواج؛ فبحث عن عقد جديد وجاء! الرجل شديد الهدوء يبتعد عن أي مشكلة ويعامل الجميع كأب حنون، تمضي الحياة لا يكدرها إلا بعض مشاكل العمل المعتادة؛ لا يوجد فني ولكن ممرضة فلبينية لسحب العينات؛ وبعد ذلك فكل شيء أعمله بيدي، نعمل فترتين يومياً، وفي يوم الأجازة

نصلي الجمعة ثم نحضر السمك المشوي ونتغدى، نذهب معاً إلى الحرم قبيل المغرب فنطوف ونصلي المغرب والعشاء، يتأمل الكعبة متيماً حوالي ساعة بينما أصلي النوافل وأقرأ القرآن؛ ثم نعود إلى السكن القريب من المستوصف، نظام لم يتغير كثيراً حتى بعد استقدام أهلي واستلامي شقة (عوائل) يعرف أكرم بموعد قدوم أسرتي فيحضر في (مأمورية) إلى جدة قبل الموعد بأيام؛ يأتي محملاً بكميات هائلة من اللحوم والدجاج وكراتين الفواكه؛ فلم يكن يحضر الفاكهة كما نشتريها (بالكيلو!)

- وأين سأذهب بكل هذا يا فتى؟

- ماذا تعني؟

- الثلاجة لا تكفي لحفظ كل هذه الأطعمة؛ ستفسد قبل أن نأكلها

- اصنعوا مربَّى

- ولو، وزوجتي ستحضر معها كثيراً من اللحوم والطيور

- أعطوا منها لجيرانكم لعلهم يدعون لي ولكم! قل لها تحضر لي فسيخاً!

فقلت ممازحاً:

- لا أحبه.. فقال:

- سآكله وحدي

- سيفسد رائحة الحقائب

- سأكلمها بنفسي.. في اليوم التالي يأتي مُحرماً لأداء عمرة فأذهب معه ويأتي الدكتور عادل معنا؛ يتصادقان خلال دقائق صداقةً متينة! عجيب أمر الفتى؛ يكسب قلوب الناس بسرعة ويُسر! طوال العمرة يمسك بيد الدكتور عادل ويساعده ويقوم بتعليمه المناسك في بساطة وصبر. بعد يومين يأتي ليستقبل عائلتي معي في مطار جدة ويجهز الشقة معنا، جاء وحده؛ أولاده في مصر حيث دخل عُمَر عامه الدراسي الأول، يلاحظ أن حالة سيارة المستوصف التي عدنا بها من المطار إلى مكة متهالكة تنبعث منها رائحة كريهة تشبه رائحة (الجاز) يقول لي: المحرك (مِبوِّش)! يسأل زوجتي بالتفصيل عن أخبار مصر وأهلنا فلا ينسى كبيراً ولا صغيراً، عائلاتنا متداخلة بشكل عجيب؛ فزوجتي ابنة خالي وابنة خاله، وزوجته بنت خاله أي بنت خالي وبنت عم زوجتي، أما أخته الوسطى فمتزوجة

من ابن خالتي وهو في الوقت نفسه ابن عمي، وأخوه الأكبر متزوج من ابنة قريب لوالده، وأخوه الأصغر متزوج من الشقيقة الكبرى لزوجة أخي، والأختان هما بنتا شقيق زوج أخته الكبرى! متاهة كانت سبباً لتعميق الصلات غالباً ولإثارة بعض المشاكل أحياناً! يركز في سؤاله تحديداً على صحة والده ثم يقول: ربنا يعافيه ويخفف آلامه، يبيت في الغرفة المخصصة للأطفال؛ ندخل لننام ثم نستيقظ في اليوم التالي- الجمعة- لنجده قد حمل بمفرده (البوتاجاز) الثقيل ليدخله في فراغه المناسب بين قطعتي الرُخام وقام بتثبيت أسطوانة الغاز تحت إحدى الرُخامتين!

تتعجب زوجتي:

- لماذا يا أكرم؟

- وكيف كنت ستتعاملين مع البوتاجاز وهو موضوع هكذا في منتصف المطبخ؟ فقلت:

- لماذا لم توقظني لأساعدك؟

- لم أرد إزعاجكما والأمر بسيط

تعطيه زوجتي (الفسيخ) ويعود إلى الرياض فيتصل بعد يومين ليقول بعد السلامات:

- سأبيع لك سيارتي

- ماذا؟

- في شركتنا يتخلصون من السيارات التي مضى عليها خمس سنوات؛ بعضها في حالة ممتازة كالجديدة، سأشتري واحدة وأرسل لك سيارتي الحالية

- وصلتُ من شهرين وتعرف نفقات الاستقدام وتجهيز الشقة...

- لا تقلق، سدد ثمنها على مهلك، أرسل لي فقط صورة الإقامة لأبدأ إجراءات نقل الملكية

- لكن

- بدون لكن، لا يصح أن تذهب بعائلتك إلى الحرم بسيارة المستوصف الخربة؛ صحتكم لا تتحمل

- لا نذهب بتلك السيارة إلى الحرم، نأخذ سيارة أجرة
- ولا يصح أن تذهبوا بسيارة أجرة
- لماذا؟ يضحك ويقول:
- انتهينا، أوقعت بك في الفخ
- كما تريد، ربنا يجزيك عنا كل خير... تمر بضعة أيام ويرسلها عن طريق شركة نقليات، أتسلمها وأدعو له، تمر أيام وتأتي مناسبة يوم مولده الرابع والثلاثين، أتصل به
- أين أنت يا مولانا كل سنة وأنت طيب وبألف خير، تعال نعمل لك تورتة متينة ونشعل الشموع
- ههههه، يا أخي لا تنسى أبداً! سأحاول، يمكن آخر الأسبوع
- نحن في انتظارك
- ربنا ييسر الحال
أذهب إلى عملي في اليوم التالي، أعود فأفتح التلفاز ليصعقني الخبر: الصهاينة الجبناء أحفاد القردة والخنازير، وقتلة الأنبياء والمصلحين، ومسعري الفتنة والحروب في كل مكان وزمان...

فلا نامت أعين الجبناء! ... ٢٩

اغتال الصهاينةُ شيخ المجاهدين البطل أحمد ياسين الذي أنشأ مع إخوانه حركة حماس التي أحيت الجهاد بعد أن كادت قضية فلسطين تُصفَّى نهائياً، تصيبني حالة غير طبيعية؛ يهاتفني الفتى:

- أرأيت ما فعل الجبناء؟
- حقاً؛ أحفاد الخنازير
- صوتك مختنق بالبكاء
- وكذلك صوتك؛ سمعت بالخبر فانخلع قلبي
- ماذا تفعل الآن؟
- ماذا أفعل؟ كما نفعل كل مرة؛ العجز والبكاء
- اهدأ حبيبي، وتيقن أن الله لن يضيع دماءه هباءً
- أتنقل غير مصدق بين الفضائيات وكأن الخبر مفاجئ رغم أن الشيخ تعرض قبلها إلى عدة محاولات لاغتياله، الكل ينعي ويصرخ
- يبدو أن هذا آخر ما يستطيع العرب! يغتال المجرمون أشرف أبطالنا فلا نملك إلا ردود أفعال باهتة؛ شجب وتنديد وبضع مظاهرات هنا وهناك
- الشيخ المهيب مبحوح الصوت الذي لا يهادن المغتصبين ولا يخشى في الحق لومة لائم، الرجل المصاب منذ بواكير شبابه بالشلل تحرك حتى أقض مضاجع السفاحين ونحن لا نملك إلا الدموع
- لا نامت أعين الجبناء
- لا أصدق؛ أكان يسعى بيننا حقاً، كيف لم نحمه بأنفسنا وأجسادنا، كيف لم نفده بأرواحنا؟
- كان أسطورة حقيقية، لو آذته ذبابة لما استطاع أن يردها، ولكنه أنشأ جيلاً أعاد بالحجارة والمتفجرات البدائية قضية الأقصى إلى الصدارة
- الآن يعيدون جزءاً من حلقته على الجزيرة
- نعم أشاهد، الآن سيقول أنه طالب للشهادة، اسمع: هذه الحياة تافهة رخيصة، نحن نسعى إلى الحياة الأبدية

- نال ما تمنى، لا نبكي عليه بل نبكي على حالنا من التخاذل والهوان، أحتسبه شهيداً ولا أزكي على الله أحداً
- انظر الثبات؛ يقول: لا أرجو إلا أن يرضى عني ربي
- اللهم ارض عنه وثبت المجاهدين من بعده.. بكيت وبكى بشدة وقلت:
- معذرةً سامحني سأغلق الخط.. فقال:
- أنا في طريقي لأقوم بعمرة عن الشيخ
- الله أكبر، فلتكن العمرة عمرتين؛ منتظرك يا حبيب.. بالطائرة جاء، ألقاه خارج الحرم، نتعانق وندخل، يقول:
- يا الله، وجهك شديد الشحوب
- لم أبك مثل اليوم إلا يوم وفاة والدي
- ألم تكتب شيئاً من قصائدك عن الشيخ؟
- أبياتاً ساذجة؛ أقل كثيراً من جلال الحدث، وماذا تجدي الأشعار في هذه المواقف؟
- أريد أن أسمعها
- ندعو له الآن؛ ونتفاهم بعد العمرة.. نطوف، نشرب ماء زمزم، نصلي، نسعى، نحلق، يُذكرني مع كل منسك بأن أتخيل أن الشيخ هو الذي يعتمر وأتصرف على هذا الأساس! عادته بعد كل عمرة أن يأخذ برأسي الحليق ويقبلها، ثم يقول مبتسماً:
- تقبل الله
- تقبل منا ومنكم صالح الأعمال، وربنا يجعلها في موازين حسنات الشيخ، نخرج مع منتصف الليل لنصل إلى سيارتي/سيارته التي صففتها بجوار الحرم غير عابئ بتحذيرات الناس: هنا ممنوع؛ سيرفعونها، نجدها في مكانها فيتعجب:
- لم يرفعها ونش المرور؛ بركات الشيخ! أبتسم في وهن وأسأله:
- متى عودتك؟
- لم أجد حجزاً للعودة وسأجد غداً طريقة إن شاء الله
- كان يمكنك تأجيل الأمر حتى تجد مواعيد مناسبة.. فقال بيقينه العجيب:

- ما دام الأمر خيراً فلم التأجيل؟ أنا واثق أن الله سيعينني ما دمت في طاعته، ومن كان يصدق أن أجد حجزاً اليوم؟
- فعلاً أمر عجيب، تعجبني ثقتك
- ويعجبني شِعرك، لن أتركك حتى تنشد القصيدة
- صدقني لا تليق بمقام الشيخ
- ولو، هيا
- انتظر حتى نعود للبيت ونتعشى
- ثم تقول إنه حان وقت النوم ولديك عمل في الصباح، لا يا مولانا، أريدها الآن فوراً
- لكنها في بداياتها وسأحسنها فيما بعد
- بطَّل ملل، هيا
- فاسمع يا فتى
- كلي آذان صاغية

- صعدتَ قريرَ العين والعينُ تدمعُ حياتك آياتٌ وموتك أنصعُ
- الأولى عينه والثانية عينك؟ أكمل
- إذا كان هذا العجزُ أيقظ أمةً فصِحَّتُنا عجزٌ وعجزُك أنفعُ
نهضتَ فلم تترك لغيرك حُجةً فلا الحق خوارٌ ولا الظُلمُ قامعُ
على نهج خير الخلق سِرتَ مجاهداً ونحن على نهج السوائم نرتعُ
فربيت أطفالاً رموا بحجارةٍ تدمر طغيان القرود وتصرعُ
هممتَ فلم ترقُد وقمتَ فلم تلِن ونُدمِنُ لوم الدهر إن مُسَّ إصبعُ
أممت صلاة الفجر حين تربصوا ونكسل نأتيها فتخلوا الجوامعُ
نهادن نستجدي السلام بذلةٍ وأنت لهامات الكرامة ترفعُ
تواجه قهر الظلم صبراً على الأذى لتنسج ثوب الحق والحقُ أمنعُ
أقضَّ مضاجعَهم دعاؤك صادقاً ومثلُك يُلقي القولَ والدهرُ يسمعُ
أولئك أبطالي فجِئني بمثلهم إذا جمعتنا يا (شَارونُ) المجامعُ
- فهتف: الله أكبر، أكمل
- وكيف ستجمعنا المجامع إنما طريقك مأفونٌ ودربك أقطعُ
رويدك لا يغرُركَ نصر مؤقتٌ فجندك مهزومٌ وجيشك خانعُ

وهُبّوا شبابَ العُربِ هيا لقدسكم خذوا أنفُساً بالجد كالشيخ وادفعوا
يناديكمُ الأقصى فسعياً إلى العُلا وتوقوا لنصر الحق كالأُسدِ تردَعُ
على درب ياسين المجاهد أكملوا هلمَّ إلى نيل الشهادة فاطمعُوا

نظرت فإذا عيناه تذرفان، وقال:

- أنهيتَ القصيدة؟

- نعم

- اركِن

- لماذا؟

- فقط اركن لو سمحت.. استجبت لطلبه وصففت السيارة فأخذ يحتضنني ويبكي حتى أبكاني وهو يردد:

جزاك الله خيراً، والله سترى، سترى شارون ذاك الكلب، سيموت وأمثاله شر موتة، والله ليموتن شر موتة! وسينصر الله الإسلام والمسلمين.. فقلت:

- نحتاج فقط أن نعود إلى ديننا ونأخذ بأسباب القوة والعلم

- يا رب

وصلنا إلى البيت واستقبلتنا زوجتي بالعشَاء، يسألها عن أهلها بالتفصيل، ولا ينسى أن يداعب طفلنا الذي يقترب من الثالثة، نأكل الطعام الشهي، يسألني:

- لستَ معنا!

- سرعان ما ستعود الحياة سيرتها الأولى، وسننسى الشيخ وجهاده وبطولته

- تقصد نعود إلى الطعام والشراب والزوجات والأولاد والأموال والأعمال

- وسيمر الأمر وننسى كما نسينا أنهم قتلوا أهلنا في مذابح عديدة؛ دير ياسين، قانا، بحر البقر، وغيرها

- واحتلوا أرضنا وقتلوا أسرانا

- واغتصبوا الأقصى أول القبلتين ومسرى نبينا صلى الله عليه وسلم

- ولكني متفائل، أتذكر حين سألتك عن أكثر شيء يسعدك؟ فقلتُ:

- هذا سؤال لا يُنسى، ولكني عرفت أنك تسأله لجميع أقاربك

- أردتُ أن أعرف ما يتمنونه

- لتقدمه هديةً تسعدهم، اعذرني، لم أتنبه إلى مقصدك وتمنيت شيئاً ليس بيدك
- لا تقل ذلك، إجابتك لفتت انتباهي وأدهشتني، فهل تذكرها؟
- طبعاً
- وما زلتَ متمسكاً بها؟
- جداً
- إذن فلا تخش شيئاً، لن ننسى الأقصى أبداً، يجري حبه في عروقنا وعروق الملايين، فقلت وأنا أنظر إلى ولدي متحسراً:
وأولادنا؟ فقاطعني
- سنربيهم على المقاومة، ونظر إلى الولد وقال: قل ورائي يا شطّور: إن الأقصى قد نادانا ... من سيعيد القدس سوانا.. فردد الولد ضاحكاً، فأكمل أكرم كلامه معي: ستظل القضية حية في النفوس
- أتمنى.. فقال بقوة:
- بل أنا موقن إن شاء الله، لابد من المقاومة؛ للصهاينة وللنظام العالمي الجديد البغيض
- صحيح
- لنا حديث طويل حول تلك العولمة.. فقلت متثائباً:
- إن شاء الله، لا أشبع من حديثك، لكني مضطر للنوم
- أرأيت؟ كما قلت لك؛ العمل!
- ما باليد حيلة
- تصبح على خير
خرج معي صباح اليوم التالي، ذهبت إلى المستوصف وهاتفني بعد قليل:
- وجدت سيارة أمام محطة النقل الجماعي ذاهبة إلى الرياض، سأسافر الآن
- لو بقيت معنا قليلاً
- دعها لمرة قادمة، قلت للمهندس جاد إنني سأقوم بعمرة لكن لم أحصل على أجازة رسمية

- لا إله إلا الله
- ولا يهمك، إن شاء الله تفوت
- ربنا يتقبل منك
- ومنك يا حبيبي، سأطلب منك شيئاً
- تأمرني
- انشر القصيدة
- ليست على المستوى المناسب، سأحتفظ بها ككل قصائدي لنفسي والقريبين مني
- بل أوصيك أن تنشرها بأي طريقة
- حاضر
- هذه وصية واجبة

يتقدم في عمله بنجاح ويحصل على العلاوة التي وعده بها المهندس جاد، ويعده بترقية أخرى قد تغير مسار حياته.

٣٠ ... فراق!

يُحضر أولاده من جديد، ثم يأتيه الخبر باشتداد المرض على والده؛ دون تفكير يترك أسرته في الرياض ويسافر إلى مصر في أجازة لمدة أسبوع لم يفارق أباه خلاله، يقوم معه بكل شيء! حتى ما تعارف الناس في تلك المراحل المرضية الحرجة أنه من صميم عمل البنات لا البنين؛ يجلس عند قدميه ويقبلهما ويبكي، يحاولون التخفيف عنه أو القيام ببعض ما يفعله؛ فيقول: وهل أحد منكم سافر وتركه مثلي؟ أنا الوحيد الذي قصَّر في حقه بينما أنتم جميعاً بقيتم هنا من حوله، يأتيه رد أبيه برداً وسلاماً على قلبه المتعب: راضٍ عنك يا أكرم، عد إلى عملك وأولادك فأنا بخير. يعود، تمر بضعة أيام ويأتيه الخبر المؤلم بالفراق، مايو ٢٠٠٤، يأتي لنقوم معاً بعمرتين عن والده، ألقاه بعد نهاية الفترة المسائية، لم أره في حال كتلك من قبل، أحمر العينين وقد خطَّت الدموع أثراً أسفل عينيه! أحاول التخفيف عنه:

- هوِّن عليك، الحمد لله أنك رأيته قبل الرحيل
- ادع له أرجوك
- يرحمه الله رحمةً واسعة
- قل لي ماذا أفعل لأجلِه
- إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث
- صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له
- فادعُ له أنت وإخوتك، وأكثر من العمرات عنه، قوموا بعمل صدقة جارية- وأفضلها الماء- وإهداء ثوابها له، ينفجر بالبكاء ويرتعد:
- أتراني قصّرتُ في حقه؟ فقلت:
- لا تقل هذا، قال إنه راضٍ عنك، وخالتي وإخوتك يشهدون بأنك كنت نعم الولد، أما الغربة فلظروف لا يد لك فيها، وماذا أفعل أنا وقد منعتني الظروف من رؤية والدي قبل وفاته ومن حضور جنازته؟
- كان بإمكاني أن أبقى بجواره وليذهب العمل إلى الجحيم
- فعلتَ ما عليك ولم تقصر وأدعو الله أن يجمعكما في مستقر رحمته.. نصل إلى الحرم، أطوف وأدعو وأتذكر مواقف والده، كان رجلاً غير عادي،

كم تعرَّض لأزمات ومشاكل، وانتصارات وانتكاسات، وكم كسب من أموال طائلة وكم خسر! وكم اكتسب من خبرات انعكست على حياته حكمةً رصينة أصبحت صفته البارزة في سنواته الأخيرة، أضاف إليها تقرباً إلى الله وملازمة للمساجد ومواظبة على الصلوات خاصةً صلاة الفجر ولحية بيضاء ومسبحة ووجهاً يزداد نوراً كل يوم رغم المرض والتجاعيد، كان كالغيث؛ أينما حلّ نفع! فمع ابتعاده الطويل عن بلده الأصلية أصبح المرجع المؤتمن في موطنه الجديد- بطرة- يلجأ الجميع إليه ويعملون بمشورته؛ يصلح بين المتخاصمين ويعالج المشاكل ويدير مشاريع الخير، كافح فزوَّج الأبناء والبنات، وبنى البيت الرائع الذي جمع أولاده، ولم تصعد روحه إلى بارئها إلا وقد أتمَّه إلا (تشطيبات) بسيطة، نصلي ركعتين خلف مقام إبراهيم ونتجه إلى المسعى، يذكرني بالدعاء فأقول: لا تقلق؛ أنا ابنه مثلك.. نسعى فيقول:

- سأقوم بعمل زيارة لأمي تقضي معي بضعة أشهر لأخفف عنها

- استفت أحد العلماء أولاً فالأصل أن تبقى في بيتها أربعة أشهر وعشرة أيام.. فقال مندهشاً:

- ولا تسافر حتى للعمرة؟

- لستُ أهلاً للفتوى، سَل عن الأمر، اصبر تلك الفترة ونحضر أمي وأمك معاً

- إن شاء الله

نقترب من نهاية العمرة، يقف على المروة ويدعو دعاءً باكياً طويلاً؛ يخبئ وجهه بيديه ويدعو ويبكي حتى خشيت عليه وهززته بيدي: أكرم، هون عليك.. فقال: ادعُ له أخي الحبيب، وادعُ لي أيضاً.. فقلت: من كل قلبي.. نذهب فنحلق رأسينا ونخرج فيرفع رأسه ويشب على قدميه ويُقبل رأسي: تقبل الله! نسير قليلاً في اتجاه المسفلة حيث صففت سيارتي فيستوقفنا رجل يبدو في الخمسين ومعه امرأة وثلاثة أطفال، يهتف كأنه وجد كنزاً: أستاذ أكرم، معقولة.. يحاول أن يتذكره ثم يحتضنه طويلاً: أهلاً بالمهندس محيي، أعرفكم، هذا أخي طبيب يعمل هنا بمكة وهذا المهندس محيي البحراوي صديقي؛ كان معنا في الرياض.. ثم قال للرجل: أخبارَك،

كيف حالك يا مدام؟ كيف حالكم يا أولاد؟ فأخذ الرجل بيده متحمساً وقال: عُدتُ، رزقني الله بعقد في جدة ثم استقدمت الأولاد وجئنا للعمرة لألقاك هنا، أكرم حبيبي أصل الرجولة! فرد أكرم متواضعاً: أنت الأفضل، لا تقل ذلك.. نظرت مندهشاً فقال: لابد أن أحكي لك الحكاية، لن أترككم الليلة، هذه فرصة نادرة، تنوروا جدة؛ تعالوا السيارة من هنا.. فقلت: معذرةً تأخرنا وعندي عمل صباحاً، فقال: سأعيدكم بالسيارة حتى بيتك.. فقال أكرم: اعذرنا، مرة أخرى إن شاء الله، فقال: إذن أعزمكم على العشاء، فقلت: لا أستطيع، فقال: إذن لا أقل من قهوة في محل قريب، لن أعطلكم.. حاولنا الاعتذار لكنه أصر فمضينا معه إلى فرع أحد المحال الشهيرة أمام الحرم مباشرة، قال أكرم للرجل: أرجوك لا تكلف نفسك، فقال: أكلف نفسي؟ لو غيرك قالها، وهل بعد كرمك معي كرم؟ فرد الفتى: لم أفعل إلا الواجب، فنظر الرجل إلى زوجته وقال متعجباً: يقول لم أفعل غير الواجب، ثم التفت إليَّ: أخوك هذا يا دكتور! ماذا أقول؟ ماذا تشربون أولاً؟ جلسنا فقال: لن أحكي أنا بل تحكي لك أم عبد الرحمن، قال أكرم: لا تكبر الموضوع.. ابتسمت المرأة وقالت: الأستاذ أكرم شخصية نادرة، لم يكن يعرفنا ولكنه وجدنا نبكي بحرقة في إحدى الليالي عند شارع الفوالين ومعنا الأولاد يرتعدون من شدة البرد بعد أن طُرد زوجي من عمله ثم طُردنا من سكن الشركة قبل تسوية أوضاعنا ولم نجد مالاً لنقيم في فندق، سألنا فأخبرناه، قاطعها زوجها: تعارفنا فقال تعالوا، وصعدنا معه إلى شقته، ملأ الثلاجة بالطعام وأعطاني ألف ريال ثم سلمنا المفتاح وقال: هذه شقتي والبيت بيتكم، اجلسوا كما تشاؤون وهذا رقمي إذا احتجتم لشيء، وأين ستذهب أنت؟ فقال: سأقيم مع زملائي بسكن الشركة، وتركنا ومضى! لم يطلب حتى أن يرى الإقامة ولا أي ضمان لاسترداد نقوده واستضافنا في بيته وهو لا يعرفنا أسبوعاً كاملاً حتى حصلت على تأشيرة الخروج النهائي.. أنظر إلى الفتى مذهولاً لا أدري ما أقول وهو كل بضع كلمات يقول: أستغفر الله، لله الفضل والمنة! شربنا القهوة وودعَنا الرجلُ وزوجته بدعوات من صميم القلب! مرت دقائق لأستوعب ما قالا، نظرت إلى الفتى فإذا به يقول: يبالغان جداً والأمر

بسيط، فقلت: وتريد مني أنا أن أدعو لك ولوالدك، بل ادع أنت لي.. احتضنته وبكينا معاً! وأنا أفكر: لو حدث مثل هذا أمامي فلن أفكر في أن أفعل ما فعل، ربما أعطيت الرجل بعض المال بعد التأكد من إقامته النظامية، يُحسن المرء إلى أبيه فيكون هذا براً محموداً ونوعاً من رد الجميل، أما أن تحسن إلى من لا تعرفهم بهذا الشكل! فأمر عجيب، ولو لم يحكِه الرجل وزوجته لما صدقت!

لا تنقطع اتصالاتنا الأسبوعية، أما الزوجات فيومياً؛ غربة والنساء يعشقن التفاصيل! أعود ذات ليلة فتقول زوجتي إنها تريد إجراء اختبار حمل نجده إيجابياً، وتمنع ظروف حمل أختي الكبرى بمصر زيارة أمي، لكن خالتي تحضر وتقيم معه في الرياض، يحضر بوالدته وأسرته يؤدون عمرة ويعود مع أسرته بينما تقيم خالتي معنا أسبوعاً سعيداً تغمرني بدعواتها المحببة، أوصلها إلى المطار لتعود إليهم في الرياض، تتغير الأوضاع في المستوصف فتغادر الممرضة التي كانت تسحب عينات المرضى إلى بلدها ولا يتم توفير بديل، أرفض القيام بسحب العينات وتحدث مشاجرتي الأولى مع المدير- ابن الكفيل-: ظللت سنة كاملة بدون فني يساعدني في العمل وتريد مني الآن أن أسحب عينات المرضى بنفسي؟ ومن يقوم بعمل التحاليل؟ ومتى؟ وكيف؟ بعد عدة مشاحنات يكلف ممرضة مختلفة كل يوم بسحب العينات فيصبح العمل في غاية الصعوبة، فكل ممرضة تحتاج إلى تدريب ولابد من تحديد الكمية وأنواع العبوات التي تسحب فيها العينات وطريقة تسجيل البيانات بدقة حتى لا تختلط الأمور؛ تتكرر الأخطاء وتنذر بكوارث قد تؤثر على نتائج المرضى، يتناوبون فلا تعود الممرضة إلا بعد فترة تكون قد نسيت خلالها ما تدربت عليه فأعيد الكرّة معها من جديد! لا حل إلا أن أقف بجوار كل واحدة وهي تسحب العينات وأراقب كل خطوة ضماناً لعدم الخطأ، بقاء الوضع هكذا مستحيل، فلا وقت عندي لعمل الفحوص ومتابعة النتائج وكتابة التقارير وتسليمها للمراجعين، وكثير من التحاليل تحتاج إلى بقائي بجوار الأجهزة وبعضها يُحسب بدقة الثواني وكثير من النتائج تحتاج أن أتصل بالطبيب المعالج للتعليق! أعود فتراني زوجتي على حال لا تسر، تسألني فأخبرها: لو ظل

الوضع هكذا فستحدث أخطاء لا أستطيع تحمل نتائجها، تقول: تخشى الشكاوى القانونية؟ فقلت: بل الأهم تأنيب الضمير! كيف أسامح نفسي إذا اختلطت العينات أو حصل مريض على نتائج مريض آخر؟ فقالت: إذن كلِّمه مرةً أخرى، ولكن بهدوء أرجوك!

أعود إلى الرجل فيرفع صوته: وماذا أفعل لك يا دكتور؟ رفضتَ أن تسحب العينات فقمتُ بتوفير ممرضة معك كل يوم، هل أسحب لك العينات بنفسي؟ فأجبته بصوت أعلى: أعمل براتب يقل عن زملائي في أي مكان بأكثر من ألف ريال، وبدون فني، يحصل الأطباء على نسبة من دخل المعمل لمجرد تحويلهم الحالات بينما أقوم بالعمل بيديَّ ولا أحصل على أي نسبة! يرد ببرود: لم أضربك على يدك، أنت وافقت من البداية، فقلت: نعم وافقت لأكون قريباً من الحرم، وأحمد الله على الصلوات والعُمرات، لكنَّك تجاوزت الحدود، هناك أصول ولي حقوق أبسطها أن أؤدي عملي بأمان، فضحك: تجاوزتُ حدودي، جميل، وماذا تريد الآن؟ فقلت: ممرضة واحدة أعلمها بضعة أيام ثم تمارس العمل بعد أن تتشرب أصوله، واجعل لي نسبة من عملي! فقال باستفزاز: لا، وستقوم بعملك راضياً أو كارهاً.. لملم أوراقه وهمَّ بالخروج من مكتبه المواجه لاستقبال المستوصف؛ المنطقة الأكثر ازدحاماً، وهنا انفجرتُ وسط ذهول الجميع: لكن هذا ظلم، وأنت ظالم، والظلم ظلمات يوم القيامة، ولن أعمل بهذه الطريقة أبداً، وحسبي الله ونعم الوكيل! يفيق من هول المفاجأة فتنهمر كلماته: أنا ظالم؟ أنت تحسبن عليَّ أنا؟ والله سأريك الظلم على حق، ارحل ولا تحضر إلى العمل مرة أخرى حتى أنظر في أمرك، التف الزملاء وبعض المراجعين حولي لتهدئتي وأنا أردد بصوت عال: حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا ظالم، والأرزاق بالله! قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

٣١ ... لا اعتذار ولا إصرار

في طريقي إلى السكن يلومني البعض والآخرون يحاولون إطفاء ناري، أدخل البيت فتقرأ زوجتي المسكينة ما جرى قبل أن أنطق بكلمة، أقص عليها ما حدث بزفرات متتابعة من الغضب والألم وهي تكاد تبكي، قالت: كم رجوتك أن تهدأ، وماذا سنفعل الآن؟ أرد في غيظ: لن نفعل شيئاً، سننتظر ماذا سيفعلون هم، أم تريدين أن أذهب وأقبِّل رأسه؟ تهز رأسها في يأس، يرن الجرس فتفتح؛ الدكتور عادل، يقول إنه تحدث ومجموعة من الزملاء مع صاحب العمل (ليسامحني) وينفذ بعض مطالبي على أن أعود إلى العمل في اليوم التالي- الخميس- فقلت له إنني لم أترك العمل برغبتي، تحدث معي برفق ثم قال: اقترح المدير الطبي أن تقوم باعتذار بسيط، فقلت: نجوم السماء أقرب إليهم! فقال: كنت متأكداً، لكنك تحتاج بعد تجاربك السابقة إلى الاستقرار ولو لسنتين أو ثلاث، ولا أظنهم يستغنون عنك.. فقلت: لن أعود حتى ينفذ ما طلبته ويطلب مني العودة بنفسه! فقال: إذا كان لي قَدْر في قلبك، بل دعك مني، من أجل ابنك، من أجل زوجتك، عد إلى العمل غداً ولا تتكلم عن أي شيء وسنتفاوض نحن معه وربنا يصلح الأحوال.. لم أرد فتركني وقال: أرجوك فكر بعقل.. بعد قليل يهاتفني أكرم ليقول في لهفة:

- حبيبي، ماذا حدث؟
- من أخبرك؟
- وما الفارق؟ الدكتور عادل
- رجل طيب

أخبرته فقال:

- اسمعني يا مولانا، لا يغيظهم شيء أكثر من أن تتحداهم؛ هذه بلدهم
- ولكني لست عبداً.. لن أرضخ ولن أعتذر
- لم أقل ذلك، لا تعتذر، فقط عد إلى عملك غداً كأن شيئاً لم يكن
- وبعد؟

- سأحاول المجيء إليك مساء الغد وأسمع منك التفاصيل ونبحث معاً عن حل

- أي حل؟ يحضر ممرضة ثابتة لسحب العينات ويخصص لي نسبة من دخل التحاليل؛ وإلا رحلت

- حبيبي، ألا تذكروضعك في مصر؟ لم تستطع توفير علاج خالتي

- الأرزاق على الله

- لكن لابد من العقل والأخذ بالأسباب

- أنت من يقول ذلك؟ العقل والأخذ بالأسباب؟ فقال:

- وما الغريب في قولي؟ أنصحك ولا أريد لك إلا الخير

- أعلم، ولكنك تتصرف كثيراً بعيداً عن ذلك

- كيف؟

- كان موقفك مع ذاك المهندس وعائلته في غاية التهور!

- وما علاقة هذا بذاك؟

- هل أخذت بالأسباب معهم؟

- لا أريد الجدال، وهذه ليست مشكلتك الأولى مع الكفلاء، استحلفك بالله عد إلى عملك غداً ونتفاهم حين أراك، لا تهدم كل شيء في لحظة غضب، اتفقنا؟ لم أرد فأكمل:

- أتوسل إليك؛ قل فقط اتفقنا، إلى الغد فقط، ثم اتخذ قرارك كيف شئت.. فقلت:

- منتظرك غداً

- قل: اتفقنا

- خلاص.. اتفقنا

قضيت ليلتي أفكر...

أهو المخطئ أم أنا؟ أم أنه اختلاف طبيعي في وجهات النظر؟

هل يكمن الفارق في خبرته العملية المبكرة ثم في سنوات الغربة؟

عجيب أن تكون أجمل صفات المرء هي أسوأ عيوبه، أنا مثلاً؛ أكره الظلم ولا أتنازل عن حقوقي، لكني أتهور كل مرة فأغلي نافد الصبر ولا أستمع لنصيحة أقرب الناس؛ أمي الحبيبة: يا بني أخذ الحق حِرفة! ولكني لا أجيد تلك الحِرفة، أما الفتى فأعظم ميزاته (الكرم) يبالغ فيه حتى يصير أقرب إلى الاندفاع؛ فقد يستدين لكي يساعد أحدهم ولا يخذله في كربته، أو يسلم مفاتيح بيته لعائلة لا يعرفها؛ فقط ليقف معهم موقفاً هو بالتأكيد غاية النبل والإنسانية ولكنه كذلك أقرب إلى التهور لا إلى التعقل! وماذا لو كانوا يكذبون؟ وماذا لو كانوا لصوصاً؟ وماذا لو سرقوا محتويات الشقة؟ وماذا وماذا؟

كما وعدته أذهب إلى المستوصف، وكما وعدني يحضر مساء الخميس فنجلس نتحاور ومعنا الدكتور عادل يحاولان معي في صبر حتى وصلنا إلى نتيجة مرضية: (لا اعتذار ولا إصرار) بمعنى أن أعود وأصبر؛ أمارس العمل بصورة طبيعية ولا أتكلم عن مطالبي حتى تمر الأزمة ولكني كذلك لن أعتذر، تمر الأيام وتتوالى الاجتماعات مع المدير- وهو موظف بالجامعة- يحاول استفزازي فأبتسم دون أن أرد ويحاول الزملاء تصفية الأجواء.

يأتي إلى المستوصف في زيارة تفتيش مفاجئة؛ تمام التاسعة صباحاً! في وقت- لظروف عمله- لم يمرّ فيه على المستوصف قبلها! يتفقد سير العمل فيجد أن جميع الأطباء لم يحضروا إلا أنا! يتركني متعجباً ويذهب إلى مكتبه وينتظر حضور بقية الزملاء الذين أتوا تباعاً ولكن بعضهم جاء متأخراً كعادته أكثر من ربع ساعة!

في الاجتماع التالي يلوم الأطباء ويعلن أنه سيطبق نظام البصمة وسينفذ سياسة للخصم من المرتب لمن يتأخر، ثم فوجئت به يقول: وهذه هدية مني لطبيب المختبر لأنه الوحيد الذي التزم وجاء قبل موعده! وسلمني زجاجة عطر اعتبرتها بمثابة إعلان للمصالحة لكنه لم يكتف بذلك بل

طلب مني البقاء في نهاية الاجتماع ليناقشني حول مطالبي السابقة! استجاب وقام بتثبيت ممرضة من الأكفاء لتسحب العينات بصورة دائمة، ولكنه تعلل بقلة الدخل ولم يستجب لطلب منحي نسبة، ثم مضى يحكي لي أنه يكره العنصرية ويرى العرب والمسلمين جميعاً إخوة وأنه تعرض قبل سنوات لتجربة قاسية فعانى من اضطهاد أحد أساتذته في بريطانيا حين كان مبتعثاً لدراسة الماجستير في الأدب الانجليزي! وأنه كان يستفزه باستمرار لاختلاف الدين حتى اضطر إلى العودة ولم يكمل بعثته! غادرت سعيداً بتقديره ورحت أزف البشرى لزوجتي الصابرة، ضحكنا وبعد أيام أتتني بشرى جديدة؛ بل ثلاث!

٣٢ ... زيارة

أتلقى من الفتى مكالمة لا أنساها، أكاد أسمع نبضات قلبه، يقول سعيداً:

- أرأيت عاقبة الصبر والهدوء؟

- نعم والله

- وأخبار العمل؟

- مستقر ولله الحمد

- وصاحب العمل؟

- يعاملني بكل احترام

- وسخافات المراجعين والزملاء؟

- لم أعد أدخل في جدل أو خصومة، إذا حدث ما يسوء فالحل قريب.. ربع ساعة

- الحرم؟!

- هو ذاك

- وهل هناك أفضل؟ صل واقترب من الكعبة وأطل نظرك وادع ربك واشرب من ماء زمزم حتى التضلُّع

- نعم، أشرب وأشرب حتى يكاد الماء يخرج من بين الضلوع!

- توضأ واغسل همومك، ابك وادع وتذكر أحبابك

- نعم، أعود بعدها وقد انشرح صدري ونسيت كل همومي

- جميل، هذا غير العمرات

- في كل شهر عمرة، أما في رمضان فعمرة كل عشر ليال

- جدول رائع

- لله الفضل ثم لك يا حبيب.

تمر أيام، يلقاني صاحب العمل ليقول إنه يخطط للعودة إلى لندن ليستكمل دراسة الماجستير، أتعجب فيقول: تغير المشرف، وسأدفع؛ هم يحتقروننا ولكنهم يريدون أموالنا! تبادل منافع؛ أعطيه مالي ويمنحني درجة علمية فأترقى ويزيد راتبي!

أتلقى مكالمة من أمين تزيد سعادتي؛ صدر قرار بنقله إلى جدة، سيصبح وأختي على مسافة ساعة بالسيارة، يعوض قربك من أحبابك كثيراً من الآلام، فما بالك بشقيقتي وزوجها!

أذهب إلى جدة، أتقدم بطلب لاستقدام أمي للإقامة معي فيتم رفضه؛ من حقك أن تطلب تأشيرة زيارة فقط، أعود للتقدم بطلب الزيارة فيرفض الموظف، لماذا؟ لابد من سبب مقنع للزيارة! أثور: أريد الاطمئنان على أمي وصحتها، تقيم معي فترة الزيارة ثم تعود! ما المشكلة؟ أحاول مرات وأطلب لقاء المدير الذي يفحص الأوراق ثم يقول متعجباً:

- وما المشكلة؟ أنت طبيب، أحضر تقريراً من مكان عملك بأن زوجتك مريضة وتريد أن تحضر والدتك تساعدها، فقلت:

- لكن زوجتي ليست مريضة! تعجَّب:

- عجيب أمرك، إنها مجرد ورقة يسيرة

- لن أدعي أن زوجتي مريضة خلافاً للحقيقة

- ولن أقبل أوراقك، أنت حر

أحكي للزملاء وتدور الحوارات؛ لا تركب رأسك؛ هذه مجرد ورقة صورية؛ ومدير مكتب الزيارات يعلم فليس هناك تلاعب، لن أكذب ولن أزوِّر تقريراً، والله أخاف إن فعلت هذا أن تمرض زوجتي بالفعل، أتصل بالفتى فيخبرني أن الحصول على تأشيرة الزيارة من الرياض أسهل في الإجراءات من جدة، ويقترح الدكتور عادل حلاً وسطاً؛ أن أرفق مع الأوراق تقريراً طبياً وصور إشاعات صحيحة بأن زوجتي حُبلى وتحتاج إلى رعاية، ولا أزيد على ذلك حرفاً، يؤكد على ضرورة أن أتعامل مع الموظفين بالابتسام والصبر: أرجوك طوِّل بالك! أجهز أوراقي وأسافر إلى أكرم في الرياض، يستقبلني أولاده عمر وخالد بالبشر والقبلات، ويسأل خالد الذي يذكرني بشهامة أبيه وجرأته حين يرى الكيس الورقي في يدي: ماذا أحضرتَ؟ فأقول: فاكهة تحبها، فيهتف: الموز!

نسهر قليلاً وفي اليوم التالي ورغم محاولاتي معه بألا يعطل عمله يُصِرُّ فيأتي معي، نذهب قبل السابعة صباحاً لنقف في الصف الطويل الملتف من راغبي الزيارة، المصريون هم المصريون في كل مكان؛ ضحكات وخفة

دم وحكايات وكثير من التأليف والإفتاءات.. هذا يقول رفضوا زيارة زوجتي وأولادي لأن وظيفتي في جواز السفر عامل، دفعت آلاف الريالات حتى غيرت الوظيفة إلى مندوب مبيعات والآن أحاول من جديد، وذاك يقول إنهم رفضوا زيارة أمه لحدوث خطأ في اسمها وبعد إصلاحه في جواز السفر يعاود الكرة، وثالث يقول رفضوا دون إبداء أسباب! يبتسم أكرم: لا تصدق كل ما يقال.. أخيراً نحصل على رقم للانتظار، يقترب دورنا فيقوم ويقبل رأسي؛ أندهش فيقول: ستقف أمام الشباك وتقدم الأوراق وسأكون بجوارك، لكن إذا سأل الموظف أي سؤال أرجوك لا تُجب، دعه لي! نتقدم فينظر الموظف في الأوراق ويقول: ما سبب الزيارة؟ يسبقني الفتى بضحكة صافية:

- يا شيخ الدكتور يريد إحضار والدته يطمئن على صحتها وتعمل عمرة وتدعو لك

يبتسم الموظف ويسأل:

- يعني زوجتك ليست مريضة؟ فقلت:

- لا والحمد لله، أنا طبيب وكان يمكنني أن أزور تقريراً بسهولة، لكني لم أرضَ الكذب أو التلاعب، هي فقط حامل، يرد:

- تقيم في مكة، واضح أنهم رفضوا طلبك في جدة.. فضحك أكرم وقال:

- يا شيخ والله سيدعو لك في الحرم، فقال:

- انتظروا.. يدخل ويغيب قليلاً ثم يعود، يسلمنا ورقة ويقول: راجعونا بعد أسبوعين؛ لكن قل للوالدة تدعو لنا

ينعقد لساني فرحاً فيسرع الفتى بالرد:

- ربنا يكرمك، ربنا يجزيك كل خير! نخرج فيقول متهلل الأسارير:

- مبروك

- الحمد لله.. أنظر إليه في إعجاب فيقول:

- مالك؟

- أخبرني كيف تفعل ذلك؟ ابتسامتك وطريقتك جعلت الموظف يلين؛ بل ويدخل إلى مديره ويقنعه

- صدقني الأمر طبيعي، نكمل بعضنا؛ أنت تعيش بين الكتب وتصلح للمواقف الجادة، أما أنا فاترك لي مواقف الحوارات، ثم ضحك وأكمل: عندما أذهب لقضاء مصلحة في مصر أقول للمدام الموظفة التي أراها لأول مرة إنها تبدو آنسة وإنها فقدت كثيراً من وزنها! فينقضي الأمر بسرعة! قليل من المجاملة والأسلوب الحسن مع ابتسامة لا يضر.

تأملت كلامه؛ أكان الأمر كما يقول؟ ربما طبيعة نشأته في الريف وحرية حركته، وربما العمل المبكر الذي صقل شخصيته وجعله يحتك بنماذج عديدة من الناس ويكتسب المال بعرق جبينه، وربما طريقة التربية، أعود إلى مكة ويراجع المكتب بعد أسبوعين ويتصل بي:

- تمت الموافقة

- الله يبشرك بالخير، هل أحضر الى الرياض؟

- لا، سلموني ورقة للمراجعة في القنصلية بمصر، سأرسلها إلى أخيك بالبريد السريع، لكنهم بدلاً من المدة التي طلبتَها- ثلاثة أشهر- وافقوا على شهر واحد

- واحد فقط؟

- دعها أولاً تقيم شهراً ثم نطلب التجديد إذا أرادت، أغلب الأمهات يرتحن في مصر أكثر من هنا!

- لكن البريد السريع مكلف، أرسلها لي وأنا سأتصرف

- ومالك أنت؟ هي أمي قبل أن تكون خالتي؛ بل قبل أن تكون أمك

- كفى تعبك معي يوم التأشيرة

- أنا مستفيد، سعادتي بحضورها لا تقل عن سعادتك، يكفي أن تجلس مع أمي ويحكيان معاً عن ذكرياتهما القديمة

- أكرمك الله.. فضحك وقال:

- ولا تنس الدعاء للرجل الطيب في مكتب الزيارات

- لا توصِ حريصاً، ربنا يجزيك ويجزيه خير الجزاء

تحضر أمي لتقضي معنا شهراً يُحسب في عمر السعادة أعواماً لكنه يمر كالثواني سريعاً؛ ما أروع تلك اللحظات حين تظللك دعواتها فتمطر البركات من كل جانب، تقضي أسبوعاً مع شقيقتي في جدة ثم أسبوعاً

معنا في مكة؛ يحضر الفتى ووالدته ونقوم جميعاً بالعمرة، ثم تذهب معهم لتقضي أسبوعاً في الرياض مع خالتي، ثم إلى مكة وكما توقع أكرم تفضل العودة مع نهاية الشهر إلى بيتها في مصر، أحاول معها كثيراً لكنها تقول في النهاية:

- الحمد لله؛ اطمأننتُ عليكم واعتمرت..

أوصلها إلى جدة لتقضي ثلاثة أيام قبل المغادرة لكن الفتى يأتي ليراها قبل أن تسافر بيومين، بعد ترقيته وعلاواته أصبح يحضر إلى جدة بالطائرة وقتما شاء ويستأجر سيارة ليتحرك بها، يسعدها حضوره المفاجئ ويقضي معها يوماً رائعاً، تأتي صديقة لشقيقتي لتوديع أمي وهي زوجة زميل لأمين، يغادر زوجها مع أمين في رحلة عمل إلى الدمام، يقضي أكرم الليلة مع أمي حتى قبل موعد طائرته بثلاث ساعات، تقوم المرأة لتغادر فيقسم أن يقوم بتوصيلها فتقول:

- جدة أمان وأنا معتادة على ركوب الليموزين، فيقول:

- الولد نائم ولا يصح أن تحمليه في الشارع لانتظار سيارة.. تنزل أمي وشقيقتي معهما، يتحرك في زحام شديد، يصلون فيصر أن يحمل الطفل حتى يضعه في فراشه بنفسه! يعيد أختي إلى بيتها وسط توسلاتها أن يدعها وأمي يركبان سيارة أجرة ليلحق بالطائرة فيقول:

- ما زال الوقت مبكراً! لابد أن أوصلكم.. ولكن الطائرة تفوته ويسافر في طائرة لاحقة على نفقته.

أذهب إلى جدة لأوصل أمي الحبيبة إلى المطار فتحكي لي تلك القصة العجيبة وتقول:

- لماذا؟ المرأة وطفلها تركهما زوجها وسافر مطمئناً فلماذا يفوت أكرم موعد عودته ويعطل عمله ويتكلف من ماله؟

- هذا هو الفتى يا أماه وتلك شهامته

- ماذا كنت تفعل لو كنت مكانه؟

- لم أكن لأفكر في توصيلهما من الأساس، كنت سأسلم على حضرتك وأمضي لألحق بالطائرة

- ربنا يكرمه
تسافر أمي وأعود إلى مكة حيث أرتاح قليلاً لتوقظني زوجتي:
- الحقني، سائل يتدفق، ودقات مستمرة في ظهري
- لكنك في بداية شهرك الثامن
- وما العمل؟
- هيا بنا.. نذهب إلى المستشفى، وتقول الطبيبة: لا بد من قيصرية الآن
بعد ساعة تخرج لتبشرني بقدوم ولدي الثاني:
- ولكنه محتاج لحضّانة، وزنه حوالي كيلو ونصف!
- الله المستعان

٣٣ ... الحضّانة

أخبره بما كان فيقول ضاحكاً:

- كيلو ونصف! يعني دجاجة
- هو ذاك، كتكوت
- وزوجتك
- بخير ولله الحمد، فقط آلام القيصرية
- وصحة المولود
- ولد قبل تمامه؛ قالوا يحتاج لحضَّانة- للمُبتسرين- ضحك وقال:
- المُبسترين!؟ فقلت ساخراً
- نعم، ليكون في بيئة معقمة
- وهل وجدتم حضانة
- في المستشفى نفسها
- والتكاليف؟ الحضَّانات غالية
- سأرى..
- سامحني لن أستطيع الحضور، لكن حجزت لأم عمر والأولاد غداً؛ سيصلون المطار في العاشرة صباحاً
- ولم كل هذا التعب والتكاليف؟ ثم إن والدتك معك
- لا تقلق، لا تعب هناك ولا تكاليف؛ بل كان الواجب أن أكون بجوارك في هذا الموقف الصعب، ولكن ظروف العمل لن تسمح بعودة سريعة إلى جدة وقد كنت هناك منذ يومين فقط
- ومن سيرعى خالتي؟
- لا تستهن بقدراتي، أنا طباخ ماهر، أم عمر أخت لزوجتك لابد أن تكون معها في هذا الظرف، لولا أن الولادة جاءت فجأة لأرسلتها إليكم قبلها بأسبوع
- بارك الله فيك، لكنك تعمل ساعات طويلة، سيكون الأمر في غاية الإرهاق

- قُضي الأمر، اهتم أنت بزوجتك وأولادك
- سأكون في استقبالهم إن شاء الله
- إذا احتجت شيئاً كلمني بلا تردد
- أكيد، ولمن ألجأ في هذه الغربة؟
أما الحضّانة فبلغت تكاليفها في ليلتها الأولى أكثر من ألفي ريال! هكذا المستشفيات الخاصة
وكم تتوقع مدة بقائه يا دكتور؟ فقال: كله على الله، حوالي شهر.. أهاتف كل من أعرف لنبحث عن حضّانة أقل تكلفةً، ينقذني أحد الزملاء يتصل بصديق له يعمل بقسم حديثي الولادة في مستشفى حكومي، يقول إن لديهم حضانة واحدة خالية ولابد من الإسراع للّحاق بها، أطير بسيارة إسعاف مجهزة ونتمكن من الحصول عليها بالفعل، كنت قلقاً من مستوى النظافة والرعاية لكني وجدتها لا تقل جودةً عن مثيلتها في المستشفى الخاص، والحضّانة الحكومية أقل سعراً من الخاصة.
أعود بزوجتي إلى المنزل وتأتي زوجة أكرم لتهتم بشؤونها وأعود إلى العمل، يتصل الفتى يومياً، هذا غير اتصالاته الدائمة بزوجته التي أرسل معها ألف ريال (نقوطاً) للمولود، يقوم بطهي الطعام والقيام بكل مهام البيت من نظافة وغسيل للملابس وغيرها؛ رفض أي مساعدة من جارتهم زوجة سعيد! يتصل بعد أيام يسأل عن صحة زوجتي ثم يقول:
- والمولود؟
- يقول الأطباء أنه يتحسن، ووزنه يزداد تدريجياً
- والتكلفة؟
- حوالي ثمانمائة ريال يومياً
- يا الله، ربنا يعافيه وتفرح به؛ أغلى طفل في العالم! ضحكت وقلت:
- نعم، سأظل أذله طيلة حياته
- المهم سلامته
- يا رب
- أتذهب لتراه يومياً؟

- بل في اليوم مرتين؛ بعد نهاية الدوام الصباحي ثم المسائي
- دعك من كلام الأطباء وقل لي ما رأيك أنت في حالته الآن؟
- فارق كبير، كان وقت مولده أقرب إلى تشبيهك (دجاجة) جلد على عظم؛ أسود بعيون غائرة، أما الآن فتحسن الوضع كثيراً والحمد لله
- والشباب؟ عمروخالد طبعاً آخر شقاوة
- ربنا يبارك فيهم، بالمناسبة؛ حجزت لأسرتك للعودة غداً في التاسعة مساءً، سأوصلهم إلى المطار
- ولم العجلة؟
- زوجتي تعافت بفضل الله، وبتقرير المستشفى قدمت تأشيرة زيارة لحماتي، لابد أن تعودوا إلى حياتكم الطبيعية
- وهل شكوت لك؟ أنا مرتاح جداً وكذلك أمي، أم أن الأولاد ضايقوكم
- لا تقل ذلك، أديتم الواجب وزيادة وجزاكم الله خيراً
- انتظر، سوف أحضر بنفسي نهاية الأسبوع ونعود كلنا معاً
- أهلاً بك؛ بيتك في أي وقت، لكن سأوصلهم إلى المطار، أم أنك تفكر في التعدد؟
- ههههه، أنا؟ سامحك الله! وعموماً كما تشاء
أنتظم في عملي الذي قصرت في متابعته بعض الشيء، سافر المدير إلى بريطانيا وتولى شقيقه الحاصل على الإعدادية! إدارة المستوصف، تمر بضعة أيام ثم أتلقى اتصالاً من رقم لا أعرفه، أرد:
- السلام عليكم.. لا يرد السلام بل يقول بلهجته المحلية بعنف:
- أنت والد الطفل بالحضانة؟
- من حضرتك؟
- أنا والد طفل وُلِدَ منذ ساعتين ومحتاج حضّانة ولا أجد له مكاناً فمن فضلك تخرج ولدك لننقذ حياة ابني
- اهدأ، ربنا يعافيه وتطمئن عليه
- يعني ستخرج ولدك؟
- سأسأل الأطباء، إذا حالته تسمح سأخرجه فوراً، لا تقلق.. ففوجئت برده العصبي:

- ستخرجه أياً كانت حالته، هذه ليست حضّانة أبيك أو أمك، هذه المستشفيات لأهل البلد أولاً، وأنتم أجانب تستولون على كل شيء، إذا لم تخرجه فسأذهب وأنتزعه بالقوة! لا أدري من أين جاءني ذلك الصبر فقلت:

- أقدر حرصك على سلامة ولدك، ربنا يعافيه، لكني لن أقتل ولدي بيدي، سأرى وستُحل المشكلة إن شاء الله

- أنت مُصِرٌّ إذن، سنرى

- افعل كل ما تستطيع

أذهب إلى المستشفى وأقابل الطبيب السعودي الخلوق فيقول إن الرجل جاء وأراد إجبارهم على إخراج ولدي من الحضانة فلم يستجيبوا، وطلبوا أمن المستشفى ليخرجوه ويكف عن الصياح والتهديد بإبلاغ الشرطة والإمارة، أسأله عن الحالة فيفيد بأن خروج طفلي يشكل خطورةً بالغة على حياته ولابد من بقائه أسبوعين إضافيين! أشكره ويلمح القلق في عينيَّ فيقول: اطمئن؛ لن أسمح بخروج ولدك من الحضانة حتى تستقر حالته، هذه أمانة وحفاظ على حياة إنسان لا علاقة لها بالجنسية! ثم التفت إلى الممرضات وقال: من منكن أبلغته بوجود طفل أجنبي هنا؟ ثم قال لي: لا تخش شيئاً سأحقق وأعرف.. أعود مطمئناً أدعو للطبيب بكل خير، ثم اتصلت بالفتى، أخبرته فقال بحسم:

- لا تعد إلى البيت، اذهب إلى الحرم، اشرب من زمزم وادع الله أن ينجيك وولدك وأن يتم شفاءه على خير!

- كنت أفكر في الأمر نفسه، لكني أشعر بإرهاق شديد فقلت: غداً

- بل الآن، ولو لحظات معدودات، الأمر جد لا هزل فيه، وربما لن يستطيع الطبيب أن يقاوم الضغوط

- أقلقتني

- قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، نستعين بالله وندعوه بإلحاح ثم ليكن ما يكون

- الله المستعان، دعواتك

- الله يصلح لك الأحوال، وخالتك بجواري تدعو لك.. أكلمها فتطمئن

علينا ثم تدعو لي دعاءها الشهير:
ربنا يطعمك ما يحرمك ويفاديك ويفادي كل حبايبك يا ابني.. هو ذاك الدعاء الذي يصب في قلبك طمأنينةً عجيبة، دعاء من حبيب! أذهب إلى الحرم الذي كان شبه خالٍ في لحظة نادرة، أصل إلى الحجر الأسود وأقبله، أطوف وأدعو بما فتح ربي ثم أجدني في نهاية الشوط السابع أبكي وأنظر إلى الكعبة وأردد: اللهم لا تحرمني هذا المقام ولا هذا الجوار! هي لحظات يُجري الله فيها على لسانك ما لم ترتبه! وما علاقة هذا بحالة ولدي وبالحضّانة!؟ بل وجدتني أدعو للطفل الآخر أن يجدوا له مكاناً وأن يمن الله عليه بالشفاء ويهدي أباه، أبكي لأجد أحدهم يربت على كتفي ويقول: اللهم استجب.. ألتفت خلفي فأجد وجهاً مألوفاً، أبتسم فيكمل: أتذكرني؟ لحظة ثم أهتف: مجدي! فقال: نعم؛ صديق أكرم القديم.. أصبح مدرساً بطب المنصورة لكن الظروف المادية البائسة- حتى لأساتذة الجامعة- دفعته إلى البحث عن تعاقد بالخليج، رفضت الجامعة الأجازة فبحث عن عقد لزوجته وسافر كمرافق لها! سأل عن أكرم؛ قلت: فلنكلمه، فقال: الوقت متأخر، أعطني رقمه وسأتصل به غداً، نتبادل أرقام الهواتف، أسأله عن المنصورة وذكرياتنا القديمة فيقول: لم يعد شيء كما كان؛ البلد هكذا، وأشار بيده زاوية قائمة إلى أسفل علامة السقوط! اسأله عن بهاء فيقول: افتتح مكتباً هندسياً يتعثر كالجميع.. أحاول أن أصحبه إلى سكني فيعتذر بضيق الوقت: عائد إلى جيزان وبالكاد سأصل إلى المطار في موعدي! ربنا يشفي ابنك وينجيه، سلامي لأكرم! أخرج من الحرم تلفني سكينة عجيبة، الساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل، أعيد الهاتف إلى الوضع العادي بعد أن جعلته صامتاً فترة بقائي في الحرم، لأجد كفيلي والمدير الطبي قد اتصلا بي عدة مرات، يا تُرى ما الأمر؟ تأخر الوقت فلن أكلم الكفيل الآن، المدير المصري أهون، أكلمه:

- خيراً يا دكتور، ما الأمر؟ يرد متثائباً:
- أين كنت؟
- في الحرم، وكان الهاتف صامتاً، معذرةً، ماذا حدث؟

- لا أعرف، طلبني أبو فهد وقال إنه كلمك عدة مرات فلم ترد، وأكد عليَّ أن أخبرك أن تتصل به لأمر هام
- وما الأمر؟
- لم يخبرني، لكنه كان عصبياً، ربما شكوى بخصوصك، لا تقلق وكلمه في الصباح
- الله المستعان، فسألني على غير عادته:
- أخبار ابنك في الحضانة؟ الأمر طال جداً
- دعواتك
- لكن الأطباء طمأنوك على حالته؟ فقلت:
- يقولون إنه محتاج للحضانة أسبوعين آخرين
- أعانكم الله، ربنا يعافيه
أفكر في الأمر وأعود إلى البيت أتقلب بين ظنون مخيفة وكوابيس مرعبة، واضح أن الأمر وصل إلى الكفيل وأسئلة مديري لا تبشر بخير، أذهب إلى عملي في الصباح وأنتظر؛ أعرف أن الرجل يستيقظ بعد صلاة الظهر، أتلقى مكالمة من الفتى يخبرني أن مجدي قد اتصل به في مفاجأة سارة، وتفاجئني مكالمة على هاتف العمل فأعتذر للفتى لأرد فأجد المدير:
- يا دكتور، أنا في مكتبي بالأسفل، تعالَ
- حاضر... يجلس وبجواره رجل أربعيني ويقول:
- كيف تغضب صديقي أبو نواف؟ ستذهب الآن وتخرج ابنك من الحضّانة، اتصلتُ بالمستشفى وقالوا إن حالته أصبحت ممتازة، هيا، ابنه حالته خطيرة ولا ترضى أن يضار بسببك
- بمن اتصلت حضرتك؟ كنت هناك أمس، وقال الطبيب أن حالة ولدي لا تسمح بخروجه قبل أسبوعين
- قلت لك سيكون بخير، أين إيمانك بالله؟
- لن أخرجه إلا بعد أن يشهد الأطباء بتحسن حالته، لن أقتل ولدي مهما حدث.. التفت الرجل إلى مديري وصاح:
- أرأيت، ألم أقل لك؟ الوقت يمر والولد سيموت، هذا ال... ابن ال... سيتسبب في موته وأنت كفيله؛ صديقي لا تقدر عليه، فهتفت بصبر نافد:

- هذا التافه يسبني ويسب أبي أمامك، سأضربه، السافل قليل الأدب..
أمسك كفيلي بيدي وقال:
- دعه لي، اذهب الآن وفكر جيداً... أخرج مزمجراً، يجد الرجل لابنه مكاناً في حضّانة أخرى، يعاملني أبو فهد بطريقة سيئة، فكيف أتجرأ وأحرجه أمام صديقه؟! أتجنبه حفاظاً على جوار الحرم وحرصاً على مصلحة أولادي، يخرج ولدي بفضل الله، أضطر إلى عمل (جمعية) مع الزملاء- أقبضها أولاً وأضيف إليها كل ما ادخرت لأسدد تكاليف المستشفى التي تعدت ثلاثين ألف ريال، يتصل الفتى فأخبره أن المبلغ لم يكتمل، وكم تبقى؟ حوالي خمسة آلاف، كتبت لهم تعهداً بالسداد خلال أسبوع، يحضر الفتى في اليوم التالي ومعه بقية المبلغ:
- خذ حبيبي، سدد المستشفى.. هممت بالرد لأشكره فوضع يده على فمي:
- لا كلام، ربنا يحفظه

٣٤ ... الحج

تمضي الأيام سريعا في جوار الكعبة، أواخر ذي القعدة؛ يتصل الفتى:

- سنحضر للحج
- وستأتي خالتي معكم؟
- إن شاء الله
- رائع، تنورونا
- افرشوا الأرض بالرمال
- بل بالورود

يأتون بسيارته من الرياض صباح يوم عرفة حيث تنعدم لجان التفتيش ولا يحتاج الدخول- أيامها- إلى تصاريح، إفطار بسيط ثم نتوجه إلى عرفات؛ في سيارته الأوسع يجلس الدكتور عادل بجواره وأجلس بجوار خالتي وحماتي في الخلف، يعرف أين وكيف يصفّ سيارته بحيث يسهل علينا الخروج بعد غروب الشمس بسرعة، نصلي الظهر والعصر جمعاً ونقضي النهار في دعاء وذكر وتلبية وقرآن؛ إذا تكاسل أحدنا أو توقف يحثه الفتى رغم إرهاق السفر:

وهل أتينا هنا لننام؟ السنة بطولها أمامنا! أكثروا الدعاء واذكروا الله، ثم يذكرنا بالحديث: أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة؛ وخير ما قلت والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

يجتهد في خدمة والدته ووالدة زوجتي ومن حولنا من الحجيج؛ يحمل الحقائب ويحضر العصير والماء البارد ليوزعه على الجميع، تدهشنا بعض المظاهر؛ البعض يمضون الوقت في لعب الطاولة والكوتشينة، والأعجب؛ امرأة تدخن الشيشة! تتعجب حماتي:

ماذا تفعل هذه؟ فأقول:

- تسلي صيامها، فيضيف الدكتور عادل:
- بل تسلي عرفاتها، فالحاج لا يصوم عرفة!

نستجيب لنصيحة الفتى فنصرف أبصارنا عن تلك الغرائب وتقول خالتي:
- ما هؤلاء الناس، أهذا من الإسلام؟ ننصرف إلى أماكن أخرى نحاول استنشاق بعض الهواء النقي؛ ولكن تتكرر تلك العجائب في كل مكان!

تغرب الشمس فنتحرك ونصل إلى سيارته فينطلق إلى المزدلفة في طريق مختصر يحفظه عن ظهر قلب فنكون من أوائل من يصل، نصلي المغرب والعشاء، ننصب خيمة لتستريح النساء ونجلس نحن على فرُش اسفنجية بسيطة وسرعان ما نسقط نوماً من التعب، نستيقظ قرب منتصف الليل فنصطف ساعات لدخول دورات المياه- في أشق مشاهد الحج- نستخدم الرخصة فنذهب إلى منى لرمي جمرة العقبة، تحاول أمه وحماتي أن يوكلانا في الرمي فيضحك ويقول: أبداً؛ هذه حجتك الأولى يا (طنط) ستأتون معنا وترميان الحصى بأنفسكم لتشعروا بمناسك الحج، نحلق ثم ننصرف إلى البيت صباح يوم العيد، كنت في غاية الإرهاق فما بالكم به وهو في سفر مستمر أكثر من يوم ونصف! ربما كان نصف دعائنا في ذاك الحج للفتى؛ أن يكرمه الله ويجزيه عنا خير الجزاء ويبارك في ذريته، نخلع ملابس الإحرام للتحلل الأصغر ثم إلى الحمّام نغسل عنا التعب ونرتدي ملابسنا ثم إلى السرير، تنقضي ليلتا منى في هدوء؛ نتوجه قبل الغروب ونقضي الليل فوق مدرجات قريبة من الجمرات؛ نرمي ونعود قرب الفجر، نجلس نحكي ونتعرف على من بجوارنا؛ هؤلاء مصريون جاؤوا من إيطاليا حيث يعمل ولدهم؛ وجدوا الحج من هناك أقل تكلفةً من القدوم من مصر!

يتعجب الفتى:
- كل هذه الجموع والدعوات وما زالت أمتنا في ذيل الأمم
- لو فهم المسلمون درس الحج بوحدتهم واجتماعهم لتغير الحال كثيراً
- إنما المؤمنون إخوة
- يا ليت
- أمة واحدة ولغة واحدة وتاريخ واحد وإمكانيات هائلة فما الذي يمنع أن نتقدم؟
- قصة طويلة، اختصارها العداء بين الأشقاء والارتماء في أحضان

الأعداء

- لا نرى التقدم إلا في تقليدهم، كما في الحديث: حذو القُذة بالقذّة

- ونسير وفق خططهم ربما أسرع مما خططوا

- اتباع وخضوع كامل

- ويزداد يوما بعد يوم

- آه، تذكرت الآن، احك لي عن تلك العولمة

- تطور طبيعي لرأسمالية متوحشة تمتص دماء الشعوب وتزيد الغني غنى وتزيد الفقير فقراً؛ فضائيات مفتوحة وموبايلات وشبكة الإنترنت تنقل كل شيء دون حواجز؛ الكل يتطلع إلى نموذج الحياة الغربية

- بينما تهيمن الشركات الضخمة عابرة القارات على الإنتاج والتجارة

- بالضبط، وتمنع الدول الفقيرة بالقانون والاتفاقيات الدولية مثل الجات وغيرها من الإنتاج وتجعل المنافسة مستحيلة، ثم قلت: أتذكر الثلاثية المقدسة؟

- ونيل المنصورة، من ينسى يا حبيب؟

- يبدو أن لكل قوم ثلاثيتهم المقدسة!

- كيف؟

- الفرنسيون مثلاً: الحرية والإخاء والمساواة

- لكنها مبادئ خاصة لهم، أما نحن فقتلوا منا أكثر من مليون شهيد في الجزائر

- نعم، مجرد شعارات؛ آلهة من العجوة يأكلونها متى جاعوا

- ونحن الضحية.. فقلت:

- أما الأمريكان في دنيا العولمة فثلاثيتهم المقدسة: حرية التجارة وحرية الأسواق والخصخصة! يفرضونها على الجميع

- لكنها أيضاً اختيارية؛ من أجل مصالحهم فقط، تخيل لو أن الصين مثلاً أغرقت الأسواق الأوروبية والأمريكية بالملابس والسيارات الرخيصة، ستفرض أمريكا الجمارك وتلغي كل كلامها المعسول حول الحرية واتفاقية الجات وغيرها

- صحيح.. ثم قال:

- ترى العولمة شرا؟
- للضعفاء، تحتاج أن تكون قوياً بالعلم والمال والفكر والثقافة والفن لتجد لك فيها مكاناً
- ومتى سيحدث ذلك؟
- لابد من وعي يجعلنا نفهم من نحن وما مكاننا في هذا العالم وإلى أين وكيف نريد الوصول، لو زالت أمة العرب غداً لما افتقد العالم شيئاً!
- اللهم إلا سوقاً استهلاكية لتصريف المنتجات
- لابد من إيقاظ الوعي؛ حتى يفيق الناس ويفهموا كيف يستعبدهم أعداؤهم فيمضون أذلاء في طريقهم المرسوم
- احتلال جديد
- نعم؛ بعضه صريح كما في فلسطين والعراق وأفغانستان وبعضه بالوكالة عن طريق عملاء خونة كما في أغلب بلادنا.. ضحك وقال بمرارة:
- سمعت كلام الآنسة كونداليزا عن الفوضى الخلاقة؟
- نعم، وكلام بوش عن الحرب الصليبية المقدسة
- إذن خططهم معلنة
- جداً؛ ولكننا شعوب لا تقرأ
- للحديث بقية مفصلة
- إن شاء الله... يخرج محفظته كأنه تذكر شيئاً ويقول: في آخر أجازة قابلت نبيل، فقلت: نبيل؟ فقال: شارع صيام! وأخرج صورة لرجل أشيب هدّته السنون: اعتزل حياة اللهو وتحجبت زوجته، فقلت: نفسها؟ فقال: نعم! فابتسمتُ: سبحان الهادي.
تعجلنا ليلحق بعمله في الرياض ولتلحق حماتي بطائرتها التي حجزتُها متعمداً فجر الثالث عشر من ذي الحجة تجنباً للزحام، نلهج بالدعاء أن يخفف الله عن خالتي وحماتي مشقة طوافنا الجامع بين الإفاضة والوداع، قبيل أن نصل إلى الحرم يحدث ما يشبه المعجزة! سيول تنهمر من السماء تلطف الجو وتخفف الزحام الشديد فنطوف ثم نسعى بيسر لم أر مثله قبلها ولا بعدها! والعجيب أن السيول توقفت بمجرد انتهاء السعي لتيسر لنا طريق العودة فينصرف الفتى مع والدته إلى الرياض وأوصل حماتي إلى مطار جدة وهي تدعو طوال الطريق لي وللفتى، ويظل الدكتور عادل يضرب المثل بعدها ضاحكاً: من لم يحج مع أكرم فلم يحج!

٣٥ ... أمل وتغيير

وتمضي الحياة بحلوها ومرها، سبتمبر ٢٠٠٥، يهاتفني الفتى:

- حجزت غداً للعمرة وللسلام عليكم

- مصر؟ أجازة؟

- بل إلى دبي، أشرف على أعمال الشركة في تركيب أبراج المحمول

- وستترك أهلك في الرياض؟

- مؤقتاً حتى أرى؛ هل أرسلهم إلى مصر أم أعود إليهم في الرياض؟

- منتظرك

يحضر الفتى؛ لا يعرف المدة المقدرة للمشروع أو متى سيعود، لكنه متفائل بإمكانية قضاء كل نهاية أسبوع بالرياض مع أهله والعودة، ثم قال:

- أخبارك مع مديرك؟

- أتجنبه بقدر المستطاع

- والله أفضل؛ دعك من تصرفاته العجيبة وركز في عملك

- هل تتابع ما يجري في مصر؟

- تقصد الانتخابات؛ محسومة لمبارك.. فقلت: مجرد إلغاء الاستفتاء ووجود منافسين هو تطور نحو الأفضل

- أظن الأمريكان أجبروه، مجرد ديكور لتحسين الصورة.. فقلت:

- تحريك لمياه راكدة منذ عقود، أين تفاؤلك المعهود؟ فابتسم وقال:

- يعدّون المشهد لاستقبال الوريث

- الابن؟

- ومن غيره؟

- وهل سيتقبله الناس؟ يبدو مغروراً والإشاعات تملأ الدنيا حول فساده.. ضحك:

- ومتى كان للناس رأي أو اعتبار؟ أما الغرور والفساد فمميزات لهذه المناصب لا عيوب

- يعني سنلبس فيه؟

- فقط لو وافق الجيش
- لا أفهم، ما علاقة الجيش؟ فضحك ثانية:
- الجيش يحكم مصر منذ خمسين عاماً، ولن يسلم الحكم بسهولة لمدني
- حتى مبارك الابن؟
- طبعاً؛ يعتبرون الحكم إرثاً لهم، يرون المدنيين أقل كفاءة ووطنية
- وبعد، ماذا سيحدث والرجل يبدو قريباً من النهاية؟
- البلاد ملأى بمراكز القوى وليس هناك نائب للرئيس؛ مطحنة وشيكة لا علاقة لجموع الناس بها: الشاذلي، سرور، الشريف، عزمي، جمال، وقادة الجيش قبل الجميع
- لا أظن، يبدو طنطاوي خاضعاً لمبارك
- صحيح، لكن من يدري؟ إذا غاب الرجل المريض! فقلت:
- ربك يسترها، ولكن ما رأيك في منافسي مبارك؟
- يبدو نور شاباً واعداً، وجمعة سياسي مخضرم لكنهما يتنافسان من بعيد على المركز الثاني
- ربما من يحل ثانياً اليوم يصبح الرئيس غداً، فضحك بشدة:
- مستحيل، للبلد كبار لن يقبلوا بذلك، ولن يستقر على العرش إلا فرعون
- كلامك صحيح؛ ولكني لا أريد تصديقه
- لماذا؟
- الصورة غائمة مخيفة
- وحتى لو قبل الكبار في مصر فهل سيقبل البيت الأبيض أو الكنيست؟
- ألا تبالغ؟ يهمهم الاستقرار في مصر
- أو فوضى كوندوليزا الخلاقة
- لا أظنهم يتدخلون إذا اختار الناس بحرية؛ على الأقل دعماً للديموقراطية أمام شعوبهم
- ابحث عن المصلحة يا مولانا؛ لا يريدون لنا حرية ولا ديموقراطية
- وما مصلحتهم؟

- مصر الحرة بالتأكيد خطر داهم على الكيان الصهيوني، أما الغرب فيريد المنطقة بكاملها خاضعة؛ عبيد ندور في فلكه وسوق لمنتجاته، يجربون أسلحتهم وأدويتهم بل وأمراضهم فينا. فقلت:

- معك؛ الحرية في مصر تنقل العدوى إلى البلاد حولها وتهدد مصالحهم بشدة

- والجماهير مسكينة يسهل التأثير عليها عن طريق الإعلام

- لابد من حل، لن تستمر الأمور هكذا

- هكذا تبدو، وقد تحدث معجزة

- ليس لها من دون الله كاشفة

يودعني ويسافر؛ يهاتفني بعد أسبوع:

- قلت لك لا مجال للمنافسة؛ مبارك اكتسح ونور حصل على ثمانية بالمائة فقط من الأصوات

- لكن يشاع أن نور حصل في الحقيقة على ربع الأصوات

- هم محترفون في التزوير، لكن النتيجة واحدة

- دعك منهم واحك لي أخبارك في دبي

- لا علاقة لها بالعرب!

يعود إلى الرياض ليقضي بضعة أيام مع أسرته قبل أن يرسلهم إلى مصر ليلحق عمر ببداية العام الدراسي، يأتي في أواخر يناير ٢٠٠٦ لينهي أعمالاً في جدة فنتقابل عند أمين؛ مع الضحك والحلويات والمكسرات يخبرنا أن راتبه قد تضاعف بفضل الله وأنه مستبشر بالسنة الجديدة، قلت له:

- الحمد لله؛ عاد لك التفاؤل من جديد.. فقال:

- تتحسن الأمور؛ ربما كنت أنت على حق.. فقال أمين:

- أي أمور؟ أفهم.. فقال الفتى:

- واضح أن رياح التغيير قادمة؛ انتخابات رئاسية ثم برلمانية حصدت فيها المعارضة أكثر من خمس المقاعد، فقلت:

- رغم التزوير الواضح في المرحلة الثانية والثالثة.. فقال أمين:

- فَرِحان للإخوان؟! فقال الفتى:

- بغض النظر عن الإخوان، الأمر كله يدعو للفرحة.. فقال أمين:

- كيف؟ فقلت:
- الناس عاقبوا فساد الحزب الوطني فحصل فقط على ثلث الأصوات..
حك أمين فقال أكرم:
- هذا طبعاً قبل أن يعلن كثير من الفائزين (المستقلين) انضمامهم إلى الحزب؛ أو الحزن الوطني!
ولكن زادنا تفاؤلاً أننا اكتشفنا أننا نستطيع! شعوبنا تفيق وتغير؛ فلسطين الصامدة يقول شعبها كلمته: نعم للمقاومة، لا للاستسلام والفساد؛ يُسقِط الشعب حكومة فتح بعد فشل أوسلو ومدريد؛ تفوز حماس بالانتخابات وتشكل الحكومة، قال أمين له:
- أسميتك منذ عرفتك (أكرم العاطفي) ولكن ماذا بعد؟ المقاومة الآن في وجه المدفع، فهتف الفتى:
- وأنا أسميك من الآن (أمين الواقعي) يا أخي دعنا نفرح قليلاً.. فقلت:
- لا تعرف الشعوب الحرة هذا الخوف يا عم أمين، ومهما كان فارق القوة فإنك لا تنهزم أبدا حتى تستسلم.. فقال أمين:
- وهل كُتِب علينا دوماً أن نقع بين خيارين أحلامها مر؟
- كيف؟
- دولة الفساد المسلح أو دولة تجار الدين؟ فقال الفتى:
- سينتصر الحق في النهاية، فقلت مكملاً:
- والحرية تصحح الأخطاء، إذا اختار الناس دون وصاية أو قهر!
أتصل بصديقي (الفقي) الذي استقر في مستشفى كبير:
- أنا في جدة وأريد أن أراك
- ضروري، مشتاق لك جداً يا صاحبي
- أين أقابلك؟
- سأنتظرك في سكن المستشفى
- لا تتعب زوجتك؛ فلنتقابل في أي مكان خارج البيت؛ ما رأيك في الكورنيش؟ فقال:
- زوجتي في مصر، ومعي صديق يود التعرف بك.

نلتقي في شقته؛ أحضر (بيتزا) من أحد المطاعم الشهيرة، معه رجل يبدو في الخمسين، نأكل ويعرفني:

- الدكتور علي؛ استشاري جراحة، وهذا ولده- شاب توارى واقفاً في حياء؛

حليق الرأس ربما بسبب عمرة قريبة؛ وبلحية خفيفة- فقلت:

- ما اسمك يا صديقي؟ فقال مبتسماً بطريقة آلية تشبه طريقة التعارف التي يوصينا بها الشيخ الشنقيطي الذي نحفظ القرآن في حلقاته:

- عبد الرحمن علي، طالب، أسكن بمدينة نصر.. ضحك أكرم وقال:

- طالب؟! في أي صف؟

- بالسنة الأولى؛ كلية طب عين شمس.. فقال والده:

- جاء يقضي أجازة نصف العام.. فقلت:

- ومتى سيعود؟

- الأسبوع القادم؛ حجزنا له على الباخرة من ضبا إلى سفاجة.. فقال أكرم:

- ولم؟ مرهقة ومملة، فقال الوالد:

- نخطط للعودة النهائية بعد شهور؛ اشتريت أثاث بيتنا الجديد من هنا وسيأخذ أغلبه معه بدلاً من شركات النقل التي تتلف نصف الأشياء وتبدد نصفها الآخر، ثم ضحك وقال:

- وشحن الطيران غال جدا ولم نتقاضى الراتب منذ شهور، هتف الفتى:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لماذا؟ فقال علي ساخراً:

- يدخرون لنا الرواتب بدلاً من أن نضيعها في غير فائدة، فقلت:

- أخبروني بجد؛ لماذا يؤخرون رواتبكم؟ فقال الفقي:

- يقولون: ليس هناك سيولة؛ انتظروا حتى نُحصِّل أموالنا المتأخرة عند شركات التأمين، نظرت إلى عبد الرحمن مشفقاً:

- إذن.. تحمَّل يا ولدي.. فأطرق مبتسماً

- إن شاء الله.. قال الفقي:

- يبحثون عن شقة قريبة من الكلية، وعندما اتصلت بي تذكرت أنك تعرف سمساراً

- نعم؛ هذا رقم هاتفه، وسأكلمه من أجلكم
جلسنا نتحاور وعرفت أن عبد الرحمن يحفظ كتاب الله، أسرنا بثقافته وأدبه، سلّمنا وخرجنا نستنشق النسيم المنعش على الكورنيش، قلت للفتى:
- شاب رائع، ما شاء الله
- نعم؛ دخل قلبي من أول لحظة

- يسعد المرء بأمثاله، أمل المستقبل
- ربنا يكرمه ويوفقه
تمر أيام، أعود إلى العمل ومناكفاتي مع المدير، ثم نتلقى خبر الكارثة المروعة؛ ٣ فبراير - غرق العبارة السلام ٩٨ وفقدان أكثر من ألف مصري!

٣٦ ... العبَّارة

يتصل الفتى ليسأل السؤال الذي يمزقني قلقاً: أكان عبد الرحمن أحد الركاب؟ قلت إنني لا أعلم، أحاول الاتصال بالدكتور علي فلا يرد، أهاتف الفقي؛ يغلق الخط مرتين ثم يتصل بعد ساعات ثقيلة ليخبرني قبل أن أسأله: نعم كان هناك؛ دعواتك؛ الولد مفقود وأبوه سافر إلى مصر ليتبين الأمر.. أطلب رقم هاتفه في مصر فيعتذر: طلب ألا يكلمه أحد.. فقلت: معذور طبعاً، كان الله في عونه.. أتصل لأخبر أكرم فيهتف: لا حول ولا قوة إلا بالله.

تتبين أبعاد الكارثة مع الوقت؛ أكثر من ألف مصري من الضحايا بين غريق ومفقود، تلقت عدة أماكن رسائل استغاثة ومنها بريطانيا وإسبانيا وتونس والجزائر التي أرسلت بدورها خمس عشرة رسالة استغاثة لمصر بدأت في الثانية فجر الثالث من فبراير لكن لم يتحرك أحد للإنقاذ إلا بعد مرور اثنتي عشرة ساعة عندما استيقظ ولاة الأمر، مرت سفينة بنغالية بالجوار فأنقذت ستة وأربعين شخصاً تقلص عددهم بعد ذلك إلى اثني عشر فقط! بينما السفينة المصرية سانت كاترين القريبة رفضت إغاثة الغرقى!

يمر أسبوع؛ يسجل أبو تريكة ضربة الترجيح الأخيرة لتفوز مصر بكأس أفريقيا؛ فتشتعل المقاهي والمدرجات بالفرح!! ويتلقى الزعيم من السيدة الأولى (قُبلة) رومانسية هي الأكثر استفزازاً في التاريخ! أتساءل: هل ما يجري في عروقنا دماء؟! ما هذا الفجور؟ يمر شهر آخر ويأتي أكرم لنقوم معاً بعمرتين عن عبد الرحمن الذي يرفض والده المسكين تصديق أنه فارق دنياه، يحاورني الفتى حول الحقيقة القبيحة:

- سافر الملياردير صاحب العبارة من صالة كبار الزوار

- هو أحد الكبار بالفعل؛ عضو معين بمجلس الشورى وصديق شخصي لعزمي أحد أشهر حيتان النظام

- لا خجل ولا مواربة؛ الكل يعلم أن أمثاله (باشوات) فوق القانون
- تتناثر الشائعات حول مفقودين تم إخفاؤهم عمداً وظهرت صورهم في بعض وسائل الإعلام
- العبّارة كانت تحمل علم بنما لسهولة الإجراءات وعدم الحاجة لتطبيق المعايير الدولية للإبحار
- تجاوز عمر العبارة ستة وثلاثين عاماً
- لا رقابة ولا وسائل للأمان أو للإغاثة
- سمعنا للمرة الأولى لفظ (الرماثات) التي تستخدم للإنقاذ
- لكنها استُعملت فقط لإنقاذ الربان والطاقم
- للأسف؛ أغلب ركاب تلك العبارات من الفقراء الذين لا تصل أصوات أنينهم وذويهم أبعد من حناجرهم
- آه يا وطني؛ فساد فوق فساد يعلوه فساد وأسفله فساد أمامه فساد وخلفه فساد!
- ظلماتٌ بعضها فوق بعض
- وطن يحرمك من الحياة فيطردك خارجه لأن موارده الضخمة حكر على عصابة من اللصوص
- ويحرمك من موت طبيعي فيضن عليك بقبر يزورك فيه أحبابك
- ويتركك نهباً للغرق ووليمة لأسماك القرش! ليس للإنسان قيمة إلا أن يكون من الكبار! أكاد أفقد عقلي؛ هذا شاب متفوق حافظ لكتاب الله، خدم والده الوطن سنين طويلة حتى عجز عن الوفاء بمتطلبات الحياة واحتياجات الأولاد فسافر
- بسفره يوفر للوطن الماء والكهرباء والصرف الصحي وزحام الطرق وكافة المرافق ويرسل الأموال بالعملة الصعبة طائعاً ولو شاء لما فعل
- نعم؛ يغرق ابنه؛ قرة عينه بسبب الإهمال والفساد ثم لا يتحرك أحد للإنقاذ! هذا مثال واحد عرفناه شخصياً فأحببناه
- ومثله ألف وخمسون مصرياً
- وملايين من المصريين لا حقوق لهم ولا قيمة

- صدقت؛ فماء النيل يصلهم ملوثاً بمخلفات المصانع والمجاري والحيوانات النافقة حتى صار الماء ينزل من الصنبور أسوداً لا تجدي معه الفلاتر!

- فتزداد أمراض الكلى والحصوات والفشل الكلوي

- رعاية طبية منهارة؛ تأمين صحي فاسد ومنظومة صحية فاشلة لا يعالَج المريض فيها إلا بأموال طائلة أو يُترك ليموت

- هذا غير الأدوية التي لا تجدي

- يستوردون المواد الخام من مصادر رخيصة مجهولة ويقومون بتصنيعها تحت السلّم

- ولا تسل عن أمراض الكبد والسرطان والفيروس سي الذي ينهش أكباد المصريين

- لا رقابة على الدواء ولا الغذاء

- مصانع اللانشون تفرم الفئران مع الصويا ومصانع الشيبس تمرح فيها الصراصير

- والقمح ممنوع من الزراعة بقرارات سيادية، والمستورَد فاسد مسرطن

- نظام تعليمي فاشل كريه ومدارس قذرة مكدسة ومناهج متخلفة تصيب أولادنا بالغباء

- وتسلمهم لقمة سائغة لتجار المخدرات أو زعماء التطرف

- طرق هي في الحقيقة حفر ومطبات بينها استثناءات ممهدة ولا رقابة على الميكروباصات التي يمتلكها السادة الضباط وتفتقد أدنى معايير السلامة

- وتريلّات تسير بلا رقيب يتعاطى أغلب سائقيها كافة أنواع المخدرات

- فتكون النتيجة أعلى معدلات الوفاة بسبب حوادث الطرق في العالم

- وصحافة وإعلام تم إسكاتهم- خوفاً أو طمعاً- عن قول الحقيقة

- وتتحول القضية بقدرة فاسد من (جناية) إهمال جسيم أدى إلى مقتل أكثر من ألف مصري إلى مجرد (جنحة)

بعد شهور يحصل مالك العبارة وكافة المتهمين على البراءة! يعود أكرم إلى الرياض ليرى أولاده، يزورنا نتحاور ويقول:

- مستحيل، لن تستمر الأمور هكذا

فقلت:
- وما الذي سيحدث؟
- الأرض حبلى بثورة! فابتسمت في مرارة:
- ومن سيقوم بها؛ شعبنا خانع مستسلم للفساد والكرباج
- بل يغلي من القهر والظلم
- أراك بالناس متفائلاً
- الناس عرفوا من يسرق قوتهم ويزيد بؤسهم كل يوم
- أيام الفاطميين حدثت مجاعة شديدة حتى أكل الناس القطط والكلاب ثم صاروا يأكلون لحوم البشر
- تقصد الشدة المستنصرية؟
- نعم؛ وكان الحكام يستأثرون بالقمح والخبز، حين جاع الناس لم يثوروا في وجه حكامهم اللصوص؛ بل خافوا من سيوفهم فسرقوا بعضهم بعضاً وأكلوا بعضهم بعضاً!
- تسيء الظن بالمصريين، في آخر أجازة وجدت الناس حانقين بشدة على النظام؛ سينفجرون قريباً
- أتمنى أن يكون ذلك في وجه الظالمين لا في وجه إخوانهم المصريين
- أتظن بقاء الأوضاع هكذا جزءاً من النظام العالمي؟
- بشكل غير مباشر؛ حين ترك الاحتلال أوطاننا سلمها لعملائه يحكمونها بالنيابة عنه
- لم يكن عبد الناصر خائناً
- ولكنه كان ديكتاتوراً؛ حكم برأيه الأوحد وقدّم أهل الثقة الفاسدين على أهل الكفاءة المعارضين فكان ما كان.
- وصدام؟ أرأيت كيف أعدموه يوم عيد الأضحى والشامتون حوله يهتفون: مقتدى!
- القصة نفسها تتكرر دوماً، تخدم أعداءك بالخيانة كما تخدمهم بالغباء!
- من اتبع تعليماتهم تركوه وتغاضوا عن جرائمه ومن قاومهم قتلوه وجاؤوا بمن يتنازل أكثر

- يدرسون نفسيات حكامنا ويتوقعون ردود أفعالهم بدقة ويتعاملون وفق كل حالة، هذا خائن يحقق مصالحنا فلندعمه، وهذا ديكتاتور وطني؛ فلنورطه في أحلام زعامته ثم نوقعه في فخ الحقيقة فندمره وشعبه، وذاك طاغية مهووس قاتل؛ فلنورطه في مغامرة نزقة ثم ندمر قدراته وننهب ثروات شعبه!

- والشعوب مغلوبة على أمرها تتبع كل ناعق في إعلامها الكاذب يفقد الوالد عقله أو يكاد؛ أهمل مظهره وترك عمله وتفرغ للقضايا والبحث عن ولده المفقود، لا يُحدِّث أحداً ولا يرد على أحد، يعود أكرم إلى دبي، أحصل على أجازة فأسافر إلى مصر وأزور خالتي فأجد عندها صديقه القديم عايد، يسألني عن أخباره ثم يشير إلى ولده الذي لم يتعد الثانية: أكرم الصغير؛ سلام رجالة! ليصافحني بأنامله الغضة وتساءلت متعجباً: أسميته أكرم؟ فقال: ومن أغلى منه؟ وقف بجوار زوج أختي في الغربة دون سابق معرفة وحين اضطر لإجراء عملية جراحية فوجئوا به يتواصل معهم يومياً ويزورهم محملاً بالهدايا والأطعمة، ساعدني حين افتتحت ورشة الصيانة وظل ينصحني لأرفق بالناس وأصلح تليفزيونات وغسالات وأجهزة البسطاء بأسعار زهيدة ثم اتصل بي وقال: لا ترد فقيراً، خذ حقك كاملاً مني أنا؛ سأدفع كل التكاليف!

أعود إلى العمل لأجد أحد المراجعين يريد استلام نتيجة التحاليل قبل أن يدفع قيمتها، أخبره بأن تعليمات الكفيل صارمة برفض ذلك بعد تكرر هروب المرضى دون دفع! يقول: أكيد كلهم أجانب، فأنفي صادقاً، يستفزني وتثور مشكلة كبيرة!

ماذا أفعل والأمور كلها استفزاز متزايد!

٣٧ ... النيروز

هي الحياة بكل ما فيها من ألم وأمل...
يرزقه الرحمن بثالث أولاده (يوسف) قطعة السكر التي تجبر الكسر وابتسامة اليسر التي تهزم العسر والمنحة التي تزيل المحنة، حمل نفس العام خطوة موفقة؛ تقدم إلى الجامعة المفتوحة بالقاهرة ليلتحق بكلية التجارة؛ لماذا يا أكرم؟ فقال مبتسماً: لسببين؛ الأول أنني وجدت نفسي في حاجة إلى العلم والمذاكرة، عملي وسط المحاسبين أكسبني بعض الخبرة لكني أحتاج إلى المزيد، هذا عصر العلم! فقلت: والسبب الآخر؟ فضحك وقال:

- يا بريء أنت؛ ألا تعرف؟ ابتسمت أحثه على الكلام، فاحمرّ وجهه:
- وعدني المهندس جاد أنه سيزيد راتبي إذا حصلت على البكالوريوس

أجازة قصيرة إلى مصر تقر عينيه برؤية (يوسف) ويطمئن على والدته وأسرته، يزور أخوته وأخواته؛ يسأل بالتفصيل هل يحتاجون شيئاً ولا يرتاح إلى ردودهم التقليدية مثل (الحمد لله بفضل ونعمة) لا يكتفي بالنقود التي يعطيها أولادهم؛ يدخل إلى المطبخ يطمئن على ما في البيت من تموين وخزين؛ ويفتش الثلاجات ليتأكد بنفسه أن بيوتهم لا ينقصها شيء! يجلس مع أولادهم منفرداً بكل واحد ويسألهم سؤاله المفضل:

- ما أكثر ما يسعدك في هذه الدنيا؟ تجيبه إحداهن أنها تعشق الشوكولاتة والورد فيفاجئها في الليلة نفسها بباقة أنيقة من الورود ومعها علبة مليئة بالشوكولاتة، وتبدو ابنة أخته الأخرى حزينة فيسألها لتجيب:
- لا شيء؛ مذاكرة وامتحانات؛ عادي يا خالو.. يبتسم ويقول:
- تعالي، تسأله متعجبة:

إلى أين؟

- بدون أسئلة

تذهب معه فيتعشيان في مطعم شهير ثم يصحبها إلى أحد محلات الحلويات الكبرى بالمنصورة لتنتقي ما تشتهي من الآيس كريم ويتمشى

معها على الكورنيش يداعبها بحديثه المليء بالضحك والنكات حتى تعود إليها ابتسامتها.

يسافر إلى عمل في أذربيجان فيقضي شهوراً ثم يعود في أجازة قصيرة إلى الرياض ويأتي لعمل عمرة فنلتقي لأقول:

- احكِ لي؛ أكيد كانت رحلة مليئة بالأحداث

- صحيح؛ عالم آخر؛ وإن كان البشر هم البشر في كل مكان، ولكن ماذا أحكي؟ التفاصيل كثيرة

- قص عليَّ كل شيء

- بل سلني أنت

- أفضل أن تقول أنت بلا ترتيب؛ كل ما يخطر على بالك

- بلاد ساحرة الجمال؛ رائعة الجو؛ المساحة ليست كبيرة؛ ربما أقل من خُمس مساحة مصر، والعاصمة تسمى (باكو)

- وطبيعة الناس؟

- طيبون مرحون محبون للحياة، حضرت حفل زواج واستمعت إلى موسيقاهم وأغانيهم التي تشبه موسيقانا وأغانينا الشرقية ولكن إيقاعها قوي وسريع جداً

- والطعام

- الأسماك رائعة من بحر قزوين والمحشي لديهم يسمونه (ضولمة)

- كبعض المصريين؟

- نعم، وعندهم أبطال عالميون في الشطرنج والمصارعة

- والأعياد.. ضحك بشدة:

- ذكَّرتني؛ هذا أجمل شيء؛ وجدتهم يحتفلون بأعظم أعيادهم في يوم مولدي

– ٢١ مارس

- نعم؛ يسمونه عيد النيروز!

- هل يتحدثون العربية؟

- لا، لديهم لغتهم (الآذرية) وبعضهم يتحدث الروسية

- وكيف تتفاهم معهم؟ فضحك

- أنسيت أنني ضليع في قواعد اللغة الروسية؟
- ههههههه تذكرت الآن؛ من أيام القرية السياحية؛ خاراشو يا حبيبي
- ولنا زملاء عمل من أهل البلد يقومون بالترجمة عند الحاجة
- وأغلبهم مسلمون!؟ فقال بألم:
- نعم؛ بعد سبعين عاماً من الاحتلال السوفييتي ومنع شعائر الإسلام عادت المساجد تعمر شيئاً فشيئاً بالمصلين
- شباب؟
- بل أغلبهم من كبار السن وقليل جداً من الشباب، ثم ابتسم وأكمل:
- لا تتخيل ماذا يفعلون إذا عرفوا أنك عربي؛ يحتفلون بك ويقبِّلون يديك ويقولون: يكفي أنك تستطيع قراءة القرآن
- وهل كان ذلك ممنوعاً؟
- ممنوعاً! هذه كلمة بسيطة لا تعطي حقيقة المعنى؛ قصاصة ورق بالعربية أو مجرد مسبحة كانت كافية للسجن، كانوا يخبؤون المصاحف في أسقف البيوت وحوائطها، رأيت بنفسي سراديب وأنفاق عميقة وطرقاً وعرة كانوا يسيرون في ظلامها مجتهدين في التخفي ليصلوا إلى من يعلمهم القرآن، أما في رمضان فكانوا يجبرونهم على الإفطار ويعاقبون من تثبت عليه تهمة الصيام
- إلى هذه الدرجة؟ يضحك بمرارة:
- بل وأكثر؛ كانوا يختبرون الطلاب بتقديم الطعام والشراب مجاناً ويستجوبون التلاميذ الصغار ليتأكدوا من صيامهم ومن وجدوه صائماً صبوا عليه وعلى أهله العذاب
- غير معقول! وكيف أوضاعهم الان؟
- يتعافون بالتدريج؛ لكن الأمور معقدة
- كيف؟
- جماعات الصوفية بطقوسهم المبتدعة هم من حفظ الإسلام- ولو اسمياً- في تلك البلاد فترة الشيوعية
- ثم؟

- ثم إيران التي تقع مباشرةً إلى الجنوب؛ جاءت بدُعاتها لتنشر مذهبها في ظل غياب تام للأزهر وعلماء السُّنة
- إذا تركت مكانك فلا تلم من يتحرك فيشغله
- أما الشباب فأغلبهم متغربون
- عولمة
- هههههه، بالضبط، والله تذكرت كلامك هناك؛ خاصةً حول القلب والأطراف؛ قصة حزينة تحكي مأساة أذربيجان
- كيف؟
- فتح الإسلام تلك البلاد مبكراً على أيدي الأمويين ثم جاء العباسيون
- نعم
- الآذريون ظلوا جزءاً من الدولة الإسلامية حتى نشأ الصراع فترة المأمون الذي استعان بأخواله من الفارسيين وجعلهم الوزراء
- نعم؛ وبعد
- قُتِل المأمون وجاء المعتصم بأخواله من الأتراك
- دائرة لا تنتهي
- صحيح، تخلى المركز عن قبضته للأطراف فجاء الشيعة البويهيون ثم السلاجقة الأتراك ثم الشيعة الصفويون ثم العثمانيون الأتراك ثم الإمبراطورية الروسية ثم الشيوعية
- ومع تعاقب أنظمة الحكم ضاعت الهوية
- والدين؛ بل والجغرافيا؛ فاحتلت أرمينيا الإقليم الغربي الذي يتردد اسمه في نشرات الأخبار
- ناجورنو كاراباخ
- الاحتلال واحد في كل مكان وزمان؛ يترك بين كل دولتين حدوداً متنازَعاً عليها ليشتعل الصراع وتتأجج الحروب
- ما شاء الله؛ سأطلق عليك لقباً جديداً (أكرم العالمي)!
- ههههههههه أو (العولمي)! لكن قل لي ما أخبارك أنت؛ صحتك وعملك؟
- عيني ليست على ما يرام من آثار السكر ولابد من علاج بالليزر وغياب متكرر عن العمل قد يستمر شهوراً، وقالوها لي بصراحة:

- ماذا قالوا؟

- لا يمكننا الصبر على غيابك فترات طويلة؛ إما أن تلتزم بمواعيد عملك أو.. ترحل

- والحل؟

- ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت

- سترحل؟

- على وشك

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

٣٨ ... أبيه عثمان

قبل عودتي إلى مصر يحضر الفتى، نذهب معاً للصلاة في مسجد قريب، نلتقي شيخي الشنقيطي الذي يعلمني تلاوة القرآن، حاولت تقبيل يده فسحبها:

- أستغفر الله
- تعلمنا توقير العلماء على يديك يا مولانا
- ما أنا إلا ناقل علم، بارك الله فيك، لا تحزن
- أغادر خير بقاع الأرض، فقال
- كان الصحابة يحضرون للعمرة والحج ولكن يفضلون الإقامة خارج مكة، فقال أكرم
- عجيب! ولماذا؟
- قيل: كما تتضاعف الحسنات داخل الحرم تتضاعف السيئات، يسر الله لك أمرك وزودك التقوى
- جزاك الله خيراً

يقوم الفتى باحترافية بملء الحقائب، يضع يده في جيبه ويخرج حجراً، أنظر بدهشة حين يضعه في يدي؛ يبتسم ويقول:

- هل تذكر؟
- ما أشبهه بحجر المنصورة
- أكاد أقسم أنه هو؛ هو نفسه بكل ملامحه! ولن تصدق أين وجدته
- أصدقك بالتأكيد ولكن أين؟ رأيتك تقذفه في النيل
- حيث البشر يشبهوننا والأوجاع مثل أوجاعنا والأحجار كأحجارنا؛ هو النظام العالمي الجديد الذي يجعل من الضعفاء مجرد أحجار متشابهة؛ وجدته في أذربيجان!

أتصل بصديقي الفقي فيفاجئني بأنه أنهى إجراءات الهجرة إلى كندا:

- بعد حادث العبارة أيقنت أنه لا فائدة من البقاء في هذه المنطقة!

يوصلنا الفتى إلى المطار ويقنع الموظف بالتغاضي عن الوزن الزائد:

- خروج نهائي وعائلة ربنا يكرمك

في مصر نتنقل بين معاناة وضيق؛ يبحث أخونا المشترك الدكتور عثمان زوج شقيقته الوسطى- ابن خالتنا وابن عمي- عن عقد عمل؛ هو طبيب سبقني إلى تخصص التحاليل وبحكم السن والقرابة نطلق عليه (أبيه) يستقر أكرم في فرع الشركة بمصر شهوراً؛ ينهي اختبارات الجامعة المفتوحة ولكن راتبه قليل والنقود تتبخر! نلتقي؛ يطمئن على صحة عينيّ فأخبره: تحسنت كثيراً مع العلاج بالليزر، فيقول:

- لا حل إلا السفر من جديد
- كان حلمك أن تفتتح مشروعك الخاص
- لم يعد لنا مكان هنا
- أصبحنا ضيوفاً!

- يطلب من المهندس جاد أن يعود إلى الخليج، ويلح علينا- أبيه عثمان وأنا أن نختار عقدي عمل في الرياض حيث احتفظ بشقته هناك رغم كثرة تنقلاته! بالفعل يتحقق ما أراد؛ يسافر (أبيه عثمان) إليه أولاً فيهاتفني الفتى سعيداً:

- تعال معنا، أخيراً سنصبح عزوة كبيرة..
- من جديد؟!

إلى الرياض؛ حي الملز الذي يتوسط المسافة بينهما من جديد! يستقبلني وأبيه عثمان في المطار، نصل إلى المركز الطبي حيث أقيم بالسكن بضعة أسابيع، العمل براتب أعلى وظروف أفضل، قبل استقدام عائلتينا نقضي كل جمعة عند الفتى، والغداء سمك مشوي من محل بنغالي! تمر أيامنا سعيدة وأعود أقابل صديقي ديدو من جديد، يبدو أن الله استجاب دعوات الفتى، ألحظ تغييراً سلبياً في نظافة محل الحلاقة فأسأله: هل رحل الحلاق التركي؟ فأجاب: تبدلت الأوضاع فوجد ظروف العمل في بلاده أفضل، الخليجيون- عكسنا- يفضلون ألا يسلموا رؤوسهم للأتراك! بعد شهور يعود إلى الإمارات، يستقدم أبيه عثمان أسرته، ويحضر إلينا زميل مصري جديد؛ الدكتور علاء؛ استشاري أمراض الكلى؛ يخفف عني كثيراً من متاعب العمل وسخافات الإدارة، أندهش لمستواه العلمي- اكتشفت عبر محركات البحث الطبية أن أبحاثه تؤهله دون مبالغة ليكون

أهم علماء العالم في تخصصه الدقيق؛ علاقة الفيروس سي بأمراض الكلى!

- هذا الرجل البسيط المتواضع! أسأله:

وما الذي أتى بك إلى هنا بعد الدكتوراه من شيفلد؟

- راتب التدريس في كلية الطب ضعيف وحين أجريت المقابلة في مصر عرضوا أضعافه! لم أتقبل فكرة الإقامة في الغرب حفاظاً على ديني ودين بناتي!

أستقدم أسرتي، نحن الآن على مشارف عام دراسي جديد، ولدي الأكبر أصبح في سن الدراسة؛ يلعب الكاراتيه في نادٍ قريب ويأتي محفظ القرآن إليه يومين أسبوعياً؛ تثور الأسئلة المحيرة؛ أين نذهب به؟ مدرسة حكومية مجانية حيث المناهج بسيطة ولا لغات أجنبية، أم مدرسة خاصة بمصروفات تدرس المناهج الحكومية نفسها ولكن باهتمام أكبر، أم مدرسة دولية تدرس كل شيء باللغة الإنجليزية!؟ مناقشات مطولة واستخارات واستشارات، أهاتف الفتى فيجيب:

- لا يسمح راتبي إلا بإدخال عمرو وخالد مدرسة مجانية! وهنا مثل مصر؛ لا يوجد تعليم وإنما الاهتمام في البيت هو الأساس.

أتفق وزوجتي أن ندخله مدرسة دولية؛ أما أولاد أبيه عثمان فتدخل البنتان مدرسة ثانوية أهلية ويدخل الولد مدرسة ولدي الدولية؛ صباحاً ينقل كل منا أولاده، أما وقت العودة المزدحم فأقوم بالتوصيل للأولاد جميعا يومين أسبوعياً ويقوم (أبيه) بالتوصيل ثلاثة أيام، التدريس بالإنجليزية ولا يُسمح للتلاميذ بكلمة عربية واحدة وإلا تم عقابهم، هناك حصة أسبوعية واحدة للغة العربية ولكنهم يلغونها أغلب الأحيان! لا تربية دينية ولا قرآن على الإطلاق، الحصول على الكتب يتم عبر مافيا متخصصة تمتص دمك وتضاعف النفقات، يأتي طفلي من المدرسة؛ يتناول طعام الغداء ثم تبدأ رحلة العذاب مع الواجبات، تظل زوجتي تعاني معه حتى يسقط فوق الكتب فتحاول ليظل مستيقظاً باكياً حتى يصلي العشاء وينام، في أغلب الأيام نوقظه قبل الفجر ليستكمل الواجبات، بعد أسابيع قليلة يتوقف مجبراً عن دروس الكاراتيه ثم

تتوقف دروس القرآن! وبعد أن كان يقرأ ويكتب بالعربية في فترة الحضانة أصبح يجد صعوبة في ذلك! ثم يطمع أستاذه مستر جيلبرت في إعطائه دروس خصوصية!

أستيقظ على رنين الهاتف، تعب أبيه عثمان فجراً ونقلوه إلى المستشفى التخصصي؛ جلطة لضيق بالشريان التاجي! أذهب مسرعاً فيخبرونني أنه بالعناية القلبية المركزة ولن يُسمح بزيارته إلا بعد عمل دعامة بالقلب! الزيارة ساعتين ظهراً لتنظر إليه من خلال نافذة زجاجية؛ أقوم بتوصيل الأولاد ذهاباً وإياباً؛ الزحام يخنقني، يتوسط لي بعض الزملاء حتى ألتقي بطبيب قلب مصري نابغة ذي شهرة واسعة- الدكتور ربيع- يعمل بالمستشفى التي أغلب طاقمها من الجنسيات الغربية؛ يطمئنني على الحالة ويسمح لي بالدخول معقماً، اللمس ممنوع، أخي الأكبر الحبيب؛ أراه في تلك الحالة من الوهن ولا أملك له شيئا، خمس دقائق فقط ثم خرجت لأجد أكرم أمامي! نتعانق ويسأل:

- ما الأخبار؟

- الحمد لله، كيف جئت من دُبي؟

- قلت لهم زوج أختي بحالة مرضية حرجة ولابد أن أراه

- وعملك؟

- الزملاء فيهم البركة، قل لي هل أستطيع الدخول لرؤيته؟

- صعب جداً؛ ربما غداً، سأكلم الدكتور ربيع، ولكن كيف تترك عملك هكذا؟ كلنا هنا معه

- لا يمكن أن أتخلى عنه في هذا الموقف حتى لو خصموا من راتبي أو فصلوني

- لا إله إلا الله

يقوم الفتى بتوصيل الأولاد؛ أقارن بين غضبي واختناقي من الزحام لمجرد التوصيل يومين وبين شهامته وتحمله للمسؤولية وتركه لعمله وحضوره بالطائرة على نفقته الخاصة ثم تبرعه بنقل الأولاد جميعاً، أقول له:

- يكفيك أن تقوم بتوصيلهم بدلاً من أبيه عثمان في أيام جدوله فقط..

يبتسم ويقول:

- بل كل الأيام؛ أنا في أجازة
تتحسن الحالة تدريجياً ويخرج أبيه عثمان من المستشفى ويقضي فترة النقاهة في بيته ويرفض أكرم العودة إلى دبي حتى يعود أبيه إلى العمل، يعود إلى دبي فينهي بعض الإجراءات ثم يعود إلى العمل بالرياض بناءً على طلبه رغم تخفيض راتبه، أسأله:

- ولماذا لم تستمر هناك؟

- لطالما أردت العزوة فأكرمني الله بوجودكم هنا معي؛ فكيف أذهب إلى مكان آخر؟!

٣٩ ... الرؤيا

يستقر في الرياض من جديد وقبل بدء العام الدراسي يسافر إلى مصر لينهي تجهيز وتأثيث شقته الجميلة في بيت العائلة، يحضر أسرته الصغيرة مرة أخرى لنصبح العزوة التي حلمنا بها طويلاً، لا يمر يوم دون لقاء ومهاتفات بين العائلات الثلاث، قررتُ وزوجتي أن نخرج ولدنا من المدرسة الدولية؛ لن نمحو هويته ونحرمه من طفولته وليتعلم الإنجليزية فيما بعد، ندخله مدرسة أهلية ونعاود دورات النقل من جديد، مازال أبيه يعاني من الإجهاد وأعاني من مضاعفات السكر وأحتاج إلى جلسات الليزر مجدداً فيتطوع الفتى بنقل الأولاد جميعاً ذهاباً وإياباً، بدأ يقتني بعض الكتب؛ أسأله فيخبرني أنه تعرف على صحبة طيبة في المسجد يجلسون في مقرأة لتلاوة القرآن، أعرف نوعية تلك الكتب واتجاه من يوصي بقراءتها؛ أشفق عليه أن يمر بمثل تجربتي مع (الإخوة) الذين أحاطوني بالحب والرعاية طويلاً لكنهم لا يستمعون إلا للقادة والكبار، ويضعون كلام البسطاء من أمثالي في سلة القمامة! هل أنصحه بالابتعاد؟ الأمر في بدايته والفتى محب لدينه متحمس للقراءة وتعلم أحكام التجويد مع صحبة طيبة، فلأدعه يخوض التجربة وربما كان أسعد حظاً مني، لا مشكلة فهو لا يخفي عني شيئا وسأتدخل في الوقت المناسب إذا احتاجني، يلح عليَّ أن أذهب معهم إلى استراحة فأسأله:

- ما الأمر؟

- أريدك أن تتعرف على الدكتور بسام

- ومن هو؟

- هو مدرس هندسة طبية بالجامعة؛ في مثل عمرنا، لكن كلامه رائع؛ اسمع منه وناقشه

- إن شاء الله

نذهب إلى الاستراحة: مكان واسع يتم استئجاره للمجموعات مقسوم إلى نصف للرجال ومثله للنساء وبه حمّام سباحة وملاعب خضراء وقاعات للجلوس، تذهب الزوجات والأولاد إلى مكانهم ونتعرف على بعض الموجودين، وبعد قليل يأتي بسّام فارع الطول ألدغ حرف الراء؛ بالغ

الثقة؛ تراه فتحبه فوراً، يلقي محاضرة حول ضرورة أن يحدد كلٌّ منا هدفاً يجتهد ليحققه ثم يسارع بالعودة إلى مصر، يسأله أحدهم:
- لكن بعضنا يفضل البقاء هنا لأسباب أخرى؛ الحياة مريحة، الراتب يكفي لمعيشة كريمة، تربية الأولاد - وخاصةً البنات- أفضل في ظل غياب الاختلاط والبلطجة
فيرد بسام:
- في نهاية المطاف سنعود إلى وطننا، أليس الأصوب أن نربي أولادنا في بلدهم على القيم والأخلاق وسط مجتمعهم؟ كلما زادت مدة الاغتراب تصعب العودة
قال أحدهم:
- تغربتُ لأشتري قطعة أرض أبني فوقها بيتاً، قدرت مدة أربع سنوات وكلما ادخرت مبلغاً تضاعف سعر الأرض حتى أتممت أحد عشر عاماً وما زلت هنا
- أظنك تحكي قصة أغلب المغتربين، لا بد من المرونة، إذا كان الأمر صعباً فلنحاول الاستغناء عنه، أنا مثلاً جئت كي أشتري شقة بسيطة في الهرم وادخرت ثمنها سريعاً وسأعود إلى مصر في أقرب وقت.
بدا كلامه مقنعاً وإن كان مثالياً، ثم انتقل إلى موضوع آخر؛ النظام العالمي الجديد وكيف تريد أمريكا والغرب أن يحكموا قبضتهم على أوطاننا وينهبوا ثرواتنا ويقسموا شعوبنا، همس أكرم لي:
- موضوعك! هيا تكلم
- كلامي لن يعجبه
- لا يهم، قل رأيك وستكون مناقشة مفيدة
أنهى كلامه وأعلن عن انتظاره لأي تعليق فرفعت يدي وقلت:
- كلامك جميل ومرتب، لكنني أجد فيه بعض الاستسلام لنظرية المؤامرة.. فقال:
- العولمة مؤامرة خبيثة تمحو هوية أمتنا.. فقلت:
- اسمح لي حضرتك؛ هذا وهم
تعالت همهمات تريد إسكاتي فقال:

- من فضلكم نسمع وجهة نظره، تفضل.. فقلت:
- لم يجلس أحد في الغرب يُنظِّر لفكرة العولمة، بل جاءت وليدة طبيعية لتطور الرأسمالية ووسائل الاتصال وشبكات المعلومات والإنتاج الضخم للسلع
- فكيف نقاوم هذا الطوفان؟ فقلت:
- ولماذا نقاومه؟
علت الأصوات فنهاهم من جديد:
- يا جماعة فلنسمع أخانا.. فأكملت:
- ما المانع أن نستفيد من هذه الثورة المعلوماتية في عصر السماوات المفتوحة لننقل فكرتنا إلى العالم كله، ماذا نخشى؟ نحن على الحق المبين؛ تتوق الدنيا لمبادئنا التي تحقق العدالة ولا تفرق بين الناس على أساس لون أو عرق أو دين.. فهتف أكرم مسانداً لفكرتي:
- نحن نتآمر على أنفسنا أكثر منهم، أين نحن من ركب الحضارة؟ نقرأ ثماني صفحات في السنة بينما يقرأون عشرات الكتب، نعمل نصف ساعة يومياً ويعملون ثمان ساعات، ينتج الآخرون ما نأكل وما نشرب وما نلبس وما نركب؛ حتى المسبحة وسجادة الصلاة، لو تمسكنا بسماحة ديننا وعدله وأخذنا بأسباب العلم والقوة لانتشر وانتصر، فقال بسام مبتسماً:
- صحيح؛ ولذلك يجب علينا أن نعود إلى وطننا؛ نكافح حتى تتغير أحواله من فقر وجهل ومرض وفساد واستبداد؛ أحلم أن يحصل المصريون على حقوقهم الآدمية.. فقلت:
- على أن يسبق هذا أي كلام عن المؤامرة! فقال:
- هذه نقطة الخلاف بيننا، لابد من إصلاح أوطاننا الممزقة وفي الوقت نفسه توعية الناس بما يحاك لنا من خطط شيطانية، هل تنكر أنهم يتآمرون ضد شعوبنا وديننا؟
- الخلاف حول طريقة تعاملنا، هم يتآمرون بكل تأكيد، وهذا حقهم لأنها مصلحتهم، لكن هذا لا يعني الاستسلام لهم كأنهم آلهة والعياذ بالله، أنت تعتبر العولمة شراً محضاً وأراها فرصة نقدم من خلالها أنفسنا وديننا

للعالَم!
ننصرف ويغادر بسام إلى مصر حيث يسعى جاهداً ليحقق حلمه، تتغير ظروف العمل فيطلبون من أكرم السفر إلى مكة وجدة عدة أيام كل شهر ثم يعود إلى أهله بالرياض، يأتي أصغر إخواني بعقد عمل إلى جدة فيستقبله مع أمين وشقيقتي في المطارويعطيه خمسمائة ريال؛ يحاول أخي أن يردها فيقول له بحزم:
- أنا أخوك الأكبرهنا
أحلم ذات ليلة به يوصيني بزوجته وأولاده خيراً؛ لم أسع إلى تفسير وكتمت الرؤيا تماماً، ذات ليلة تتصل زوجته بزوجتي:
- الأولاد حرارتهم مرتفعة
- وهل أعطيتِهم مخفضاً للحرارة؟
- عدة مرات، وكذلك كمادات، والحرارة مستمرة
قلت:
- (هذا تأويل رؤياي من قبل) هيا بنا.. أثناء الطريق رويت منامي لزوجتي؛ اصطحبناهم إلى مستشفى قريب ووجدت الطبيب زميلاً حبيباً من دفعتي، أتم الكشف والعلاج وتحسنوا بفضل الله.
يعود الفتى ونذهب لزيارتهم؛ أجده يشاهد التلفاز ويضحك بشدة؛ مسرحية (الدخول بالملابس الرسمية) المشهد الذي يقول فيه (ممتاز) أنه ترك العمل لأن أنف المدير (فردة أكبر من الأخرى!) يقول: هذا المشهد يذكرني بك! ابتسمت: وكيف؟ فقال: تترك العمل وتثور دائماً لأسباب- اعذرني- واهية.. أغضبتني الكلمة فقلت بعصبية: لكنها تثبت وجهة نظري في الحياة.. ابتسم وقال: حقك عليَّ، ثم قام وقبّل رأسي بتودد وأكمل: لكن قل لي ماذا تقصد؟ قلت: هذا (ممتاز) ابن الطبقة الوسطى المتميز بتفكيره وعلمه وفلسفته لكنه فقير، وزوجته (سعيدة) التي تتطلع إلى حياة أفضل، تجتذبه (نشوة) الغنية التي تملك كل شيء لكنها تريد أن تمتلك أيضاً المتميزين من الطبقة الأدنى بإغرائهم بالمال والفيلا والسيارة، يتورط فيتزوجها ثم تنقلب حياته فيخسر كل شيء؛ لا تناسبه معيشة الأثرياء ولم يعد قادراً على العودة إلى صفوف البسطاء، قال: هذه مجرد مسرحية

ضاحكة، فقلت: أليس هذا هو حالنا؟ بل أليست هذه خطة الدول العظمى في اجتذاب الكفاءات من الدول الفقيرة؟ ضحك وقال: كل هذا؟ فقلت: رحل زويل إلى أمريكا ورحل الدكتور ربيع إلى كندا، بل أين يحيى المشد وسميرة موسى وسعيد السيد بدير؟ فقال: تقصد أنهم قُتلوا؟ فقلت: نعم؛ يجتذب الكبارُ المتميزين من دول العالم المقهور، فإما أن يكونوا معنا... أو نغتالهم، فقال: بلا رحمة.

٤٠ ... الأكرم

ما زال الفتى يعمل عدة أيام بين جدة ومكة ثم يقضي بعض أسابيع بالرياض ليعاود الكرّة من جديد؛ كفاح مرهق لكنها الدنيا، مع بداية العام الجديد ٢٠٠٨ يرشحني مدير المركز لحضور مؤتمر المختبرات الطبية في دبي، نتجهز للسفر وأسأل الفتى عن تفاصيل الجو وأماكن التنزه؛ يحفظ الإمارات عن ظهر قلب؛ لغة التعامل هناك هي الإنجليزية! يحذرني من كثرة الفنادق بتراخيص للدعارة! أتصل بصديق قديم يعمل مديراً لشركة سياحة ليتمم لنا إجراءات الحجز، بعد مجهود يصل إلى شقق فندقية بدون دعارة، أوائل فبراير نسافر ويستقبلنا في المطار ابن خالي الذي يعمل مهندساً في دبي ولكنه يقيم بالشارقة حيث السكن أيسر وأقل تكلفة، يوصلنا إلى الشقة وتتوالى المفاجآت: الثلاجة مليئة بالخمور!
أتصل بخدمة الغرف ويأتي العامل البنغالي؛ أقول له:
- خذ كل هذه الزجاجات خارج الغرفة، فيرد متعجباً:
- النزلاء يفضلون تركها هنا والمحاسبة على ما يستهلكون وقت المغادرة
- ألا ترفعونها من غرف المسلمين؟ فابتسم "محمد خان" وقال:
- المسلمون أيضاً يفعلون ذلك

نفرغ أمتعتنا في الدولاب ونفتح أدراج المكتب الصغير فنجد نسخة انجليزية من الكتاب المقدس! وليس هناك مصحف أو سجادة صلاة! أردنا معرفة القبلة ولا أعرف طريقة تحديدها من المحمول، يأتي خان مجدداً ليعتذر بأنه لا يعرف اتجاهها، ولكنه يتذكر وجود مسجد قريب، أنزل معه فيشير إلى شارع طويل: قبل أول تقاطع؛ يمين، أسير مدة عشر دقائق في جو- فبراير- شديد الحرارة! ويلتف الطريق حتى أصل إلى المسجد؛ أدخل وأصلي وأحاول تخيل مكان القبلة حين أعود إلى الشقة، نتجول داخل البرج الفندقي ونكتشف حمام السباحة على السطح؛ تستلقي امرأة شبه عارية بجوار رجل؛ يبدوان من جنسية أوروبية؛ تنزعج زوجتي من المشهد وأطفالي لا يجيدون السباحة فرجعنا إلى الشقة، نستيقظ صباح اليوم التالي؛ ننزل لتناول طعام الإفطار في البوفيه المفتوح؛ يفرح أطفالي بالطاهي

الذي يجهز أطباق البيض المقلي مع قطع اللحم والخضروات، أتناول بعض شرائح من (اللانشون) الذي أجد لونه أغمق من المعتاد وشديد الدسامة، أتناول شريحة واحدة فقط فلم أستسغ طعمه ثم أتناول القهوة السادة، أذهب إلى المؤتمر بسيارة أجرة والأسعار ضعف أسعار الرياض؛ وكل شيء بالفاتورة، المؤتمر عالمي بحضور ألمع الأسماء وأحدث الأبحاث في مجال التحاليل الطبية، لفت نظري بحث مرعب حول عودة انتشار مرض الدرن من جديد في العالم كله مع زيادة الفقر وسوء التغذية وانتشار الإيدز، سألتُ المحاضِرة فقالت إن نسبة حاملي المرض تصل إلى ثلث البشر! وإذا انخفضت المناعة يصاب الحامل بالمرض وقد ينقله إلى غيره؛ كارثة رغم التقدم العلمي؛ فليمت الفقراء بينما شركات الأدوية الكبرى لا تهتم إلا بالمكاسب المادية!

أعود ونخرج نتجول في بعض المراكز التجارية والحدائق، عرفت معنى كلمة الفتى!

الشوارع مزدحمة لكنها نظيفة؛ وتكاد لا ترى عربياً! حتى شرطي المرور: هندي!

يقولون إن نسبة الإماراتيين لا تتعدى واحداً من كل عشرة! والبلاد معرضة لالتهام وشيك من الهند أو إيران! في اليوم التالي نعود إلى بوفيه الإفطار فأجد مفاجأة أخرى: اللانشون الذي تناولته بالأمس وضعوا عليه اليوم لافتة تقول:

- تنبيه؛ هذا لحم خنزير!

شكوت فاعتذروا بأن أحد النزلاء أسقط اللافتة بطريق الخطأ في اليوم السابق! وكلما تذكرت ذلك الموقف يصيبني مغص حاد!

نعود إلى الرياض ونقضي أسابيع، يقترح الفتى أن نذهب بعد نهاية عمل يوم الخميس- أبيه عثمان وأكرم وأنا- بسيارته إلى المدينة المنورة، أوافق فوراً لشوقي إلى زيارة الحبيب وحبي لهدوء المدينة وسكينتها وأهلها الطيبين، نتبادل قيادة السيارة فنصل بعد نحو عشر ساعات، نصلي ونزور وندخل الروضة فيقول أكرم: أشم رائحة الجنة! نصلي ركعات ونخلي المكان لغيرنا من المشتاقين، بعد صلاة الجمعة نخرج مستبشرين

فأرى وجهاً يتحرك صاحبه وسط الزحام وحوله دائرة تحرسه ولكني أعرفه؛ أبيض أحمر كريهاً مستفزاً، أنظر إلى أكرم فأجده ينظر بمثل ذهولي ويقول:

- أهو هو؟ فقلت:

- نعم هو!

ينظر إلينا (ديفيد)! بقلق أوّلي ثم بابتسامة فاجرة، ويشير إلى أحد حراسه فيتشددون في الإحاطة به ثم يختفي ببراعة احترافية وسط الزحام! يتعجب أبيه عثمان فنؤجل القصة لنحكيها في رحلة العودة، ماذا جاء به إلى هنا؟ أليس المكان فقط للمسلمين؟ هل أشهر إسلامه؟ لا أظن؛ فنظراته تخلو من اطمئنان مؤمن يزور رسول الله، هل جاء في مهمة جديدة؟ هنا في قلب طيبة؟ هل نبلغ السلطات؟ وماذا نقول لهم؟ أكان هو بالفعل أم شبيه؟ نعود متعجبين ولكن مشاغل الحياة تأخذنا بعيداً عن التفكير فيه وفي مؤامراته!

يعود أكرم إلى جدة لعمل ويتصل به خالي في مصر ليخبره أنه أرسل له ولنا (حلاوة المولد) مع أحد جيرانه الذي جاء لعمرة، الجمعة ٢١ مارس الموافق ١٣ ربيع الأول، كعادته يستأجر سيارة ويسافر إلى مكة؛ بعد الصلاة يتصل بي وهو في الطريق:

- أأنت غاضب مني؟

- لا أبداً حبيبي هي فقط مشاغل، أذكر أنه يوم ميلادك طبعاً، كل سنة وانت طيب، والله لم أتصل بأمي لتهنئتها بعيد الأم!

- أول مرة تنساني يا غالي

- سامحني والله هموم في العمل.. يضحك:

- لن أحضر لك حلاوة المولد، إياك أن تكررها ثانية! فقلت: وعد!

ينهي مأمورية العمل ويقابل جار خالي ويهاتف أمين:

- جهزوا الغداء، أنا قادم

بعد قليل يتصل بي أبيه عثمان ليخبرني:

- وقع حادث؛ أكرم

هي تلك اللحظات التي لا تدري ماذا تفعل فيها أو تقول، بالكاد أذهب لألحق بأول طائرة إلى جدة، أصل إلى المستشفى ليصعقني الخبر؛ طارت السيارة الأمريكية الضخمة ذات الدفع الرباعي يقودها صديقان- سعودي وإماراتي- من الاتجاه المعاكس لتخترق الحاجز المعدني وتسقط فوق سيارة
أكرم وتصطدم كذلك بسيارتين؛ يسألني أحدهم:
- تسأل عن المصري أم اليمني أم السوري؟
- بل المصري
- البقاء لله، اصبر واحتسب
أكان ذلك صحيحا؟! مكثت غير مصدق نصف ساعة سادها صمت متردد ثم بكاء هيستيري، اتصلت بأبيه عثمان الذي كلفني ثقلاً تنوء بحمله الجبال:
- أبلِغ أهله في مصر
لم أستطع أن أناقش: ولماذا أنا؟ كل ما قدرت عليه أن قلت:
- حاضر
بعد محاولات استمرت ثلاثة أيام للحصول على تصريح للدفن بمكة رفضت السلطات، أذهب لأؤدي عمرة عنه وقد كنت أرجو أن يقوم هو بتلك العمرة عني! أدعو وأبكي، أنهي السعي وأحلق وأتذكر كل عمراتنا وحجاتنا معاً، ألمح رجلاً مُقعداً مألوف الوجه يجلس فوق كرسي متحرك ويقرأ في المصحف متتعتعاً بكثير من اللحن والأخطاء ولكن بكثير من التأثر والخشوع؛ أذهب فأقول: حضرتك الأستاذ نبيل؟ يكمل القراءة ويهز رأسه (نعم) ثم يقول مبتسماً: ليس لي من اسمي نصيب، فقلت: أنا قريب أكرم.. ينهي الآية (ألا إن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) ثم يبتسم في صفاء ويكرر الآية نفسها ويقول: وكيف عرفتني؟ فقلت: كان يحتفظ بصورتك، فقال: كنت ضائعاً بين شهوات وشبهات؛ تخلى عني الجميع إلا هو، ظل ينصحني، وأرجو أن يتوب الله عليّ.. أعلمته بالنبأ فأجهش ببكاء مرير وقال: بل هو حيٌّ؛ مثله لا يموت! فقلت: ادع له!

عدت إلى مغسلة المستشفى؛ لم يكن هناك من أقاربه المقربين من حضر الغُسل والتكفين غيري، تماسكت قليلاً ثم انهرت بالبكاء ليثبتني الحاضرون، لكنني بعد رؤيته كنت مطمئناً تماماً؛ جروحه ما زالت غضة كما يصفون جراح الشهداء! كالبدر ليلة التمام! بابتسامته الجميلة الصافية؛ ابتسامة واهنة من وجه يتلألأ بنور عجيب يقول لهذه الدنيا التافهة:

اكتفيتُ منكِ ومن معاناتك وسخافاتك، وداعاً

وكان لابد من مواجهة الحقيقة؛ كلُّ نفسٍ ذائقة الموت، هو الفراق إذن يا أخي الغالي الحبيب، وداعاً يا فتى، وداعاً يا مصري، منذ يومها لا أعُد نفسي من الأحياء، لكني تعزيت بأن من أنجب لم يمت، أنظر إلى أولاده مشفقاً ثم متفائلاً وأتذكر الرؤيا: لا يا حبيبي، لن أتخلى عنهم أبداً ما حييت ولو باعدت بيني وبينهم المسافات، أما قصتك التي لو لم أحضرها بنفسي لما صدقتها، فلابد أن أرويها لهم ليعلموا أي صنف من الرجال كان والدهم؛

أخي... أكرم!

إصدارات الدار




يوميات 2


للأطفال وبس

ابن حرام

أزمة ثقة


اللعب تحت السرير
رواية
أ.د. محمد الشحات

المصنع

محمد حمودة

ألعاب خطرة
حسام الشحات

شمس بين الضباب

محمود امام


للنشر و التوزيع